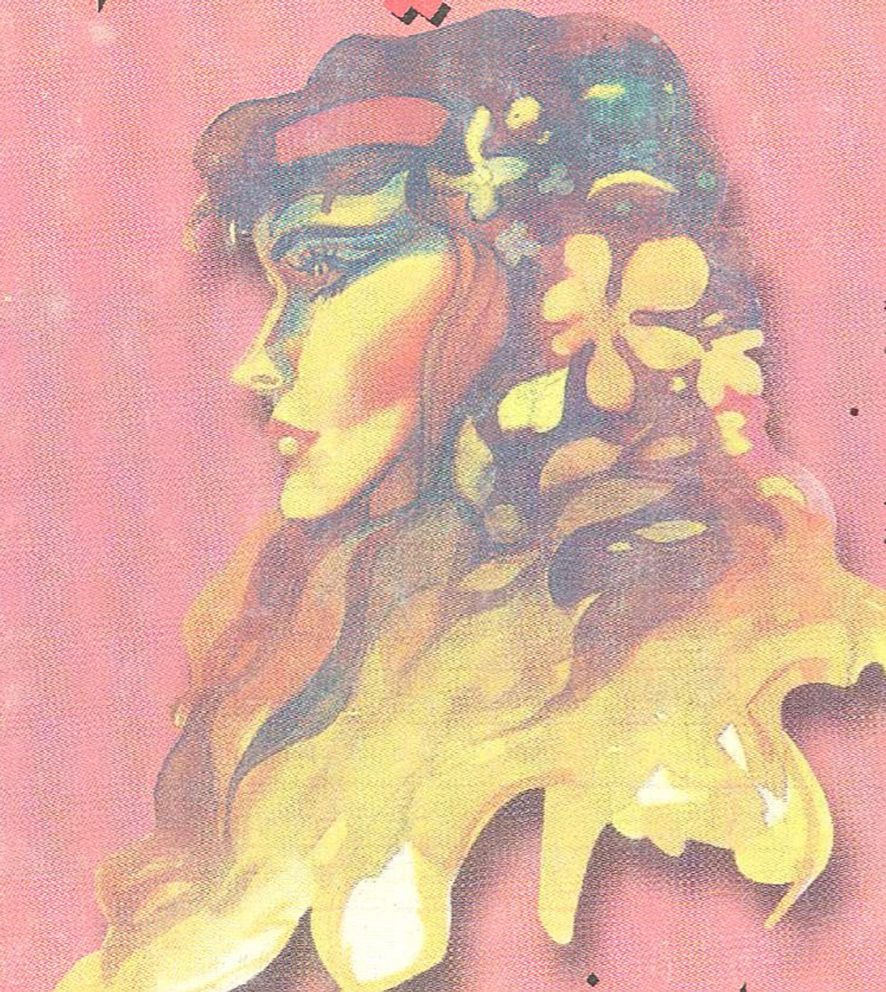
مكتبة
الأسرة
1999

مهرجان القراءة للجميع

الأعمال الإبداعية

فتحي غانم

تلك الأيام



لوحة للفنان: عبد العال

الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تقديم د. جابر عصفور

تلك الأيام

تلــك الأيــام

فتحــى غــانــم

مهرجان القراءة للجميع
للطفل. للشباب. للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

مهرجان القراءة للجميع ٩٩

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الإبداعية)

تلك الأيام

فتحى غانم

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان: محمود الهندى

المشرف العام:
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة التنمية الريفية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

وتمضى قافلة «مكتبة الأسرة» طموحة منتصرة كل عام، وها هى تصدر لعامها السادس على التوالى برعاية كريمة من السيدة سوزان مبارك تحمل دائمًا كل ما يثرى الفكر والوجدان ... عام جديد ودورة جديدة واستمرار لإصدار روائع أعمال المعرفة الإنسانية العربية والعالمية فى تسع سلاسل فكرية وعلمية وإبداعية ودينية ومكتبة خاصة بالشباب. تطبع فى ملايين النسخ التى يتلقفها شبابنا صباح كل يوم .. ومشروع جيل تقوده السيدة العظيمة سوزان مبارك التى تعمل ليل نهار من أجل مصر الأجمل والأروع والأعظم.

د. سمير سرحان

«تلك الأيـام»

جابـر عصفـور

في رواية تلك الأيام للكاتب الكبير فتحى غانم يواجهنا الإرهاب من الزواية التى يراه بها مؤرخ جامعى هو سالم عبيد، عرف بواسطة التجربة العملية القاسية أن بلده أضعف من أن يتحمل الحقيقة كاملة، وأن كل ما هو مسموح به أن يدرس الأحداث، ويقف فى قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة ليختار تفاصيلها المناسبة، اللائقة، المرضى عنها، ويسردها أمام الطلاب من غير أن يمس الخطوط الحمراء للمسكوت عنه من خطاب الحقيقة أو المنهى عنه سياسيا. نصف الحقيقة والبقاء فى الجامعة واستمرار الترقى فى مناصبها. كل الحقيقة والمقصلة.

وكان سالم عبيد قد تعلم من أستاذه الفرنسى فى السوربون أن بلده لا تحتمل الحقيقة بحكم أنظمتها السياسية وثقافتها السائدة، وأن ذلك هو السبب فى أن أغلب الكتابات التاريخية الجادة عن بلده مكتوبة بأقلام أجنبية. ولكن سالم عبيد لا يقبل هذا الاتهام لبلده، ولا لمثقفيها، ويرفض هذا الاتهام ويتحداه حتى من قبل أن يسمع -أو نسمع معه نحن القراء المعاصرين- عن شئ اسمه خطاب مابعد الاستعمار، أو الخطاب النقضى للاستعمار. وبالفعل، يرفض سالم عبيد تحذير أستاذه الفرنسى، فيكتب عن تاريخ وطنه العام الذى هو تاريخه الخاص بمعنى من المعانى. ويتوقف عند قناة السويس راويا وقائع الصراع الذى ارتبط به منذ أن كان فكرة، محللا الأحداث وعلاقات الأشخاص تحليلا يحاول الوصول إلى الحقيقة الكاملة فى أطروحته «السخرية والكرباج». ولكن ما إن نشر الأطروحة، بعد ترجمتها فى بلده، حتى قامت قيامة الحكومة التى طردته من الجامعة، وأقصته بعيدا عن مجال التدريس، ومن ثم التأثير فى الطلاب الشباب. وظل سالم عبيد مقصيا، مقموعا، إلى أن قدم التنازلات الكافية، وأرضى جلالة الملك والحكومات المتحالفة معه فى خدمة الاحتلال البريطانى.

ويعود سالم عبيد إلى الجامعة بعد هذه السقطة التى تحددت بها علاقته مع السلطة إلى الأبد. سواء فى العهد الملكى الذى تعلم منه الدرس الأول الأساسى، أو العهد الجمهورى الذى ظل منطويا على شكوكه إزاءه، لا يجرؤ على الجهر بها منذ أن تعلم التقية وأدرك أن إعلان الحقيقة يساوى الانتحار بأكثر من وجه. وتقوده السقطة الأولى إلى غيرها، ويتقن كتابة أنصاف وأرباع الحقائق، ويحاضر فيما لا يقترب من الخطوط الحمراء أو المنهى عنه من المعرفة. ويترقى فى مناصب الجامعة، والوظائف العامة، إلى

أن يصل إلى ما رأى نفسه جديرا به فى عهد عبد الناصر، ويغدو عضوا بارزا فى «مؤتمر القوى الشعبية» الذى أشرف على إعداده عبد الناصر بنفسه، وقرأ على أعضائه الميثاق فــــى سنة ١٩٦٢.

المرة الوحيدة التى جرؤ فيها سالم عبيد على قول الحقيقة، دون تقيته المعتادة التى أصبحت أسلوب حياة، كانت أمام حفنة طالبات لا غير، خصوصا بعد أن تيقن تماما أنه بمأمن من المخبرين الذين انشغلوا بمظاهرات الطلاب سنة ١٩٥١. وكان دافعه الخفى إلى هذا التهور إبهار واحدة بعينها من طالباته، وذلك فى سياق حياته العملية التى سرعان ما اقترنت بهذه الطالبة التى اختطفها من حبيبها الأول والأخير، بعد أن اغتال الموت هذا الحبيب كما اغتال هو وجودها الشاب وأحلامها المتمردة. وكان حيلته فى ذلك المخادعة التى أفضت إلى عقم العلاقة الزوجية وبرودها. وطبيعى أن تساوره الشكوك بعد ذلك فى سلوك الزوجة التى أخذت تندفع اندفاعا إلى تكرار محاولة تحقيق وجودها بعيدا عنه. وفى هذه الأثناء، تفرج حكومة الثورة عن المعتقلين السياسيين الذين اعتقلوا فى عهد الملكية والاستعمار، ومنهم الذين اتهموا بممارسة الإرهاب الذى قضى على الكثيرين من جنود الاحتلال وأعوانه، فيسعى إلى التعرف على واحد من هؤلاء الإرهابيين ليعرف منه الحقيقة التى لا يزال ينطوى، فى أعمق أعماقه ورغم ما حدث له، على رغبة معرفتها كاملة فى علاقاتها المتشابكة، وإزاحة الغموض عن وجه من أوجهها الملتبسة. وبالفعل، يلتقى بالإرهابى الذى يجد فيه مرآته ومرآة زوجته بمعنى من المعانى، فيدعوه إلى بيته، ويتيح له معرفة زوجته التى تندفع فى اتجاه الإرهابى كما قدّر وخطط من قبل. ويأخذ فى تعمق معرفة الإرهابى، ومن ثم الإرهاب، لكن من خلال علاقته بحياته فى ماضيها

وحاضرها واحتمالات مستقبلها.

ويعنى ذلك أن سالم عبيد، أستاذ التاريخ بجامعة القاهرة، لم يتعظ من درس الفصل من الجامعة، حتى بعد أن أعادته حكومة الوفد إلى وظيفته الجامعية التى حرم منها لسنوات، وحتى بعد قيام ثورة تموز (يوليو) ١٩٥٢ بسنوات،وما رآه من وقائعها إلى مطلع العام ١٩٦٢ حيث تبدأ أحداث الرواية، فرغبة المعرفة تأكله كالنار التى تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله، وذلك منذ أن تعلم أن التاريخ الذى يكتبه هو

تاريخه الخاص بأكثر من معنى، التاريخ كما يسرى فى دمه، فقرر أن يفهم لنفسه وأن يصل الخاص بالعام، أو يرد العام على الخاص، كما لو كان سالم الذى يريد أن يعرف حقيقة علاقة زوجته بغيره يريد أن يعرف حقيقة علاقة أمثاله بالسلطة، أو يعرف علاقة السلطة بأمثاله من خلال علاقته بزوجته. ولكن من الزاوية التى يدخل فيها الإرهابى، عمر النجار، طرفا فى معادلة متشابكة العلاقات والمحاور، سواء فى وصلها الحاضر بالماضى، أو السياسى بالاجتماعى، أو الخاص بالعام، فالمعرفة لا تتجزأ أو تنقسم. والبداية التى تفجر الشرارة التى تفتح الأبواب المغلقة هى اللحظة التى تحتك فيها الأزمنة والتواريخ والحياة الخاصة والعامة، فتتولد رغبة المعرفة كاسحة ساعية إلى الإحاطة بكل شىء، كما لو كان العارف الذى تحتويه هذه الرغبة يصل إلى أقصى درجات الإيمان بأن مهمته التى ترادف وجوده هى أن يعرف إلى أبعد حد، وكما لو كان ليس له مهمة أخرى فى الحياة غير المعرفة التى إن تخلى عن مبدأ الرغبة فيها تخلى عن المبدأ الفاعل فى حياته نفسها.

هكذا، بدأ سالم عبيد من القمع الذى وقع عليه منذ أن فصل من الجامعة، غير بعيد عن نقطة القمع الذى أوقعه على غيره، حين أعاد إنتاج القمع الواقع عليه ومارسه، لا إراديا، كالمرآة التى تعيد إرسال الشعاع الذى تستقبله إلى غيرها. وانتقل من القمع الذى هو استجابة يائسة إلى القمع، فى حياته وحياة من حوله، إلى القمع فى ذاته، ومن الحاضر الذى يعيش فيه إلى التاريخ الذى أفضى إلى هذا الحاضر، ساعيا إلى أن يكتشف فى فساد الماضى الذى لم ينقطع فى الحاضر المبررات المتعددة لممارسات القمع المقترنة بالإرهاب. وكان الغرض الظاهر المعلن، فى خطابه الذاتى وخطاب الراوى الذى هو مجلى من مجالى المؤلف المضمر، هو عنصر العقلنة الذى يخفى وراءه الدوافع الكامنة للرغبة فى علاقتها المتعددة وتجلياتها المتباينة. وهو العنصر الذى يتخذ شكل تساؤل تاريخى موضوعى فى ظاهره. تساؤل يقول: لماذا يقوم من بيننا شبان نسميهم بالإرهابيين، يقتلون ويدمّرون، ويتحولون إلى أدوات للدمار، والعنف الوحشى للموت الذى ينتشر فى كل شئ؟ لكن حين نتمعن فى السؤال، من حيث علاقته، سرعان ما نكتشف الكيفية التى تؤدى إلى أن يختلط الخاص بالعام فى بواعث السؤال، ورغبة اكتشاف المكبوت بأعماق الأنا الفردية فى مواجهة الحضور العارى للإرهاب، سواء كانت هذه الأنا فاعلة للإرهاب أو منفعلة به أو مفعولا له. ورغبة اكتشاف المكبوت بأعماق الأنا الفردية هى الوجه الآخر من رغبة المعرفة الأعمق بالأنا الجماعية، خصوصا فى حركتها التى تفرز الظاهرة الغريبة عليها، وذلك فى موازاة وصل الحاضر الفردى والجمعى بماضيهما الذى يتبادل وإياهما الوضع والدلالة. يضاف إلى ذلك وصل الذاتى بالموضوعى فى علاقة المؤرخ بنفسه وزوجته ومؤسسة الجامعة التى يعمل

فيها، وأخيرا مؤسسة السلطة التى تتخلق من علاقاتها متوالية القمع الذى يعيد إنتاج نفسه فى تراجيديا المقتولين القتلة .

وطبيعى أن تتقنع الدوافع الكامنة للرغبة بقناع البحث الأكاديمى فى حالة سالم عبيد، الأستاذ الجامعى الذى يسعى إلى دراسة الإرهاب من حيث هو ظاهرة سياسية مهمة، ومن حيث هو مفتاح ممكن من مفاتيح فهم الشخصية المصرية. إننا شعب يصفة المؤرخون بأنه طيب مسالم، وأنه يحارب بسلاح السخرية والنكتة، شعب عجوز عرف الحضارة منذ آلاف السنين، فما الذى يدفع بعض شباب هذا الشعب إلى الإرهاب والقتل؟ وتحت أى ظروف اندفع الشباب، أو يمكن أن يندفع، فى هذا الطريق؟ هل هناك خصائص للإرهاب المصرى تميزه عن خصائص حركات الإرهابيين فى شعوب أخرى؟ وهل نفسية الإرهابى واحدة فى كل أنحاء العالم؟ وهل كانت حركة الإرهاب فى مصر، أثناء الحرب العالمية، علامة يأس سبقت الثورة الوطنية سنة ١٩٥٢ وإعلان التحول الاشتراكى سنة ١٩٦١ ؟ ولماذا لم توجد امرأة إرهابية فى مصر؟ وما الذى يمنع المرأة المصرية من أن تكون إرهابية ؟ وماذا عن نفسية الإرهابى؟ هل هى واحدة فى كل أنحاء العالم؟ هل الشعور الدافعى للإرهاب علامة بطولة أم مرض نفسى؟ إجرام متأصل؟ هروب من الواقع؟ عجز؟ يأس؟ ضياع؟ كفر؟ استهتار بكل شئ ورفض لكل شئ؟ انصياع لصوت داخلى ام اتباع مطلق لأمر يصدر من الأعلى إلى الأدنى؟

والمؤرخ الذى يطرح كل هذه الأسئلة يريد أن يغوص فى علاقاتها المتشابكة بما يوصله إلى إجابة مقنعة، وهو لا يكف عن طرح أسئلة موازية

لها ومتولدة عنها على الإرهابي عمر النجار، كما لو كان يقوم بدراسة حالة متعينة، يختبر بواسطتها كل ما قرأه عن الإرهاب فى العالم كله، ويضع التاريخ الذى أنتج إرهابيا بعينه موضع المساءلة. وفى الوقت نفسه، يضع موضع المساءلة، على نحو غير مباشر أو على سبيل التقية، الزمن الحاضر الذى يتحرك فيه فعل مساءلة الماضى. والهاجس المضمر الذى ينطوى عليه هذا الفعل هو أنه لا بد من مواجهة الحقيقة كاملة لإحداث التغيير، فتلك هى وظيفة المؤرخ الجذرى الذى لا يكتفى بهوامش التعليق الآمنة، بل يجاوزها إلى كشف الحقيقة أمام الناس بما يدفعهم إلى تغيير عاداتهم وحياتهم وعلاقات واقعهم الذى لا يكف عن إنتاج الظاهرة القديمة نفسها.

ولذلك فإن الزمن الذى تدور فيه أحداث رواية تلك الأيام زمن متعدد المستويات متباين المراحل.لكن على نحو لا ينفصل فيه مستوى عن غيره، أو تتباعد علاقات مرحلة عن نظائر غيرها من المراحل داخل الرواية. والنتيجة المترتبة على التفاعلات السياقية الخاصة بالزمن هى الالتباس الدلالى الذى يجعل من دال العنوان تلك الأيام دالا متعدد المدلولات، سواء فى إشارته إلى هاجس رغبة التغيير أو إشارته إلى أزمنة متعددة وليس إلى زمن واحد. إنه عنوان يدل على تلك الأيام التى لا ينفرد بها زمن عن زمن، أو يختص بها قوم دون قوم، فى إشارة تضمينية إلى الآية القرآنية: «وتلك الأيام نداولها بين الناس». وهى الآية التى تدل فيما تدل على تحول السلطة وتداولها، كما تدل على دوران الأيام وتحولها من قوم إلى قوم آخرين، وذلك على نحو يقرن رغبة التغيير بما يبدو نقيضها فى الدلالة على استمرار تداول الظاهرة نفسها. وغير بعيد عن تلك الدلالة للتضمين القرآنى تعدد المدلولات الزمنية لدال العنوان الذى يجعل من رواية فتحى غانم، خصوصا

بعد القراءة التى ترد عناصر الحضور على عناصر الغياب، والمنطوق به على المسكوت عنه، رواية عن «تلك الأيام» التى كتبها فيها الكاتب، استجابة إلى أحداث سنة الكتابة التى تكتسب دلالة مضافة فى علاقتها بسياق تلك الأيام القديمة. والنتيجة هى تحول رواية «تلك الأيام» إلى رواية عن الأيام التى تستعيد أحداثها القريبة والبعيدة فى مدى زمنى ممتد، يصل مطلع الستينيات بمطلع الخمسينيات، كما يصل الأربعينيات التى شاعت فيها ظاهرة الإرهاب بمطالع القرن فى تاريخ أسرة سالم عبيد. ومن تجاوب الزمن الأول – زمن الكتابة– والزمن الثانى – زمن الأحداث الروائية – يتولد الزمن الثالث– زمن الدلالة التمثيلية– الذى يلقى الضوء على تداول «تلك الأيام» التى يمكن أن تصنع مصائر أبطال آخرين مثل مصائر الذين قابلناهم فى الرواية، خصوصا حين تتكرر الشروط التى فرضت على كل واحد منهم سلوكه الذى أفضى به إلى نهايته داخل الرواية.

أما زمن الكتابة فهو الزمن الذى ينتهى بسنة ١٩٦٣ التى هى سنة نشر الرواية مسلسلة فى مجلة «روزاليوسف». وهى السنة التى تقع فى سياق تعاقب دال لوقائع ثورة ١٩٥٢ من حيث علاقتها بالقمع (الإرهاب) الذى هو موضوع الرواية، فقد بدأت هذه الثورة فى آب (أغسطس) ١٩٥٢ بتحطيم مظاهرة عمالية فى كفر الدوار وشنق قائدين من قادة المظاهرة (خميس والبقرى) بعد أشهر قليلة من قيامها، وقبل أشهر قليلة من إعادة تطبيق قانون الرقابة على الصحف. وفى ابريل (نيسان) ١٩٥٤ يتم الانقلاب على وعود الديموقراطية، ويسجن حوالى مئتين وخمسين يساريا وينفى خالد محى الدين خارج البلاد، وتدور الدائرة على أقطاب الإخوان المسلمين فيعدم قادتهم فى نهاية العام بعد اتهامهم بالتآمر على النظام، ويعتقل ثلاثة

وعشرون صحافيا من بينهم حسين أبو الفتح (المصرى) وإحسان عبد القدوس (روزاليوسف). وفى أول ١٩٥٩ تبدأ حملة اعتقالات واسعة ضد اليسار المصرى، وتقع أعنف عمليات التعذيب التى أدّت إلى وفاة مفكرين بارزين من أمثال شهدى عطية الشافعى فى حزيران (يونيو) ١٩٦٠. وفى سنة ١٩٦١ يقع الانفصال بين مصر وسوريا نتيجة أخطاء لها علاقة بفساد ممثلى الحكم الوحدوى. وفى آيار (مايو) ١٩٦٢ ينعقد «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» الذى يقرأ فيه جمال عبد الناصر «الميثاق» الذى يتم إعلانه بعد مناقشته وإقراره فى ٣٠ حزيران (يونيو) ١٩٦٢.

وما بين المناقشة حول مشروع الميثاق وإقراره تتحرك أحداث المستوى الزمنى الأول لرواية «تلك الأيام» ابتداء من السادس من شباط (فبراير) إلى الثانى والعشرين من حزيران (يوليو) سنة ١٩٦٢. وحرص الكاتب الروائى على تعيين تواريخ أحداث الفصول المتعاقبة، فى تذبذبها ما بين الماضى والحاضر، أمر بالغ الدلالة فى الكشف عن مغزى أحداثها الروائية التى توازى الوقائع الخارجية لزمن كتابتها، وتستجيب له فيما هو موازاة رمزية متعددة الإشارات والمستويات والالتباس فى الوقت نفسه. ويبدو أن الخطوة الأولى فى مقاربة الالتباس المرواغ لهذه الموازاة هى الانطلاق من المرموز به الذى يبدأ منه وينتهى إليه الموضوع الرئيسى كله، أعنى شخصية الإرهابى الذى هو مرآة وقناع وعلامة ودلالة.

-٢-

هناك محطات متعددة دالة فى السياق الزمنى لأحداث رواية «تلك الأيام» للكاتب فتحى غانم، سواء فى التتابع المتعاقب للأحداث أو الحركة

البندولية للسرد في تذبذبها ما بين الحاضر والماضي. والمحطة الحاسمة في هذا السياق، من منظور تكوين الإرهابي وانطلاقه في ممارسة العنف بواسطة المسدس الذي اتحد به في معنى الوجود، هي شهر كانون أول (ديسمبر) سنة ١٩٤٣. قد لا يكون لهذا الشهر دلالة خاصة سوى أنه نهاية سنة وتمهيد لبداية سنة أخرى. لكن اللافت للانتباه المدقق أن السنة التي يختتمها الشهر هي سنة تقع في العالم التاريخي، خارج الرواية، ضمن سنوات الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) التي كانت قد جاوزت ذروتها، وأخذت ترهص بنهايتها، الأمر الذي أدّى إلى تصاعد حركات التمرد على الاحتلال البريطاني في مصر والثأر من المتعاونين معه، وإلى انتشار التنظيمات السرية التي اتخذت من الإرهاب وسيلة للمقاومة.

ويقول لنا التاريخ إن سنة ١٩٤٣ شهدت ثلاثة أنماط على الأقل من التنظيمات السرية التي ارتبطت بعنف الإرهاب. أولها التنظيم السرى لجماعة الإخوان المسلمين، أو ما كان يطلق عليه اسم النظام الخاص، وهو التنظيم الذى أخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن الجماعة ضد البوليس والحكومات المصرية ابتداء من سنة ١٩٤٣ على وجه التحديد، حسب ما يقول ريتشارد ميتشل في كتابه عن الإخوان المسلمين. وكان من بين الدوافع التي تزايدت بها ممارسات العنف لهذا التنظيم الشعور السائد بخيانة قيادات الحركة الوطنية، خصوصا تلك القيادات التي أسفرت عن وجهها خلال سنوات الحرب، فأشعلت رغبة الانتقام منها. وكان ذلك أحد جوانب مسلسل العنف الذى مارسته جماعة الإخوان منذ تأسيس نظامها الخاص سنة ١٩٤٢، في ممارسات عنفه المتصاعدة التي وصلت إلى ذروتها سنة ١٩٤٦ مع وقوع أعنف الاشتباكات بين جماعة الإخوان والوفد.

وعلى الطرف المناقض من جماعة الإخوان، كانت المجموعات الماركسية التى ضخّت فيها فترة الحرب دماء جديدة، ولكنها لم تلجأ إلى ممارسات العنف التى لجأت إليها جماعة الإخوان، وظلت أقرب إلى التبرير النظرى للعنف منها إلى ممارسته الفعلية. ولم يقارب الإخوان فى الاندفاع إلى العنف سوى مجموعات من الشباب المستقل الذى حركته كراهية الإنجليز والإعجاب بالألمان والتأثر بالأفكار الفاشية فى الوقت نفسه. وقد عملت هذه المجموعات منفردة فى شكل مجموعات بعيدة عن الارتباطات الحزبية، منها مجموعة محمود العيسوى الذى قتل أحمد ماهر فى الرابع من شباط (فبراير) سنة ١٩٤٥، ومجموعة حسين توفيق الذى اغتال أمين عثمان باشا صديق الإنجليز الأول فى الخامس من كانون ثان (يناير) ١٩٤٦.

أما النمط الثالث فهو النمط العسكرى الذى تولد من داخل تجمعات شباب الضباط الوطنيين فى الجيش المصرى، خصوصا أولئك الذين دخلوا الكلية الحربية فى أعقاب معاهدة ١٩٣٦ ومع التوسع المتزايد للجيش بعد قيام الحرب. ومن هؤلاء الشباب نشأ التجمع الأول للضباط الأحرار سنة ١٩٣٨ الذين استجابوا، بدورهم، إلى سياق الممارسة المتصاعدة لممارسات العنف السياسى وما يقترن بها من عمليات اغتيال المتعاونين مع الاستعمار. ويحكى جمال عبدالناصر نفسه عن واحدة من هذه العمليات التى انتهى بعدها إلى نبذ العنف والإيمان بالعمل على القيام بثورة بيضاء لا تعرف الدم.

وكانت ممارسات الإرهاب التى أسهمت فيها هذه الأنماط، وما

تخلق حول بعضها من مجموعات، استجابة متمردة على المدار المغلق الذى انحصرت فيه السياسة المصرية، وتجسيدا لما اقتنع به الشباب من أن تغيير أسس الحياة لا يمكن أن يتم بغير عنف، فقد بلغ الصدام بين المصريين والإنجليز من جهة وبين طوائف المصريين من جهة مقابلة ذروته التى كانت تفرض الاحتكام إلى السلاح مخرجا وحيدا من المأزق الوطنى والمأزق الاجتماعى، فجرفت البلاد موجة من الإرهاب والدعوة إلى الإرهاب، فيما يقول لويس عوض مقدما روايته «العنقاء» التى كتبها ما بين سنتى ١٩٤٦-١٩٤٧ عن ممارسات العنف فى هذه الفترة. وبطل رواية «العنقاء» حسن مفتاح نموذج من نماذج شباب هذه الفترة فى تبريره الإرهاب، داخل سياقات عالم تاريخى كان كل ما فيه يحتكم إلى السلاح أو يدعو إلى الاحتكام للسلاح، الحاكم والمحكوم والمستعمر والثوار والطوائف المتصارعة والشباب الذين اجتذبتهم ممارسة الإرهاب، فى وطن عاش على لغم من ألغام عالم لم يتوقف عن تدمير نفسه طوال سنوات الحرب العالمية الثانية.

ولم تكن ملامح شخصية عمر النجار إرهابى «تلك الأيام» قريبة من الملامح الشخصية للفئات الديموقراطية أو اليسارية التى انتسب إليها حمزة بطل رواية يوسف إدريس «قصة حب» (١٩٥٦) أو إبراهيم حمدى بطل رواية إحسان عبد القدوس «فى بيتنا رجل» (١٩٥٧) وإنما يبدو أكثر شبها بحسين توفيق قاتل أمين عثمان. وبالقدر نفسه، فإن عمر النجار لا ينتسب إلى فئة «حسن مفتاح» بطل رواية لويس عوض «العنقاء» الذى كان يقوم فى الرواية بدور سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى. ومع ذلك فإن عمر النجار يتحرك روائيا فى الدائرة التى تتقاطع معها مجالات العنف التى مارسها أمثال ابراهيم حمدى وحمزة وحسن مفتاح فى العوالم الروائية

الدالة على هذه الفترة الزمنية نفسها. ونقطة التقاطع هى صفات المثقف المدنى الشاب الذى دفعته شروط ما بين الحربين إلى ممارسة الإرهاب، تعبيرا عن أقصى درجات تمرده على هذه الشروط، وتجسيدا للعنف المكتوم فى شرائح المجتمع المدنى الذى ينتسب إليه، نتيجة وطأة الظلم اللاإنسانى والقمع الوحشى الواقعين على أبناء هذه الشرائح.

وقد لمس «الميثاق الوطنى» الذى صاغه جمال عبد الناصر غضب الشباب الذى ينتسب إلى هذه الشرائح فى الباب الرابع الذى يحمل عنوان «درس النكسة». وهو الباب الذى نقرأ فيه: «عَمَّتْ الشباب المصرى موجة من السخط والغضب على كل الذين مدوا أيديهم للاحتلال وقبلوا وجوده. ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص، وتجاوبت أصداء انفجارات القنابل، وكثرت التنظيمات السرية بمختلف اتجاهاتها وأساليبها. لم تكن تلك هى الثورة وإنما كان ذلك هو التمهيد لها. كانت تلك هى مرحلة الغضب التى تمهد لاحتمالات الثورة لأن الغضب مرحلة سلبية. والثورة عمل إيجابى يستهدف إقامة أوضاع جديدة». هذه الفقرة، تحديدا، ترد فى نص رواية «تلك الأيام» صانعة نقطة انطلاق أسئلة المؤرخ سالم عبيد حول شخصية عمر النجار. ومناط الدلالة السياقية فيها هو ما تؤديه على سبيل التناص من وظيفة كاشفة عن بعد أساسى فى النص. هو البعد الخاص بالمؤرخ المأزوم الذى يسعى إلى أن يعرف معنى اتجاهات وأساليب التنظيمات السرية فى واقع الحياة الفعلية، وفى الحركة الملموسة للفاعل الذى يتكشف عن دوافعه الداخلية إلى الفعل، خصوصا فى اندفاعه العنيف إلى ممارسة العنف بكل ما فيه من لحم ودم أو عقل وقلب. يحرك المؤرخ فى ذلك إيمانه بأن هذا النوع من المعرفة هو السبيل الوحيد إلى

معاينة الحقيقة الكاملة لحضور الكائن الحى، وليس المتن الذى يختزل ذلك الكائن فى سطر أو أسطر قليلة بالغة التجريد.

ولكن يلفت الانتباه أن الكائن الحى للإرهابى (عمر النجار) الذى اختاره المؤرخ سالم عبيد، ومن ورائه المؤلف المضمر بالطبع، ينتسب إلى الدائرة التى تتقاطع معها دوائر أمثال إبراهيم حمدى وحمزة وحسن مفتاح، أى دائرة التمرد المدنى الذى لا يبرر ممارسته للعنف بأى تفسير دينى، منطلقا فى فعل عنفه العارى من وعى مدنى خالص، وعى يقرن معنى العنف بمعنى الحضور، وذلك فى المحاجة التى يبدو بها الموت سبيلا إلى الحياة كأنه العدم الذى يغدو شرطا للوجود. وإذا عاودنا من هذا المنظور، تأمل إرهابى «تلك الأيام» سهل علينا ملاحظة أنه لا ينتسب إلى نمط دعاة الدولة الدينية من إرهابىّ التنظيم العسكرى للإخوان المسلمين الذين تصاعدت ممارسات عنفهم ضد الانجليز واليهود والحكومة على السواء، حيث السياق المتصاعد من الإرهاب الذى بدأ باغتيال الجنود البريطانيين، وثنّى باغتيال القاضى أحمد الخازندار الذى أصدر حكم السجن على الذين اغتالوا الجنود الإنجليز. وكان ذلك فى التصعيد المتبادل الذى انتهى باغتيال محمود فهمى النقراشى، رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت، بعد حوالى عشرين يوما من إصداره قرار حل جماعة الإخوان المسلمين فى الثامن من كانون أول (ديسمبر) ١٩٤٨، ثم اغتيال حسن البنا مرشد عام الجماعة فى الثانى عشر من فبراير ١٩٤٩ بعد ما يقرب من شهر ونصف على اغتيال النقراشى، الأمر الذى حاولت أن ترد عليه الجماعة بمحاولة اغتيال إبراهيم عبدالهادى الذى تولى رئاسة الوزراء بعد النقراشى ولكنه نجا من الموت.

وطبيعى أن يكون عمر النجار بعيدا عن جماعة الإخوان المسلمين، فرواية «تلك الأيام» تنتسب إلى رؤى العالم المدنى التى يشترك فيها فتحى غانم ولويس عوض وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس، من حيث هم كتاب يعبّرون عن التصورات الأساسية للمجتمع المدنى، كل على طريقته وحسب منظوره الإيديولوجى وانتمائه السياسى الاجتماعى ومعتقداته الجمالية وأسلوبه الفنى فى الوقت نفسه. ولذلك فبطل الأربعينيات الذى يتحدث عنه هؤلاء هو البطل المتمرد الذى احتكم إلى السلاح من منظور المجتمع المدنى الذى ينتسبون هم إليه، وينحازون إلى قضاياه وأفكاره، ويعرفون شخصياته معرفة حميمة، تتيح لهم الكتابة عن أمثال الشخصيات التى خالطوها مخالطة شخصية، عرفوا معها كيف تفكر وتشعر، تفرح وتتألم، تحب وتكره، فى أدق دقائق تفاصيل حياتها اليومية ومشكلاتها التنظيمية أو الفردية. وليس الأمر على هذا النحو مع المتمرد على المجتمع المدنى كله باسم الدعوة إلى دولة دينية، سواء من جماعة الإخوان المسلمين أو غيرها، فمثل هذا المتمرد لا يعرف الكتاب المنتسبون إلى الوعى المدنى عن تفاصيل التفاصيل فى حياته ما يتيح لهم الكتابة عنه، فظلوا بعيدين عن رغبة تمثيله وتقديمه روائيا، واقتصروا على ما يعرفونه من أشباههم أو أمثالهم فى الانتساب إلى المجتمع المدنى، وفى التمرد على دولته أو أنظمته فى فعل قمعها الذى فرض ردود الفعل التى اقترنت بممارسات الإرهاب.

ولذلك يحاول المؤرخ سالم عبيد فى رواية «تلك الأيام» فهم جذور الإرهاب فى ممارسات العنف المدنى، بعيدا عن أى تبرير دينى ويبدأ من نقطة الانطلاق الأولى لإرهاب عمر النجار، ذلك الذى نراه للمرة الأولى، فى الأزمنة الداخلية للرواية، مساء الرابع والعشرين من كانون أول (ديسمبر)

سنة ١٩٤٣، فتى فى السابعة عشرة من عمره. نحيلا، متوسط القامة، له عينا شاعر. شفتاه رقيقتان. رأسه محنى إلى الأمام قليلا كأنه ينوء بحمل غير عادى. قامته منتصبة، مشدودة. كل شئ فيه مشدود، جامد، صلب. فى الجيب الداخلى لسترته الرمادية: مسدس. ومن هذا الوصف الذى لا يخلو من المفارقة الدالة، ننتقل تدريجيا إلى العالم الداخلى للشخصية، ونقترب من التكوين الاجتماعى للشخص الذى يجمع بين عينىَ الشاعر والجذع الصلب المشدود، وبين الشفتين الرقيقتين والمسدس المتحفز لإطلاق الرصاص.

وذلك وصف يكشف عن التعارض الحدّى الذى تنبنى عليه الشخصية، سواء فى جمعها بين متقابلات الرقة والعنف، أو تقابلات رغبات الحياة والموت. وطبقيا، ينتسب عمر النجار إرهابى «تلك الأيام» إلى الشرائح الاجتماعية لأبناء الذوات، فأبوه سيد بك النجار النائب المحترم، عضو مجلس النواب الذى يتوافد الناخبون على باب بيته من الفجر إلى العشاء. وصديقه فهمى الذى علمه ممارسة الإرهاب، وقاده إلى طريق العنف، ينتسب إلى الشرائح الاجتماعية نفسها. وفى «عزبة فهمى» عند القناطر، تعلم عمر النجار دروسه الأولى فى الأرهاب، داخل حديقة القصر الممتدة كالغابة. وكلاهما نموذج للأوصاف الطبقية التى وصف بها لويس عوض أمثالهما من شباب الفترة التى شاع فيها نموذج الإرهابى، ذلك النموذج الذى كان أكثر من ينتسبون إليه خليطا من أبناء الذوات المثقفين بثقافة أوربية، ولكن فى الدائرة المدنية التى لم يعرف سواها لويس عوض وإحسان عبد القدوس وفتحى غانم ويوسف إدريس على السواء. وهى الدائرة التى كان التمرد فيها على الأب موازيا للتمرد على كل سلطة بطريركية، وكانت ممارسة العنف

تحقيقا لمبدأ الرغبة فى تجلياته الفردية والجمعية، سواء بالمعنى النفسى أو المعرفى أو الوجودى، وفى الدوائر السياسية للفعل الاجتماعى.

ولذلك كانت بداية عمر النجار إلى ممارسة العنف هى التمرد النفسى على سلطة الأب القمعية، والبحث عن إجابات لأسئلته الجذرية. وكان رفضه للسلطة البطريركية موازيا لإدراكه أن طلقات الرصاص حقائق محددة يمكن القبض عليها باليدين، لا غموض فيها ولا التواء أو التباس أو كذب أو خداع، حقائق بسيطة، فصيحة، حاسمة، تنفذ فى اللحم والعظم، فتنهى الحياة التى لا معنى لكل ما فيها من نجاح كاذب أو سعادة مخجلة أو مهانة قاتمة، وتأتى بالخلاص الفردى الذى ينهار به الدمار أو يموت الموت. لكن هذا الخلاص تدميرى سرعان ما ينقلب على نفسه ويتحول إلى نقيضه فى جمعه بين النقائض التى يكتسب صفاتها الحدية. ولم يكن مصادفة أن يمارس عمر فعل إرهابه الأول مع نهاية أخر ليلة من سنة ١٩٤٣ مستهلا صباح العام الجديد بولادة جديدة بواسطة الفعل التدميرى الذى لم يفارقه ذلك الوعى الملتبس. أقصد إلى ما كان ينتاب عمر من مشاعر بأنه وهو يقتل غيره يقتل نفسه، وأنه فى الثانية التى يطلق فيها الرصاصة على الضحية يشعر بوجوده الكامل وحياته مفعمة بالحضور، ولكنه فى الثانية نفسها يشعر بالعدم الكامل كما لو كان يقتل نفسه، وينقسم بما يجعل منه الجلاد والضحية، أو القاتل الذى يغدو مقتولا، فى الفعل الذى لابد أن يصيب صاحبه بالدمار والعقم فى انعكاسه الآنى على نفسه.

هكذا، يغدو فعل الارهاب استحضارا للعدم، معايشة للموت الذى يرتد إلى فاعله، دمارا ذاتيا يكتسب معنى الإخصاء الوجودى والجنسى فى

آن، اللحظة التى تلتهم فيها غريزة الموت (الثاناتوس) غريزة الحياة (الإيروس) فى الفعل الذى يشبه الفعل الذى يلتهم به الثعبان ذيله، ثم يلتهم أعلى الذيل وبقية جسده إلى أن يفنى نفسه بنفسه كالنار التى تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله. والفارق بعيد جدا بين ذروة الشعور بالموت فى هذه اللحظة ونشوة الشعور بالحياة فى الفعل الجنسى، فالثاناتوس فى الأخير هو الغياب الذى يشبه الحضور، والكشف الذى يغدو مفتاحا إلى الشهود، أما الشعور الثانى فهو العدم الذى ليس بعده سوى المزيد من العدم، والدمار الذى ينقطع به العصب الحى لنسغ الحياة والطاقة الخلاقة.

ولذلك يغدو العقم الجنسى كالعجز الجنسى صفة ملازمة لشخصية الإرهابى فى «تلك الأيام». ويبقى هذا العقم على امتداد المشاهد التى يتصدرها الإرهابى علامة على الدمار الذاتى الذى ينتهى إليه الإرهابى، وذلك بسبب اقترافه للفعل الذى ينعكس على فاعله فى انعكاسه على نفسه. ويمكن أن نؤرخ لذلك، معتمدين على تواريخ الزمن الروائى الداخلى التى تشير إلى تواريخ الزمن الخارجى على جهتى التضمن واللزوم، ابتداء من اللحظة الأولى التى نرى فيها الإرهابى (عمر النجار) مع فتاة فى ليل الرابع والعشرين من كانون أول (ديسمبر) ١٩٤٣ إلى اللحظة الأخيرة التى يتكرر فيها عجزه الجنسى، تجسيدا لرغبة الموت التى التهمت رغبة الحياة، فى اليوم الأخير من أيام الزمن الروائى بأحداثه التى وقعت فى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٦٢، حيث آخر لقاء جمعه وزينب زوجة سالم عبيد. وكان عجز هذا اللقاء نفسه مقدمة العجز النهائى عن ممارسة فعل القتل فى المشهد الأخير الذى جمع بين عمر النجار وسالم عبيد فى نهاية الرواية وذروة تتابع أحداثها فى المشهد الأخير، خصوصا فى فعل اللا

فعل اليائس الذى تحوّل به العجز عن القتل إلى تعبير عن الموت الذى هيمن على كل شئ، حتى على رغبة القتل التى انقلب بها المقتول إلى قاتل فى مأساة المقتولين القتلة.

-٣-

لا يتجاوز المدى الزمنى للأحداث الرئيسية فى رواية فتحى غانم «تلك الأيام» ستة أشهر، تبدأ من السادس من شباط (فبراير) وتنتهى فى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٦٢. وما بين هذه البداية والنهاية يتحرك «بندول» الزمن الروائى ذهابا وإيابا من وإلى الزمن الحاضر متنقلا عبر الأزمنة الماضية التى تلقى الضوء على أحداث الزمن الحاضر للرواية. وحرص الروائى على التأريخ الدقيق لوقائع «تلك الأيام» الحاضرة، فى علاقتها الدالة مع الأيام الماضية، مرتبط بتأكيد امتداد الماضى فى الحاضر من ناحية، وعدم إمكان فهم الحاضر إلا من حيث صلته بأصوله الأقدم من ناحية ثانية. وتبدو الأشهر الستة لعام ١٩٦٢ حاسمة من هذا المنظور، فهى مبدأ السرد ومعاده، سواء فى دلالة حركة الانتقال منه وإليه، أو فى دلالة العودة إلى سنوات بعينها، من أزمنة قريبة أو بعيدة، لكل منها دلالة وظيفية تسهم فى تقدم حركة السرد وتصعيد مجرى الأحداث؛ وذلك على نحو يضئ لحظات التوتر المؤثرة من الزمن الحاضر للسرد فى صعوده نحو ذروته الكاشفة.

ويمكن أن نلاحظ على الفور، إذا راجعنا المدى الزمنى لأحداث الرواية على المدى الزمنى لأحداث التاريخ الفعلى خارج الرواية، أن الأشهر الستة التى تدور بها وفيها أحداث السرد فى «تلك الأيام» ترتبط كلها بأشهر الإعداد لميثاق العمل الوطنى الناصرى فى مصر. وتلك إشارة لا تخطئها

العين إلى مرحلة جديدة من مراحل تحولات الثورة المصرية. وهى المرحلة التى قرر فيها عبد الناصر ان يعيد تشكيل النظام السياسى، ويؤصّل المرحلة الحاسمة من التحول الاشتراكى، ويجمع الأمة فى جبهة سياسية عريضة تواجه الأخطار التى جسّدتها أحداث الانفصال فى أيلول (سبتمبر) ١٩٦١ وتوابعه. ولذلك أصدر عبد الناصر فى الرابع من تشرين ثان (نوفمبر) ١٩٦١ بيانه السياسى الذى حدد معالم التنظيم الشعبى الديموقراطى الجديد فى الجمهورية العربية المتحدة. وتضمن البيان أن الخطوة الأولى فى اتجاه التنظيم هى تشكيل اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، تأكيدا لفتح دائرة الحوار السياسى، وامتدادا بالنقد الذاتى إلى الأفق الذى يعين على وضع ميثاق العمل الوطنى. وهو الميثاق الذى تم إعداد مبادئه العامة بواسطة لجنة منبثقة عن اللجنة التحضيرية، وأشرف على صياغته النهائية (التى أعدها محمد حسنين هيكل) جمال عبد الناصر الذى قرأ الميثاق فى «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية». وقد انعقد هذا المؤتمر فى آيار (مايو) ١٩٦٢ لمناقشة الصياغة النهائية للميثاق الذى أقره المؤتمرون فى الثلاثين من حزيران (يونيو) ١٩٦٢.

ويعنى ذلك أن المدى الزمنى لرواية «تلك الأيام» هو مدى التحول الحاسم الذى انعطفت إليه ثورة ١٩٥٢ فى مصر، بعد النكسة التى أصابت مسيرتها الوحدوية بانفصال سنة ١٩٦١، ومواجهة الثورة لواقعها الفعلى فى تعارضاته وتناقضاته وصراعاته، ومحاولة مجاوزة هذه التعارضات والتناقضات والصراعات بصيغة جديدة: هى صيغة التنظيم الشعبى الديموقراطى تحقيقا لحتمية الحل الاشتراكى، واستهلالا لعهد جديد يعد بالتخلص من سلبيات الماضى وأخطائه. وليس من المصادفة أن يكون اليوم الأول الذى نرى فيه

بطل الرواية (فى السادس من شباط -فبراير ١٩٦٢) هو يوم ينتسب إلى هذا المدى الزمن الحاسم، سياسيا، حين كان العمل قائما على قدم وساق فى صياغة ميثاق العمل الوطنى من ناحية، والإعداد للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية من ناحية ثانية. وليس من المصادفة بالقدر نفسه أن تصل أحداث الرواية إلى ما يدنى بها من ذروتها النهائية فى الثامن عشر من حزيران (يونيو) ١٩٦٢، بعد افتتاح المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، وفى ذروة مناقشاته التى انتهت بعد أقل من اسبوعين (فى الثلاثين من الشهر نفسه) إلى إقرار الميثاق الوطنى وإعلانه.

ولم يكن البطل الروائى سالم عبيد (الذى يستحضر إلى الرواية البطل النقيض عمر النجار) بعيدا عن الوقائع السياسية لهذا المدى الزمنى وعلاقاتها الدالة، فهو طرف فاعل فيها ومنفعل بها فى الوقت نفسه، وذلك من حيث كونه المؤرخ المرموق العظيم الذى منحته الدولة كبرى جوائزها، والذى يشعر الجميع بأهميته الخاصة. ومن الطبيعى أن تشارك هذه الشخصية الفكرية المرموقة المرضى عنها مع غيرها من كبار المثقفين أو المفكرين فى اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، وأن يسهم إسهاما نرى ما يدل عليه فى مناقشة الميثاق ضمن المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، وأن يمتد هذا النقاش إلى صفحات الرواية نفسها، حيث تتحول لحظة الاستشهاد بالفقرة الخاصة بكثرة التنظيمات السرية فى نهاية الحرب العالمية الثانية إلى لحظة من لحظات الكشف عن المأزق الذى يواجهه البطل فى بحثه عن صيغة يسهم بها فى تغيير واقعه الخاص والعام.

ولكن ما طبيعة المأزق الذى يواجهه البطل سالم عبيد فى «تلك

الأيام» ؟ الإجابة تحتاج إلى أن نرجع إلى الحركة الاستهلالية من حركات سرد الرواية، ففيها القرينة البلاغية على أفق التمثيل الرمزى للشخصية، وذلك منذ الوهلة الأولى التى نرى فيها البطل ساعيا إلى لقاء الإرهابى القديم عمر النجار: نقيضه ومرآته. وأول ما يطالعنا منه فى حركته الاستهلالية هذه وصف عينيه المتعبتين اللتين لا تقويان على مواجهة ضوء النهار الشديد. وهو وصف يرهص بحركة الشخصية التى تسعى إلى لقاء الإرهابى لهدف موضوعى هو دراسة ظاهرة الإرهاب، والتحديق فى حالة دالة من حالات أبطالها، وهدف ذاتى يرتبط بطبيعة الشخصية التى لا تقوى على المواجهة الحدية أو التحديق المباشر فى الضوء الشديد لعالمها الفعلى، على الأقل من منظور المجاز المرسل للوصف.

ونعرف من التقديم بالغ الإيجاز للرواية أن سالم عبيد شخصية عبقرية غير عادية، يفعل أحيانا أشياء عجيبة غير متوقعة، أو يدبر خططا يتحكم بها فى مصائر من حوله، مثل تلك الخطة التى دبرها لزوجته مع الإرهابى القديم، وهو واثق تماما من نجاح خطته. ما هذه الخطة؟ وما المقصد منها؟ وهل نجحت؟ تلك هى الأسئلة التى نبدأ منها متابعة حركة سالم عبيد السردية، متشوقين إلى معرفة النهاية التى تشبع فضولنا المستثار، فى عالم يبدو بعيدا عنا لكنه سرعان ما يغدو عالمنا الذى نعيشه بأكثر من معنى.

ويلتقى سالم عبيد وعمر النجار للمرة الأولى. الهدف المعلن هو كتابة تاريخ فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، ابتداء من إرهاصات نهاية الحرب، حين كان كل شئ ينهار وكل شئ يستيقظ، ناس تؤمن مقابل ناس تلحد، وزعماء يرتفعون على مقاعد الحكم ورصاص يخترق أجساد

زعماء فتسقط فى القبور. ضجيج يعيق الإنصات إلى أصوات الحقيقة، ودخان كثيف يعوق الرؤية. ولا يتباعد هذا الوصف للماضى كثيرا عن وصف الحاضر من المنظور الذى تحدق منه عينا المؤرخ نفسه، فى سياق الزمن الحاضر الذى يتحرك فيه الإعداد لميثاق العمل الوطنى، فأحداث هذا الزمن مليئة بالضجيج، والزيف، والوهم، تختلط فيها الشوائب بالحقيقة الصافية فتعكر على الرؤية.

من هذا المنظور، يبدو الزمن الحاضر زمنا جامعا للأضداد كالزمن القديم، زمنا بدت فيه أحلام الوحدة منهارة مع الانفصال، وأحلام العدل الاجتماعى صاعدة مع وعود التحول الاشتراكى. ولكن المفارقة الحقيقية لهذا الزمن أنه كان يدعو إلى حتمية الحل الاشتراكى فى الوقت الذى وضع الاشتراكيين الحقيقيين فى المعتقلات، يموت بعضهم نتيجة التعذيب الوحشى. وغيابهم القسرى، عن المشهد الذى يلغو ممثلوه أو منافقوه بحتمية الحل الاشتراكى والتنظيم الشعبى الديموقراطى، يطرح الأسئلة المنهى عن النطق الصريح بها: كيف نبنى الاشتراكية بغير الاشتراكيين؟ وكيف تتحقق الديموقراطية مع كل هذه المعتقلات التى تزدحم بالمعتقلين؟ وهل يعقل أن نتحدث عن تنظيم شعبى ينبنى على حق الاختلاف والتنوع وكل شئ معلق بإرادة واحدة مهما كانت خيرة أو نبيلة أو ملهمة؟ وأين هى التنظيمات الفعالة فى بلد لا طاعة فيه إلا لمن يجلس على القمة وحيدا مع الواحد: السلطة؟ وأهم من ذلك من الذى ينطق هذه الأسئلة المنهى عن النطق بها؟ لقد حضر عبد الناصر نفسه اجتماعات اللجنة التحضيرية من أواخر شهر تشرين ثان (نوفمبر) وأغلب شهر كانون أول (ديسمبر) وسمح بالحرية الكاملة فى التعبير، حتى لقد اعترض بعض الأعضاء على بعض

الآراء وأرادوا حذفها من مضابط الجلسات فاعترض عبد الناصر على ذلك، واستقر رأى اللجنة على ترك كل رأى كما قيل إعلاء من شأن الحرية. ذلك ما قالته مقدمة كتاب «الطريق إلى الديموقراطية» الذى صدر عن اللجنة التحضيرية للمؤتمر الوطني للقوى الشعبية الذى يضم محاضر هذه الجلسات المهمة بالفعل.

ولكن هل كان يمكن لمؤرخ جامعى مثل سالم عبيد، من حيث هو تمثيل رمزى لشخصية المثقف، أن ينطق المسكوت عنه من الخطاب الاجتماعى السياسى المقموع فى اجتماعات اللجنة التحضيرية هذه، أو اجتماعات المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية؟ وهل كان يمكن أن يصوغ أسئلته الجذرية عن حقيقة الضجيج السياسى الذى دار من حوله فى زمن اختلط فيه الحلم بالكابوس؟ الإجابة بالنفى. لقد تعلم من درس الماضى الملكي أن قول الحقيقة يعنى الفصل من الجامعة. ولا شك أنه تعلم من نهاية أزمة آذار (مارس) ١٩٥٤ الدرس نفسه، حين قامت الثورة بفصل الأساتذة المناوئين لها من الجامعة، وعلى رأسهم أمثال محمود العالم وعبد العظيم أنيس ولويس عوض وغيرهم كثيرون. وأدرك عبيد مع ما رآه وعاينه أن النجاة هى فى قول أنصاف الحقائق وأرباعها وأخماسها إذا لزم الأمر، وأن السلامة قرينة قبول مبدأ الواقع وليس مبدأ الرغبة، كما أن طريق الترقى يبدأ من الاستسلام إلى شروط الضرورة السياسية والاجتماعية وليس من ممارسة أفعال الحرية. ولذلك رضى لنفسه أن يخون المؤرخ الأصيل الخلاَّق فى داخله، تماما كما قبل خيانة زوجته التى لم يحمل إليها سوى العقم، وذلك بالقدر الذى قبل به نكوص الثورة عن تحقيق وعودها وخياناتها للأحلام التى أيقظتها فى عقول ومشاعر الباحثين عن العدل والحرية والتقدم

والوحدة القومية.

ولكن المشكلة أن سالم عبيد فى أعمق أعماقه كان يتمرد على ذلك كله، ويبحث عن مخرج وعن حل. وكان ذلك، تحديدا، سبب مأساته وأزمته الفكرية، خصوصا من حيث ما ترتب على الرضى والقبول والاستسلام من رد فعل داخلى، هو نوع من الرفض الذى لا يجاوز الأعماق، فيخلف التوتر الذى يكشف عنه حواره الداخلى لسالم عبيد فى الخامس من نيسان (ابريل) ١٩٦٢، قبل شهر واحد من انعقاد المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية، حيث يقول لنفسه أو يقول لنا بلا فارق: «عملى يخرج ناقصا، لا يرضينى. ومنذ زمن بعيد وأنا أعرف عن يقين أن المؤرخ يكتب تاريخ نفسه ويكتب تاريخ دمه وهو يكتب تاريخ بلده. ولكن نفسى مليئة بمشاعر العجز والشك وعدم القدرة على المصارحة. زوجتى التى تنام معى على سرير واحد بينى وبينها ألف حجاب. وعندما أسكت واتجاهل الشك الذى أعانيه نحوها أسكت وأتغاضى رغم أنفى عن حقائق يجب أن أدركها فى تاريخ بلدى». هذا الحوار الداخلى الكاشف يكمله صوت الراوى الذى سرعان ما ينقلب إلى صوت سالم عبيد. والبداية هى تأكيد ما كان سالم عبيد يعانيه «فى السنوات الأخيرة» من شعور حاد بالحيرة والشك وعدم التصديق والدهشة، وهو يتابع أعمال ثورة ٥٢ فى مصر. يلتقى فى أكثر من مناسبة برجال مسئولين، قادة ووزراء، يرحبون به، ويطلبون منه الإدلاء برأيه، فيعجز عن التعبير، ويندفع فى إطراء كل تصرف، ومدح كل قرار، وإعلان تفاؤله المطلق وتأييده التام. ويتملق الكبير الذى يسأله ثم يخرج من مكتبه ورأسه يدور، كما لو كان يقول لنفسه: «لماذا قلت هذا الكلام؟ لماذا تملقت ونافقت ولست واثقا فى قرارة نفسى من شئ؟... النتائج

باهرة... ومع ذلك أشعر أن كل شئ مؤقت، كأنه غير حقيقى، كأنه لن يدوم. كل شئ يعوم فى بحر من الفوضى وعدم الفهم ولكنى أعجز عن مواجهتهم».

ويصل هذا العجز عن المواجهة إلى ذروته مع تصاعد عمليات الإعداد لميثاق العمل الوطنى، وما هو مدعو إليه من المصارحة الكاملة والتعبير الحر. وكلاهما أمر يعلم سالم عبيد قبل غيره مخاطره. ويبدو الحال كما لو كانت الأزمة العامة تفجر الأزمة الخاصة، وتضع المأزوم فى مواجهة كل أبعاد الأزمة وأوجهها. وعندئذ، تبرز صورة الموجة العارمة من السخط والغضب، مقرونة بأصداء طلقات الرصاص وانفجارات قنابل التنظيمات السرية التى مهّدت لاحتمالات الثورة، وأرهصت بأهمية التغيير الجذرى فى كل شئ. وهى الصورة التى استوقفت سالم عبيد فى الباب الرابع من الميثاق عن «درس نكسة» ثورة ١٩١٩ (ودال السؤال عن درس نكستها ينصرف إلى مدلول السؤال عن درس نكسة ثورة ١٩٥٢ فى انفصال ١٩٦١). والنتيجة هو ما تداعى على ذهنه من ترابطات شعورية واحتمالات نفسية لاختيارات حياتية، غير بعيدة عن معنى المواجهة الحدية والتغلب على العجز. ويتولد السؤال عن الكيفية التى يتفجر بها الرفض حديا فى تعبير أفعاله، وعن الكيفية التى تستجيب بها أفعاله هو إلى رغبة تدمير السلطة التى تسجن الفرد والجماعة فى شروط الضرورة. ولذلك يبدو اللقاء بعمر النجار الإرهابى القديم نوعا من الحل على مستوى مبدأ الرغبة، بحثا عن النقيض الذى يقدر على المواجهة الحدية، واكتشافا لإمكانات الرفض الجذرى الذى تنطلق رصاصاته حاسمة مباشرة كالحقيقة التى يفر سالم عبيد من النطق بها.

ويبرر سالم عبيد لنفسه اندفاعه إلى هذا النوع من البحث والاكتشاف بأنه مؤرخ و«المؤرخ بطبيعته قادر على أن يتقمص الشخصيات» . هكذا، يسعى إلى عمر النجار نقيضه كما لو كان يسعى إلى مرآته التى تصدمه بالحقيقة عن نفسه، وعن الرغبة التى ينطوى عليها إزاء «بحر الفوضى» الذى يغوص فيه سياسيا، وعن زوجته التى يريد أن يدفعها إلى النقيض نفسه كى يدمرها فى الوقت الذى يضعها فى مواجهة سقوطها الذى لا يختلف كثيرا عن سقوطه. ويحاول العنصر الخانع فى سالم عبيد أن يتقمص العنصر المندفع فى عمر النجار، كما لو كان يتحد بصورة نقيضه الذى غدا مرآة عجزه، وذلك على مستوى مبدأ الرغبة الذى يسترجع معه سالم، فى تداعيات اللاشعور، ذكرى عمته زكية التى ترجع إلى نصف قرن. وقد وقفت هذه المرأة ضد التقاليد، وطلبت بكل ضعفها الأنثوى تدمير المجتمع الذى ظلمها، كأنها المجلى الأول للإرهابى الذى صاغ فلسفة التدمير. وتلك ذكرى تستعاد على سبيل الكشف عن بذرة الرغبة التى ينطوى عليها البطل، فى سعيه إلى تقمص نقيضه الذى هفا إلى أن يكون شبيهه فى حدّية المواجهة.

وكان سالم عبيد يدرك خطورة ما يقوم به من سعى إلى عمر النجار، ويعى معنى أن يكون مثل عمته الغاضبة التى لا تفارقه ذكراها، أو مثل أحد الساخطين الذين اقتحموا المحلات وأحرقوا الفنادق ودور السينما فى حريق القاهرة فى السادس والعشرين من كانون ثان (يناير) ١٩٥١ ،ولذلك يرتعب من خاطر أن يكون مثل عمر النجار الذى أراد استخدامه للقضاء على خيانة زوجته. وكان هذا النوع من الوعى الوجه الآخر من الوعى بتصاعد الأحداث التى تعلم منها سالم عبيد أنه كلما تقدم خطوة فى الفهم تقدم

خطوة في العجز، وكلما نبش في المعرفة نبش في حفرة الموت. ويدهشه أنه يتكلم بحماسة في الاجتماعات السياسية رغم شعوره بالإرهاق الشديد نتيجة ما تعلمه. يردد كلمات قرأها، ويتشدق بتعبيرات نطق بها مئات المرات في محاضراته، كأن إنسانا آخر يتكلم نيابة عنه، وكأنه مقدور عليه أن لا ينطق سوى أنصاف الحقائق وأرباعها في الضعف الذى يملأ الفراغ بقوة، وفي العجز الذى تتوارى معه الحقيقة العامة.

أما الحقيقة الخاصة فلا تختلف عن الحقيقة العامة حتى مع انقلاب اللعبة، ومع تحول عمر النجار إلى الزوجة التى رأت فيه خلاصا لها، فطلبت الطلاق من المؤرخ الذى لم يخطط لهذه النهاية، تاركة إياه للعدم الذى يسقط في هاويته، وتستبدل بالموت الذى واجهته في علاقتها بعمر نوعا من الحياة الملتبسة، بعيدا عن إمكان التحقق الكامل مع الإرهابى الذى يغدو عجزه الجنسى استمرارا لحضور الزوج العاجز بأكثر من معنى. لكنها على الأقل تحررت من الحياة المزدوجة، وتركت النقيض يواجه نقيضه في صراعهما عليها، الصراع الذى ينتهى إلى عجز كليهما عن الفعل، ومن ثم العجز عن قتل الآخر الذى هو الأنا بأكثر من معنى، كما لو كان كلا الطرفين أدرك في النهاية أن فعل القتل كأفعال العنف تعبير يائس واحتجاج عاجز لا يؤديان إلى التغيير الجذرى. لكن العجز عن القتل يلتبس بالعجز عن الجنس والعجز عن الفعل الاجتماعى والسياسى في الوقت نفسه، فالعجز الشامل علامة على كبح كل شئ، وقمع كل انطلاق، في مدى رغبة الأنا الخاصة والعامة في واقع «تلك الأيام» التى حاول فتحى غانم، بمراوغاته السردية وتقنياته الروائية، أن ينطق بعض المكبوت من خطابها

١

يحكى أن رجلا مشهورا يعيش اليوم بيننا، قد استطاع عن طريق غامض لايعرفه أحد، أن يتنبأ بالغيب. وهذا الرجل ليس مشهورا بسبب هذه القدرة الغريبة التى حصل عليها، فلا يوجد مخلوق واحد على ظهر الأرض يعلم هذه الحقيقة. والرجل نفسه لايعلم أنه قادر على التنبؤ بالغيب. وإلا كان حاله قد تغير، وأصابه الجنون مثلا. ولكنه يفعل أحيانا أشياء عجيبة غير متوقعة، وتهمس رأسه بأفكار، فيدير خططا يتحكم فيها فى مصائر من حوله، كتلك الخطة التى دبرها لزوجته مع الإرهابى القديم. وهو واثق تماما من نجاح خطته.

ولقد شعرنا نحن جميعا، الناس والدولة، أن هذا الرجل له أهميته الخاصة، وأن له قدرات غير عادية، سميناها موهبة أو عبقرية، فقلنا أن الأستاذ سالم عبيد، مؤرخ عظيم، وقد منحته الدولة أكبر جوائزها.

أما الناس فيتحدثون عنه كرجل فاضل، وعالم جليل، وقلة هم الذين يعلمون بأمر زوجته ويأسفون، ولكن هذا لايقلل من شأن الرجل.

وفى مدينة كالقاهرة، تجد رواد المقاهى الكبيرة والصغيرة، يعرفون اسم سالم عبيد، ويعترفون بمكانته، حتى لو لم يقرأوا حرفا واحدا من مؤلفاته العديدة عن تاريخ مصر ولم يخطر ببال أحد، أن سالم عبيد قادر على التنبؤ بالغيب.

٢

يوم ٦ فبراير سنة ١٩٦٢ :

ضوء النهار شديد، وعينا الأستاذ عبيد متعبتان، لاتقويان على مواجهة الضوء، السيارات قادمة من اليمين ومن اليسار. موج من الناس يزاحمه على الرصيف.. لابد أن يعبر هذا الشارع.. من الرصيف الذى فيه المكتبة، إلى هناك، إلى رصيف جروبى.

أتنازل عن كل مؤلفاتى من أجل أن أصل إلى هناك، أجساد الناس تتحرك من حولى فى نشاط وغباء، عمر النجار يجلس فى انتظارى.. يترقب لحظة دخولى حديقة جروبى.. عيناه تتربصان فى قلق أنا واثق أنه فى إنتظارى، القاتل لايتأخر عن الميعاد.. ترى كيف وصل عمر إلى جروبى؟

اقتحم الطريق، وباب الدخول؟

قفز من نافذة فى عمارة مجاورة؟

أما زال يحمل مسدسه فى جيبه.. أو قنبلة يدوية قديمة؟ لابد أنه يحتفظ بتذكار..

مالى أفكر كالأطفال.. لن يكون الأمر ساذجا على هذا النحو.. عمر النجار يحمل معه قطعة من التاريخ. سأحصل عليها منه.. أعبر الطريق وأحصل على قطعة التاريخ.. كيف أعبر هذا الشارع اللعين.. لو كان هذا الشارع كتابا لعبرته فى سطر.. فى كلمتين..

كل شئ يزحف نحو الأستاذ سالم.. حديد السيارات، حجارة المبانى، أسفلت الرصيف، الأشجار، أعمدة النور.. قرص الشمس.

عالم كثير الضجيج، ولكنه غير حقيقى.. لاشئ من هذا نحتفظ به فى كتب التاريخ.. لو وقفت فى مكانى كتمثال فرعونى، فسيأتى اليوم الذى ينحسر فيه هذا الزحف، وعندئذ أستطيع أن أتحرك، أتحرك إلى أين؟ عندما يأتى ذلك اليوم سيكون جروبى قد زال، وعمر تحت التراب، لابد أن أعبر الآن.. أقتحم فى الحال، قبل أن تضيع قطعة التاريخ، مع ضياع الضجيج الذى ليس للتاريخ.

كان الاستاذ سالم فى منتصف الطريق، وجاءت سيارة تنعق من اليمين، وجاءت سيارة تنعق من الشمال.. وسمع صوتا يصرخ.. لم يتبين الكلام، ولهث حتى الرصيف الآخر، ووقف يسترد أنفاسه. المواظبة على التمرينات الرياضية لم تعد تفيد فى هذه السن. ودخل باب جروبى..

جـال ببصـره، يبـحـث عن عـمـر النجـار.. أين يخـتـبئ عـمـر، أين يتربص، القاتل لايجلس فى الأماكن المكشوفة.

هناك فى الركن البعيد؟

أو عند السلم؟

هاهو تحت الشجرة العتيقة..

وجهه أسمر نحيف، فمه نصف مفتوح، ينادى بلا صوت.

ـ آسف تأخرت..

ـ خمس دقائق..

ـ الطريق صعب .

ـ الطريق صعب..

تجهم وجه عمر، فانزعج الاستاذ سالم، والتفت باحثا عن شئ آخر غير وجه عمر.. رأى عجوزا شمطاء تجلس إلى المنضدة المجاورة، تحدث نفسها، تلوح بيدها، تبتسم لمجهول، مجنونة.. لا خطر منها..

شرب الاستاذ سالم القهوة، وشرب عمر عصير الليمون، وملأ المنفضة برماد وأعقاب لفافات التبغ، تحدثا عن الغرض الذى من أجله تم اللقاء.. الأستاذ سالم يريد كتابة تاريخ فترة مابعد الحرب العالمية الثانية فى مصر. كان كل شئ ينهار، وكان كل شئ يستيقظ، ناس يؤمنون، وناس يلحدون وملك على عرش، ورعايا ملك يلعنون العرش،

زعماء يرتفعون على مقاعد الحكم ، ورصاص يخترق أجساد زعماء فيسقط بهم فى حفرة القبر.. ضجيج.. وحقائق بشعة.. تقاليد ميتة.. أخلاق ميتة.. ضمائر ميتة.. مصر جسد عجوز لايصل الطعام إلى معظم أجزائه.. أطراف ميتة.. ألديدان تنهشها.. رصاصك أنت ياعمر.. قتل الديدان.. مصر لن تنساه.. أنها بطولة.

- ليست بطولة.

- هذا التواضع بطولة أكبر..

- لست متواضعا..

وبرقت عينا عمر، أطلقتا شعاعا نافذا، نظرات خنجر..

- ستساعدنى ياعمر فى الكتابة عن أعمالكم.

- ماذا تريد أن تعرفه؟

- كل شئ.. كل شئ..

- الحوادث نشرتها الصحف.. والاعترافات مسجلة فى مضابط المحكمة..

- ليس هذا كل شئ..

- وماذا بقى؟

- أنت..

- أنا موظف أرشيف بوزارة التربية.. كل يوم تتلوث يدى بتراب الملفات.

ـ لاأقصد هذا..

ـ ليس هناك غير هذا..

ـ تلك الأيام..

ـ لاأريد أن أذكرها..

ـ والتاريخ..

ـ لاأريد أن يذكرها التاريخ..

ـ ليس من حقك..

ـ نعم.. ليس من حقى.. لأنى رجل آخر.. عمر التجار الذى تبحث عنه.. اختفى منذ خمسة عشر عاما.

ـ ولكنك أقرب الناس إليه.

ـ غير صحيح. . أنا لم أعرفه أبدا..

ـ تذكر تصرفاته، أفكاره، نفسيته..

ـ لاشئ.. لاشئ على الأطلاق..

ـ حاول..

ـ لم أنتظر حتى تسألنى المحاولة.. حاولت فلم أصل إلى شئ..

ـ لاتظن أنى سأعدل عن الكتابة.

ـ هذا لايعنينى..

ـ أنى احترمك..

ـ وأنا أعتقد أنك أعظم مؤرخ فى بلدنا.

ـ قرأت لى شيئا؟

ـ لا..

ـ ومع ذلك..

ـ سمعت عنك.. يقولون أنك عظيم..

حدقت عينا عمر فى وجه الأستاذ سالم.. عينا عمر رماديتان.. تراب الأرشيف يلوثهما. وهذا الدخان الذى يتصاعد من أنفه وفمه. دخان حريق.

اقطع الكلام بينهما..

تذكر الأستاذ سالم زوجته زينب.. وجه بيضاوى.. وأنف رومانى.. وعينان حزينتان شركسيتان وشعر أسود، وشفتان مليئتان.. خليط من السمن البلدى والدندرمة.. وقمم الجبال تختفى وراء السحب، وقناة فيها عشب وطين، فراعنة وأتراك وعرب.. كان وجه زينب غاضبا، شرسا، ومع ذلك فهو لن يطلقها. والتفت الأستاذ سالم إلى المرأة الجالسة إلى المنضدة المجاورة، وتعمد أن يفحصها بدقة.. وجهها مألوف، صورة رآها فى كتاب تاريخ. ليس أمامها صحن ولا كوب ولافنجان.. يبدو أنها لم تأكل منذ أيام. ماذا تقول هذه المجنونة لنفسها. همسها لاينقطع. زينب لم تعرف رجلا مثل عمر. لو رأته؟ زينب فى أحضان

عمر؟زينب ميتة الضمير لو عرفها عمر فسيضربها، يصفعها، وتعود إلى البيت باكية تتألم ربما قتلها؟ عمر يقتل المرأة التى تخونه. ماهذه الأفكار. منظر هذه المرأة المجنونة.. يهمس بصور مجنونة فى رأسى..

ـ أنت متزوج ياعمر؟

ـ لا..

ـ وحيد؟

ـ عاطل..

ـ أنت تعمل فى الأرشيف؟

ـ عاطل فى الأرشيف..

ـ وماالذى تريد أن تصنعه؟

ـ لاشئ..

ـ العاطل يبحث عن عمل..

ـ لاأصلح لعمل..

ـ هذا يأس..

ارتفع صوت عمر مزمجرا؟

ـ لست يائسا..

ـ آسف.. أنا لاأفهمك..

صوب عمر يده نحو صدر الأستاذ سالم.. وضاقت عيناه.

ـ هذه اليد تقبض على طبنجة.. الأصبع يضغط على الزناد.. الرصاصة تنطلق، تخترق أنفك من أسفل وتنفذ بجوار المخ وتخرج من جانب الأذن.. أتفهم هذا؟

ـ نعم أفهمه.

ـ أنت لاتفهم شيئا.

قال الأستاذ سالم لنفسه.. لابد أن أصبر على وقاحته..

لقد بدأ يتكلم. قال عمر بسرعة:

ـ آسف.. أنا لاأعني ماأقول.. أعتذر لك.

ـ لاتعتذر.. أنت على حق.. لم أفهمك..

ـ ولكنك مصمم على كتابة ذلك التاريخ.

ـ نعم..

ـ تريد الحقيقة..

ـ من أجل الحقيقة أجلس معك الآن..

ـ لاأدرى كيف تصل إليها.

ـ أنا أعرفها..

قالها الأستاذ سالم بثقة كبيرة..

ـ تعرفها؟؟

ـ أجهل التفاصيل.. الأسماء.. ولكنى أعرفها.

قال عمر فى برود؟

ـ ربما..

ـ ومارأيك فى أن تزورنى فى بيتنا..

واختلس الاستاذ سالم نظرة إلى المنضدة المجاورة. كانت خالية..

٣

اليوم التالى ٧ فبراير سنة ١٩٦٢ :

معرفة الماضى الذى فات أسهل كثيرا من معرفة الحاضر الذى يقع أمامك، وتراه بعينيك.. وتسمعه بأذنيك وتشارك فى أحداثه..

هذا رأى يتمسك به الأستاذ سالم ويؤمن به إيمانا قاطعا. أحداث الحاضر مليئة بالضجيج، والزيف، والوهم. وفوات الزمن يخلص الأحداث من الضجيج والزيف والوهم.. ينقيها ، ويبلورها.. فتذهب الشوائب وتبقى الحقيقة الصافية، ولكن الحقيقة الصافية لاتشبع نهم الأستاذ سالم، إن به ظمأ للتفاصيل. مايقع يوما بعد يوم. لحظة بعد لحظة.. الساعة العاشرة والنصف صباحا يوم ٥ نوفمبر عام ١٨٥٤ وصل الإسكندرية فرديناند ديلسبس يحمل فى حقيبة يد مشروعا لشق قناة السويس. الساعة الخامسة صباحا يوم ١٢ نوفمبر عام ١٨٥٤ .. فى الصحراء العربية، وقف ديلسبس يتأمل معسكرا وخياما ينام داخلها أحد عشر ألف جندى. وفى الخيمة الرئيسية ينام سعيد باشا.. وكان قوس

قزح بلون السماء.. فى الساعة الرابعة بعد ظهر نفس اليوم.. كان سعيد باشا يجلس أمام خيمته متعبا، وعلى بعد خمسمائة متر يتمرن الجنود على إطلاق النار على الأهداف.. ولم يصب أحـد من الجنود عين الهدف. تفاصيل. تفاصيل.. هى الشهيق والزفير، دقات القلب، رجفة الرموش.. صورة الحياة.. جسد الحقيقة.

وكـان الأستاذ سالم يدرك بينه وبين نفسـه، أن عسر عطشـه للتفاصيل، يرجع إلى تلك العلاقة المعقدة بينه وبين زوجته زينب..

هاهى أمامى.. أراها.. الأحمر فى شفتيها.. خط الكحل فى عينيها . شعرها قصير، واثقـة، حزينة، صوتها عصبى، ضحكاتها عالية غليظة، آمرة.. قلقة.. نمت بين ذراعيها، اكلت وشربت من فمها. استرحت على صدرها.. دخلت عليها الحمام وهى عريانة. تشاجرنا. دفعتها بيدى، صفقت الباب فى وجهى، بللت دموعها كفى، ضحكنا.. رقصت لى وحدى.. سقطت مريضا ورفعت المبولة من تحتى.. شممت عطرها، قبلتها وصفار البيض يلوث شفتى.. صنعت لى ألف فنجان قهوة.. وأكثر.. أيقظتنى لأكف عن الشخير. دست يدها فى جيبى وأخرجت نقودا، وقرأت أوراقا.. رأيت ثيابها الداخلية ملقاة على السرير.. بللنا مناشف بجسدينا.. قلت لها أحبك.. قلت لها: أكرهك.. قضينا الليل فى حجرات الفنادق.. تزوجنا منذ عشر سنوات.. أنتقلنا من شبرا إلى الزمالك.. طلبت الطلاق وصالحتنى.. طلبت البقاء، ساعدتنى على الكتابة، نغصت حياتى ومنعتنى عن الكتابة، عادت إلى البيت مرحة، عادت إلى البيت بوجه مريب.

أعرفها.. كيف لاأعرفها..

ولكنى لاأعرفها.. تنقصنى التفاصيل.. أعرف الحقيقة ولاأعرف التفاصيل. شئ مافى داخلها يفزعنى.. رجال.. شبان.. أولاد.. يختبئون داخلها.. أراهم.. ولاأراهم.. تخفيهم عنى.. ولاتخفيهم.. كيف تستطيع زينب أن تحدثنى.. لست أبله.. إنى أعرف الحقيقة.. ولكن أجهل الأسماء.. أجهل أماكن اللقاء.. أعجز عن معرفة الصوت المجهول الذى يغلق التليفون فى وجهى. ولكنى أعلم بوجودهم جميعا. فى وجهها. فى جسدها.. فى ملابسها الداخلية. فى أدوات الزينة أمام المرآة.. فى خصلات شعرها.. فى نكهة فمها.. جميعهم هناك.. رجال يدخنون ويشربون ويضحكون ويعبثون بجسدها.. ويسخرون منى ويخافون..

كلما فتحت باب البيت، اتجهت إلى حجرة نومنا، وأنا واثق أنى سأجده هناك، يرقد بجوارها، على سريرنا. أراه فزعا، ينتفض.. وأراها واجمة لاتقوى على رفع رأسها.. وأضحك.. هاهى التفاصيل تتضح أمامى، سأسألها عن اسمه.. وأطلب منه ألا يخاف.. كيف عرفتها؟ متى، وأين؟ وأطلب منه أن يوقع اقرارا بذنبه.. وأقدم له القلم، سيمسك القلم.. ويفكر فى طعنى به.. ولكن نظراتى توقفه، ويوقع الاقرار، يكتب اسمه كاملا واضحا.. يكتب وظيفته وعنوانه.. ربما كان طالبا، وتوقع زينب الاقرار، وأرقبهما من مكان بعيد.. من فوق سحابة بعيدة فى السماء.. كأن قرونا مضت على ماحدث.. وأودعها وأودعه.. وأرتاح..

ولكنى لاأرتاح..

كلما فتحت باب البيت، وجدتها وحدها.. افتح باب غرفة النوم.. فلا أجده على السرير.. أنصت لوقع أقدامه لعله مختبئ.. أتحرك بسرعة فى كل أرجاء البيت، باحثا منقبا. ولكنه غير موجود.. أحيانا لاتكون هى فى البيت.. فأنتظرها وتعود وحدها.. ونبقى معا.. فى انتظار التفاصيل.. الصمت بيننا مرير، والصمت طويل.. والكلام بيننا أمل والكلام قصير.. أتقول زينب كلمة تزيل الشك الذى هو يقين.. أتقول كلمة تقطع الشك وتؤكد اليقين.. منذ آلاف السنين بنى الملك خوفو الهرم.. منذ ساعة قابلت زنيب عاشقا مجهولا.. لماذا نعيش جنبا إلى جنب.. فى بيت واحد.. زوجين.. لماذا أتمسك بها ولا أطلقها.. الطعنة تنفذ إلى القلب ولاتقتلنى، الجريمة تتم ولاأروح ضحية لها..

لو انتظرت.. لو انتظرنا.. فسأعرف مالاأعرفه..

* * *

وقفت زينب أمام المرآة تعبث بخصلات شعرها.. وتختلس النظر لسالم وهو يخلع ملابسه.. نظراته تائهة، شفتاه تتمتمان، يخاطب نفسه هذا الحطام المخرف لى، أما العبقرية فللناس.. الشعر الأشيب، والنظارات، والكوفية، والسعال، والقامة القصيرة.. كلها لى.. والعظمة والعلم والذكاء والكتب للناس..

صفقة خاسرة.. الملل والسرحان لى..والأفكار الخطيرة للناس..

فليذهب هو.. والناس الى الجحيم..

ـ اتخرجين العصر؟

ـ لا..

ستدخل الحمام، وتغسل شعرها، وتطلى أصابعها. وعندما يدخل حجرة مكتبه، ستغلق حجرة النوم بالمفتاح، وتتحدث مع سعيد فى التليفون.. ستذهب غدا إلى الحلاق.. ثم تقابل سعيد..

غدا أذهب إلى الحلاق..

ـ زينب.. سأقول لك شيئا.. أرجو ألا تنزعجى..

نظر إليها وهو يحاول طرد ذلك الخاطر المجنون الذى طاف برأسه وهو يراقب المرأة المجنونة فى جروبى..

ـ ماذا؟

ابتسامته وقحة، أيستطيع هذا المخلوق أن يزعجنى.. إنه واهم..

ـ سيزورنى عصر اليوم، رجل..

وقطع سالم كلامه.. كان يرى زينب فى أحضان عمر النجار..

ـ وماذا يهمنى؟

صوته يفيض رقة وغباء وقحة وإنانية..

ـ أخشى أن أقول أنه مزعج قليلا..

ـ مزعج؟

ماله يبتسم هذه الابتسامة البغيضة.. لايوجد رجل مزعج سواك..

ـ أنصحك لو جاء أن تبقى فى حجرتك..

ـ سأغلق الباب بالمفتاح..

كأنه هو الوحيد الذى يفهم.. الوحيد الذى يعرف..

ـ ماالذى يزعج فيه؟

ـ أنا نفسى غير مطمئن..

نعم غير مطمئن.. فهو قاتل قديم.. وعاشق جديد.. وهاهو فضولك يتحرك..

ـ مجنون؟

حتى المجانين أفضل منك، كأنك وحدك الذى يجازف ويغامر..

ـ إنه خطر.. إرهابى..

فاجأها النبأ.. تتردد.. ستحاول الآن إخفاء اضطرابها..

قال سالم لنفسه.. لن أتيح لها الفرصة..

وغادر سالم الحجرة، ودخل الحمام، وسمعت زينب صوت الماء يتدفق من الصنبور. ماذا يعنيها من التاريخ وتأليف كتب التاريخ، ولكن هذا الارهابى.. إنه ليس تاريخا.. إنه رجل.. رجل حى..

لايشبه هذه الكتب الاثنى عشر التى لم أقرأ صفحة واحدة منها.. بعض هذه الكتب لم أقرأ حتى عنوانها.. انظر إليها بكراهية ومقت،

وأحيانا أرفض أن أمد يدى إليها بالمنفضة لأزيل عنها الغبار. سالم ليس إنسانا. ليس مخلوقا من لحم ودم. إنه تلك الصفحات المطبوعة على رف المكتبة.. إنه لاشئ أكثر من أوراق مطبوعة.. أما ذلك الارهابى.. ترى ما اسمه..

بعد صمت طويل على مائدة الغذاء سألت زينب فجأة:

ـ ما اسمه؟

ـ اسم من؟

أعرف من تسألين عنه، ولكنى سوف أعذبك، سوف أثير فضولك..

ـ ذلك الرجل..

ـ أى رجل؟

ـ الخطر

ـ آه..

ـ سألتك ماأسمه..

هذا السرحان يقتلنى..

ـ عمر.. عمر النجار..

ـ لم أسمع عنه..

ـ اسم عمر لابأس به..

ـ ماعمره؟

ـ حوالى الخامسة والثلاثين..

أنا واثق أنه يصلح عاشقا لك.. ولكنى واثق من شئ آخر.. سوف يحطمك، يقضى عليك، ربما خنقك فى السرير..

ـ ماالذى تريده منه؟

ـ حياته.

ـ لاأفهم.

ـ حقيقة حياته.

وربما حقيقة حياتك أنت أيضا. منذ اليوم.. أنا صانع حياتك.. أنا صانع عشاقك.. سأعرف الاسم والسن والمكان.. لن أشغل نفسى بالسؤال عن هذه التفاصيل. سأتفرغ لمعرفة المهم..

ـ كتاب جديد؟

ـ نعم..

ونظرت زينب إليه، تلك النظرة التى تعودها دون أن يعرف معناها بالضبط.. من تظن أيها الغبى.. من تظن نفسك.. ماالذى تعرفه عن الحياة وحقيقة الحياة..

٤

ـ لست قائلا.. أنا مقاتل..

وقطع عمر كلامه.. كانت زينب واقفة عند الباب.. تتهيأ للدخول.. غامت عيناه فلم يعد يرى شيئا، شعر بصلابة فى يده اليمنى، أفاق على صوت الاستاذ سالم..

ـ زينب زوجتى..

نهض فجأة، وقبض على يدها بسرعة.. لحم طرى ذاب فى قبضته.. كان يخفض بصره.. فرأى بطنها وذيل فستانها الأخضر، ورأى صدرها.. وسلسلة ذهبية حول رقبتها، ووجهها، عيناها فجوتان كبيرتان.. إنها أمرأة..

وأدار رأسه إلى الأستاذ سالم.. كان سالم يبتسم.. لاشك أنه فخور بهذه المرأة.. زوجته.. لاشك أنه يحبها.. بيت هادئ.. زوجة رجل عالم.. جميلة.. إنها أمرأة..

تشرفنا ياأستاذ عمر.. أهلا وسهلا..

إنه أصغر منى بخمس سنوات على الأقل.. خجول.. نحيل.. بين شفتيه سيجارة.. رائحة فمه دخان.. أعرف هذا النوع من القبلات، عصبى.. قبضة يده مازالت تؤلمنى..

تمتم عمر بكلمات تحية. وشعور بالحذر يجتاحه.. هناك خطأ ما.. الجدران تضيق.. صدره يضيق.. عينا هذه المرأة تبتلعان كل شئ.

ـ شاى ياأستاذ عمر..

ـ شربت قهوة..

ـ عصير ليمون..

صاح سالم:

ـ نعم يازنيب.. عصير ليمون..

أهكذا تكون البداية يازنيب.. شاى ياأستاذ عمر.. أنت لطيف ياأستاذ عمر.. لاأستطيع ياأستاذ عمر.. متى ياأستاذ عمر.. كلمنى فى التليفون ياأستاذ عمر.. أحبك ياأستاذ عمر..

والتفت سالم إلى عمر وقال:

ـ إذن فأنت مقاتل..

أجب ياأستاذ عمر.. إنها تتنصت إليك.

ـ سأذهب لأصنع عصير الليمون.

ـ ألا تريدين مشاركتنا؟

ـ أنا لاأفهم هذا الكلام..

وضحكت زينب، ونظرت إلى عمر كأنها تفهم كل شئ. انتظر عمر حتى غابت عن الحجرة.. وانفجر ضاحكا فى عصبية..

ـ أظن الوقت غير مناسب..

ـ زينب تريد أن ترحب بك..

ـ كلامنا سيضايقها..

ـ لاأظن..

ـ صدقني ياأستاذ سالم.. أنا لاأستطيع الكلام أمام. وسكت عمر.. كأنه ارتطم بشئ.. ففقد النطق..

ـ امرأة..

ـ نعم..

ـ سأطلب منها..

ـ أرجوك.. لاتفعل هذا..

ـ كما تشاء..

ولكني سأقول لها عندما تذهب أنت.. سأقول لها عمر لايريد الكلام أمامك.. سأقول لها أنك لاتحب النساء.. سأقول لها أنك تفكر في أشياء أخرى غير المرأة.. ستغضب. سيشتعل فضولها.

وعادت زينب تقدم عصير الليمون. وجلس ثلاثتهم يثرثرون ويتربصون وينتظرون. ويتحسسون موضع الكلمات قبل أن تخرج من الفم. وتنتقل إلى الأذن. وكان سالم هادئا كأن الجلسة ستستمر إلى الأبد. وانتهز فرصة صمت وقال لعمر:

ـ منظرك لايعجبني..

ابتسم عمر وسأل بصوت قاطع:

ـ لماذا؟؟

وانتبهت زينب بكل حواسها:

وقال سالم:

ـ كأنك مريض. أنت لاتعنى بصحتك. أنا أكبر منك بكثير ومع ذلك أبدو شابا أقوى منك.

نظر عمر فى برود، وكتمت زينب غيظها، حان الوقت الذى يروى فيه سالم قصة شبابه وحيويته، ذلك الكلام الذى لايكف عن ترديده. إنها تعرف كل كلمة سيقولها. شئ ممل، متى يدق جرس التليفون ويتحدث سعيد.

ـ هل تعرف ياعمر أنى أزاول التمرينات الرياضية كل يوم.. نعم كل يوم.. فى الصباح وفى المساء. أنظر. ليس لى كرش. الخطر يكمن دائما فى الكرش.

أنصتت زينب إلى صمت عمر. تريد أن تعرف رأيه فى هذا الجنون. كان وجه عمر قناعا لايكشف عن شئ.

ـ أتعرف الشر. إنه مرض قديم أصابنى فى الأمعاء، كدت أموت، لولا ذلك الطبيب الفرنسى الذى عالجنى فى باريس كنت طالبا فى البعثة بعد أن أتم الكشف ربت على كتفى وقال: أنت مصرى. سألته. كيف عرفت. قال. الكبد والأمعاء. هذه هى العلامة المميزة لكل المصريين. ونصحنى. رفض أن يصف لى دواء. قال. أمتنع عن الأكل الدسم وواظب على التمرينات الرياضية. وسوف تعيش مائة عام. منذ ذلك اليوم لم أذق طعم الملوخية إلا مرة واحدة. ولم أنم ليلتها..

ـ عذاب..

انطلقت الكلمة من زينب، كصرخة مكتومة، وأنتظرت صداها منذ عمر. ولكن القناع ظل جامدا.. فسألته:

ـ أتفعل هذا ياأستاذ عمر؟

ـ إنه يحافظ على حياته.

ـ ولكنى أسألك أنت.. أتفعل أنت هذا..

قال عمر فى هدوء حزين:

ـ لا..

صاحت زينب:

ـ الحمد لله..

قال سالم معاتبا:

ـ ولماذا ياعمر!

ـ هكذا..

ـ ألا تريد المحافظة على حياتك؟

فاندفعت زينب فى حماس:

ـ إنه يريد أن يعيش..

ودق جرس التليفون.. ولم تتحرك زينب..

ـ التليفون يازنيب..

فنهضت متباطئة، حتى خرجت من الحجرة، ثم جرت، وهى تحصى دقات الجرس، واقتحمت حجرة النوم، وهجمت على التليفون، ولكن الجرس كف عن الرنين، استلقت على السرير لاهثة حانقة. ضاع

لقاء الغد، ملل جديد. وهذا الرجل الغريب الجالس مع زوجها جامد كلوح من خشب.

وقفزت إلى المرآة، تصلح شعرها.

الأحمق الذى يرفض أكل الملوخية ليعيش مائة عام. أهذه حياة.. كتب وأوراق وتاريخ.. أهذه حياة. ستسدل خصلة الشعر على وجهها، نعم هكذا.

عادت زينب إليهما، وسالم يروى حكاية عمته المجنونة..

ـ من يازينب؟

ـ لا أحد. سكت الجرس قبل أن أصل إليه.

ولاحظ عمر غشاوة قلق على وجه سالم. هذا بيت غريب. العلاقة بين سالم وزينب ليست على مايرام. وصمت الجميع.

ـ أكمل حكاية عمتك ياسالم.

نظر إليها سالم فى حذر. إنها تدبر شيئا. لو كان يعلم أنها ستعود لما حكى هذه القصة.

كنت أظن أنك ستختفين فى حجرتك مع الصوت الذى يهمس فى التليفون. ولكنك عدت مسرعة. هل أعجبها عمر بهذه السرعة..

ـ تكلم ياسالم..

والتفتت زينب إلى عمر.

ـ إنها قصة مسلية ياأستاذ عمر.. تكلم ياسالم.. نعم سأتكلم.

ـ قلت لك إنها كانت امرأة غريبة بين الفلاحين: إذ تجرأت وصرخت بملء فمها أنها لاتطيق زوجها. وكانت تهرب كل يوم مع ابنها إلى بيت جدى. فيضربها ويعود بها إلى زوجها.

حتى كان ذلك المساء الذى حاولت فيه الانتحار، أشعلت النار فى ملابسها انقذوها وأصيبت بحروق شوهت صدرها وطلقها زوجها، يوم الطلاق زغردت، وقالت بلدنا أنها امرأة مجنونة، كنت أقضى أجازتى فى البلد. وقال لى الولد عبد العزيز ونحن نلعب على حافة الحقل، حقول بلدنا تنتهى بالصحراء. الخضرة هنا. والرمل هنا. أخضر وأصفر، يفصل بينهما لاشئ. لماذا تنتهى الخضرة عند هذا الحد بالذات. ولماذا تبدأ الصحراء من هذا الحد بالذات. لاأحد يعلم..

ـ أكمل الحكاية ياسالم.

نعم سأكمل الحكاية، أيتها الحمقاء، إن الحقول والرمال أهم بكثير من حكاية عمتى المجنونة ألا ترين أهمية هذه التفاصيل؟!

ـ ماذا كنت أقول؟

قال عمر:

ـ عبد العزيز قال لك..

ـ نعم.. قال لى عبد العزيز.. عمتك زكية مجنونة. قلت له: أبى عبيد سيقتلها.. رأيته أمس وهو يرفع عصاه ويهوى بها على جسدها لتكف عن إطلاق الزغاريد. قال عبد العزيز وأبى بسيونى قال أنها لابد أن تموت، قلت له ببساطة: نعم. سوف تموت. وانتظرت موتها.. كنت أتفرج عليها كأنها جثة وأسأل نفسى هل يقتلونها وحدها أم يقتلون أبنها معها، ولد حلو. شعره جميل تتدلى خصلة من شعره على وجهه كالبنات.. عيناه واسعتان فيهما كل البراءة ـ رحمه الله ـ .. كان أصغر منى بسبع سنوات.. من كان يدرى ماذا يكون لو أنه عاش..

سأل عمر:

ـ قتلوه؟

ـ أكمل الحكاية ياسالم؟

نعم سأكملها. ولكن موت محمود ليس شيئا هينا أيتها الحمقاء.. أتريدين أن أتعجل لأصل إلى النهاية ثم تطلقين تعليقاتك.. هذا هو كل مايعنيك.. أنت لاتريدين إلا نفسك.. اصبرى. اصبرى. لاتتجاهلى كل مالا ترين. لاتقتلى كل مالاترين.

ـ لم يقتلوه.

قال عمر:

ـ ولكنه مات.

ـ ولم يقتلوا عمتى. عاشت وعاش أبنها.. وبعد طلاقها بعامين تزوجت. وكانت سعيدة.. سعادة فلاحة فى قرية. هل أنت فلاح ياعمر.

ـ لا..

ـ سعادة الفلاحة.. فرن دافئ. ولبن تحلبه: ودقيق..

ـ أكمل الحكاية ياسالم.

أطرق سالم برأسه، ثم قال ببطء وهو يصنع ابتسامة

ـ ولكنى أكملها..

قالت زينب ببراءة:

ـ نفذ صبرى ياسالم.. عندى كلام أريد أن أقوله..

ـ قولى ياحبيبتى..

تململت فوق مقعدها كطفلة:

ـ لابد أن تكمل الحكاية أولا..

ـ الحكاية باختصار، أن محمود عثروا على جثته فى بئر، وأتهمت عمتى زوجها السابق. ابو محمود بأنه قاتله، واتهم الأب زوج عمتى بأنه القاتل..

ـ وماذا قال البوليس؟

ـ قال أن محمود مات قضاء وقدرا.. سقط فى البئر، وأنا أصدق كلام البوليس.. فمستحيل أن يقتل الأب ابنه، ومستحيل أن يقتل زوج الأم ابنها.

صاحت زينب:

وأنا أصدق كلام الأم.. أبو الولد هو القاتل..

قال عمر بسرعة:

ـ فهمت ماتقصدين..

ـ صحيح.. أفهمت..

ـ نعم.. وهو معقول.. ولكن..

قال سالم غاضبا:

ـ عن أى شئ تتكلمان..

ضحكت زينب لعمر..

ـ قل أنت ياأستاذ عمر..

قال عمر باسما ويده اليمنى مصوبة فى فضاء الحجرة:

ـ أنا أتكلم نظريا. إذ ليس من حقى اتهام العمة.

فهللت زينب..

ـ حقا أنت فاهم كل شئ..

قال عمر:

ـ إذن تكلمى أنت..

قالت زنيب ساخرة:

ـ أتشعر بالحرج.. ولكنى سأقول.. أتعرف ياسالم لماذا قتل الأب ابن عمتك.. وصوبت إلى سالم عينيها.. الانتصار يلمع فيهما.. سوف أضربك الآن ياسالم..

ـ أتعرف ياسالم...

ـ قلت لك أنى أصدق كلام البوليس..

ـ لأن الأب يعلم أن الولد ليس ابنه..

ـ كيف؟

ـ الولد أبن الزوج الثانى..

ـ مستحيل..

ـ أبدا هذه هى الحقيقة.. لماذا حاولت الانتحار.. لماذا صممت على الطلاق.. ومن الذى يرضى بالزواج من مجنونة.. إلا الأب الحقيقى للولد..

ـ صاح سالم..

ـ الفلاحون أشرف من هذا..

قالت زينب ساخرة:

ـ هه.. إنهم بشر..

ـ ولكنهم يعرفون معنى الشرف..

هذه أفكارك أنت ياملعـونة.. تريدين إنجـاب ولد لى من عـاشق مـجـهـول.. أتريدين جـريمة مثل هذه.. وبحلق سـالم فى وجـه عـمـر. أيكون ولدى شبيها لهذا الوجه.. أدبر لك العاشق الذى يحطمك وتدبرين لى الابن الكاذب..

ـ ماذا تقول ياعمر؟

ـ أقول لو أنه صح هذا الفرض الغريب. فمازالت العمة شريفة.

ـ شريفة..؟؟

ـ طلبت الطلاق..

ـ بعد أن جاء الولد.. بعد أن ضاع الشرف..

ـ اسمع ياأستاذ سالم..

قالها عمر بصوت مرتفع، وقد شد قامته، وبدا أطول وأضخم مما كان..

ـ مارأيك فى.. أنا.

ـ نعم.. أنا عمر النجار..

ـ بطل سياسى..

أقولها مجاملة ياعمر.. فأنت قاتل.. لاشئ أكثر من قاتل... أو مقاتل.. سيان عندى..

ـ ولكننى قاتل.. هذه اليد قتلت..

قال سالم:

ـ أنت نفسك ترفض كلمة قاتل.. وتقول أنك مقاتل..

ـ المقاتل.. قاتل.. يقتل.. يرتكب القتل.. ثم يظل مقاتلا وليس قاتلا.

ـ ماذا تعنى..

ـ إنى أسألك.. هل أنا مجرم غير شريف..

ـ لا.. ولكن الظروف تختلف.. أنا لا أصدق ماتقول زينب عن عمتى.. لا لأنها عمتى ولكن لأنها فلاحة.. مستحيل أن تفكر فلاحة بهذه الطريقة.. مستحيل.. أنا لاأدافع عن عرض عائلتى.. هذا لايهمنى الآن..

قالت زينب هازئة:

ـ أتدافع عن عرض الفلاحين؟

ـ لا.. ليس هذا.. أنا أدافع عن الحقيقة.. لو كان هذا ممكنا نظريا.. لصدقته. قال عمر:

ـ إنه ممكن..

لن أعارضك ياعمر.. لقد بدأت تتكلم.. سأقر بالهزيمة. هاأنت وزينب في صف واحد. تعارضان رأيى، تتهمان فهمى..

قالت لك زينب أمامى أن الزوجة تستطيع أن تنجب ولدا غير شرعى، وأفهمتك أنها تدرك هذه الأشياء، وأنها تضحك وتتحمس عند ذكرها، لاتخجل ولاتشمئز، إنها تتحدانى.. تتحدى زوجها.. زوجها الذى لم ينجب أطفالا..

ولكن خطتى نجحت. فأنت تتحرك كما أشاء لك أن تتحرك. وزينب تتحرك كما أشاء لها أن تتحرك.

قال سالم لعمر وهو ينصرف:

ـ سأراك كثيرا ياعمر..

ـ أنا تحت أمرك..

قالت زينب:

ـ لماذا لاتأتى غدا على العشاء؟

ـ متى؟

ـ فى أى وقت تشاء..

قال سالم:

ـ لاتتأخر عن الثامنة.

ـ لن أتأخر.

٥

٤ ديسمبر سنة ١٩٥١ :

عينا زينب تسعيان وراء الصخور السوداء، صخرة صخرة. كتل من الصخر الأسود فى مختلف الأحجام والأشكال. هائلة ضخمة. ملتوية. غامضة. عاتية. صلبة. والنيل يتهادى حولها فى حزن عميق. حزن عريض. وهناك عند الشاطئ البعيد قمة بيضاء مهجورة فوق الجبل. قبة تعترض الرياح، وتتطلع إلى السماء.

كانت زينب تقف فى شرفة حجرتها بفندق كتاراكت بأسوان صباح مشرق دافئ حزين. ورياح خفيفة.

من أين أتى هذا الحزن ياربى. الحزن فى الطبيعة. والحزن فى نفسى وأنا عروس فى شهر العسل. الورد يملأ حجرتى. الخدم يدخلون ويخرجون فى أدب وظرف. وفرحة وفضول. منظرى يبهجهم وفستانى الأزرق جديد ولكن شراع المركب يفطر قلبى. المركب يلتف حول الصخور السوداء. كأنه يفطرها، بعد قليل سأبكى أو أغنى.

ماذا أقول لسالم. إنه لن يفهم. أنا نفسى لاأفهم ماذا يحدث لى. مشاعرى غير قابلة للتعبير عنها.. ملتوية غامضة. أنا وحيدة منبوذة. مكانى الطبيعى هو تلك القمة المهجورة فوق الجبل.

أسوان بعيدة جدا.. طفنا بالأمس فى طرقات سوق أسوان. رأيت دكاكين الذهب والفضة والعاج. مررنا بأطباق القش الملون. وقفت أمام العطار. بادلت النسوة النظرات. أسرعت أمام المقهى. ومع ذلك شعرت أن كل شئ من حولى بعيد. حتى تعليقات سالم كنت أسمعها كأنها آتية من بعيد. عندما دخلنا منتزه فريال أحسست بالغربة. كأنى أمشى فى حلم. وجلس سالم على مقعد حجرى وقد هزمه التعب. ومشيت وحدى إلى السور. ووقفت أطل على النيل والتفت ورائى. رأيت سالم يمسح عرقه بمنديل وفزعت، خيل إلى أنه رجل غريب. وجعلت أهمس لنفسى. هذا هو زوجك. وأسرعت إليه. وكلمته، لأتخلص من شعورى بأنه رجل غريب.

شرفة الفندق امتلأت بالسياح الأجانب. هذا البدين ذو الكرش الضخم يشرب الجعة فى الصباح. خالى سعد هو الذى قال أن الألمان يشربون الجعة بكثرة. كان يحب الألمان، ويحب أمى. ويحبنى. زوزو ياموزو ياأوزو طظ فى المذاكرة يازوزو. أنت أجمل بنت فى الدنيا. غدا ستتزوجين أميرا. لاأقل من أمير ابن ملك لزوزو. ثم لم يعد يهتم بنا. ومنع نقوده عن أمى وأكلنا الفول النابت، ووقفت فى الطابور بالجلباب والشبشب أمام دكان البقال، أمد يدى لأحصل على الحلاوة والجبن. وأبتسم ليرضى بتأجيل دفع الثمن.

هذه الشمطاء المسلولة تشبه الجثث المحنطة. منظرها يضحكنى لولا أنى حزينة، سأعيش مع سالم بقية العمر يوما بعد يوم. سنة بعد سنة «سالم طيب ومشهور» أنا حرم صاحب العزة سالم بك عبيد. لقب مهم «غدا يصبح سالم باشا. حرم صاحب السعادة سالم باشا عبيد. ولكنه لن يكون أميرا. صاحبة السمو الملكى الأميرة زينب سالم عبيد.

سالم ليس وقورا كما كنت أخشى أن يكون. منذ ساعة تناولنا الإفطار كان يأكل البيض. وكنت أنزع قشر برتقالة.

وضحك. كان يحدق فى وجهى ويضحك. للحظه خيل إلى أنه فقد عقله.

ـ ماالذى يضحكك؟

ـ لاشئ.

ـ صحيح.. ماالذى يضحكك؟

ـ أنا سعيد..

وجذبنى من يدى..

ـ تعالى..

جذبنى بشدة..

ـ أريد أن أقبلك..

ـ البرتقالة فى يدى..

ـ أتركيها..

ـ فمك به صفار بيض..

ـ أريد أن أقبلك..

قبلني وعيناه مفتوحتان، تحدقان في وجهي.. رأيت عينيه أربع عيون وضحكت وقلقت. شعرت أنه في حال غير عادي..

سالم رجلي. لم أعد أخافه. أظن أني لاأخافه. ترى أيتهمني بينه وبين نفسه بالجهل. لأنه مثقف، ولأنه قرأ كتبا كثيرة. سأحاول ألا أبدو جاهله أمامه. لن أتورط معه في مناقشة. لن أدعه يشعر بجهلي. هاهي مركب تغادر مرسى الفندق.

هذا منظر حزين.

كل شئ هادئ. لاشك أن أمي سعيدة. تخلصت مني. كانت أيام نكد. ماذا تفعل تلك الشقراء في شرفة الفندق. تتخلع في مشيتها. بلوزة صفراء، وبنطلون أسود. نحيفة.

زبائن الشرفة يتجاهلونها. لو مشت هكذا في شبرا لسارت وراءها مظاهرة. كان يسير ورائي أكثر من واحد. من هذا الشاب الذي يهجم على الشقراء يشدها من يدها، يهبطان إلى المرسى. يده تلتف حول خصرها. يضحكان، يهبطان السلم قفزا، يتمايلان. سقطت في أحضانه، على كتفه آلة تصوير. قفزت إلى المركب، إنها رشيقة. عروسان في شهر العسل. أجنبيان. خالي سعد يقول أن البنت الإفرنجية تسعد الرجل لأنها لاتخجل من عواطفها. تقبل الرجل وسط الطريق العام. بنت حظ. لاتعبس ولاتعرف النكد مثل أمك يازوزو.. المركب تنشر شراعها وتفارق المرسى.

إنه شئ حزين..

لو كنت صاحبة الأمر في هذه الحياة، لمنعت الفراق، والسفر، والبعد.

لاأريد البقاء هنا، ولاأريد العودة لأمى، ولاأريد أيام الكلية ولاأريد أن أتذكر خالى سعد.

لماذا خلقنا الله؟؟

قال لى سالم فى القطار، المهم هو أن تعرفى ماذا تريدين.. ولكنى لاأعرف ماذا أريد. هل من الضرورى أن يكون هناك ماأريده مالأتذلل من أجل الحصول عليه. ماأرهق نفسى من أجله. لا أريد شيئا. أتمنى لو لم يكن لى أب مات، وأم تعيش. وخال هجرنا ليضيع نقوده فى سباق الخيل، وأشقاء أكبر منى وأصغر منى. أتمنى لو كنت بلا بيت، ولا مدرسة ولا كلية. ولاشهادة أذاكر للحصول عليها. ولاشارع أسير فيه. ولاأتوبيس أركبه. ولا جو حار. ولا جو بارد. ولاسماء ولاأرض، ولاقطار. لا أريد شيئا من هذا. كان لابد أن أولد أميرة. الأميرة زوزو موزو أوزو، صاحبة الثروة التى لاتحصى ولا تعد. ألف فستان. مليون فستان. وطائرة خاصة أركبها إلى أى مكان. طائرة سريعة جدا. وكلما هبطت من الطائرة جاء أجمل شبان البلد، وركعوا تحت أقدامى. ونثروا الورود فى طريقى. وأنا أبتسم لهذا، وأغمز عينى لذاك، وأمد أطراف أصابعى ليلثمها فتى أشقر. وأتنهد فأصرع شابا وسيما وقورا. أريد أن أرقص فى الدنيا. الدنيا كلها لاتتسع لرقصى. وأبكى فى الدنيا. الدنيا كلها لاتتسع لدموعى. أرقص بلا سبب. وأبكى بلا سبب. وأعانق العالم وأضمه إلى صدرى.

لن يفهمنى سالم. ولاأنا أفهم نفسى. أيجب أن نفهم. سالم يتكلم دائما بالعقل. كان القطار مقبضا، وعربة النوم سجن أنيق، وسألنى سالم:

ـ أتعرفين ماذا تريدين؟

ـ أتعرف أنت؟

ـ نعم.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد أن أعرف ماذا حدث فى هذه الدنيا؟

ـ ومافائدة أن تعرف ماذا حدث؟

ـ لأعرف ماقد يحدث.

ـ ومافائدة أن نعرف ماقد يحدث؟

ـ هذا يساعدك على مواجهة الحياة.

مواجهة أمى فى ملابس الحداد. مواجهة البقال بابتسامة.

ـ إذا عرفت كل شئ.. هل تستطيع منع كارثة؟

ـ الله وحده يفعل هذا..

ـ إذا فلا فائدة من معرفة أى شئ..

حدق فى وجهى، كما كان يحدق فيه وهو يقبلنى منذ ساعة، وقال:

ـ عندما تقع الكارثة، فهناك ألف أسلوب لمواجهتها.. ومعرفة التاريخ تساعدنا على اختيار أفضل أسلوب.

لم يعجبنى كلامه، كدت أضحك. وقد خطر لى أنه يتكلم كما كان يلقى محاضرة فى الكلية. وبحثت عن أجابة ساخرة، لولا أنه أطلق من فمه كلمات أفزعتنى..

ـ زينب.. إنه مات.

صرخت:

ـ من الذى مات؟

قال بصوت مختنق بالإنفعال:

ـ لاتقاومى موته.

ـ من الذى مات؟

قال وعلى شفتيه ابتسامة باهتة بشعة:

ـ لاداعى لليأس من أجل موته.

حقا فزعت. إذن فهو يعرف، يعرف كل شئ، ولكن مستحيل لو كان يعرف لما تزوجنى، إن حياتى مع سالم تنهار فى هذه اللحظة تنقض انقضاضا، ودوى القطار يدمدم دمدمة، وابتسامته سوداء إسودادا.

ـ من الذى مات؟

لاأدرى كيف قلتها هذه المرة.. أصرخت، أهمست، كان شئ يرتجف فى صدرى ورموش عينى، ويرتجف فى أطراف أصابعى ويرتجف فى ساقى..

ـ والدك.

أكان يعنى حقا والدى.. أم أنه يتخابث، تنهدت، وقاومت شعورا بالسقوط فى هوه بلا قرار:

ـ والدى مات منذ سنوات.

لو كنت تتخابث ياسالم فسأكرهك، ليس من حقك أن تعاملنى بهذه القسوة، ليس من حقك أن تعلم ماأخفيه عنك. لاتنبش سرى.. لاتعرف كل شئ.. وإلاّ أصبحت غولا لايطاق.. سمعت سالم يقول:

ـ منذ مات. وأنت فى حالة عطش..

ـ عطش؟؟

ـ عطش للحب..

ـ من الذى مات؟؟

ـ والدك.. ألم تلاحظى أنك تكررين السؤال؟؟

ـ لأنه مات منذ سنوات..

ـ وأنت تتعمدين النسيان.

ـ نسيان أى شئ؟؟

ـ نسيان موته..

ـ من قال هذا؟؟

ـ فرويد..

أتعنى أبى حقا.. أم أنك تعرف.. لاتتخابث ياسالم.

ـ أتصدق علم النفس..؟

ـ أصدقه فى حالتك.

ـ وماهى حالتى؟؟

ـ فقدان للحب الأبوى.. انتهى بعطش إلى الحب.

ـ ربما..

ـ هذا هو مالاحظته عليك.

ـ وهل هذا عيب؟

ـ مرض.

ـ العطش للحب مرض؟

ـ لأني قد أحبك، ويحبك غيري، ويحبك ألف رجل، وتظلين عطشى للحب.

ـ هذا غير صحيح..

كدت أصفعه على وجهه، أو أصرخ وأمزق وجهي بأظافري. وأضرب رأسي في الجدار الخشبي لمقصورة النوم. دمدمة القطار عالية رتيبة. والإنقباض يتراكم في نفسي.

صارحني أيها الرجل. قل. أتعرف أم لاتعرف. نعم إنه مات. وليس والدي. بل حبيبي. كان طالبا معي في الكلية. تلميذاً لك مثلي. ومات. غرق في النيل. انقلب به قارب التجديف وابتلعته دوامة. هجرني ومات. تركني بلا حب ومات. نعم قد أحبك.. وأحب ألف ألف رجل غيرك. ولكنه ليس مثل حبي لمحمود صارحني. أتعرف أم لاتعرف. أتتخابث. أتمتحني يا حضرة الأستاذ الذي يعرف كل شئ.. سألته غاضبة:

ـ لماذا تقول لي هذا الكلام؟

ـ آسف.. لاأقصد مضايقتك.

ـ أنت تعرف أنه كلام غير صحيح.

ـ لامبرر لثورتك ياحبيبتي..

ـ حبيبتك وحبيبة ألف غيرك.. أهذا صحيح؟

ـ أنا لا أعني..

ـ أنت لاتعني شيئا.. كلامك فارغ..

ـ زينب...

ـ أنت تهينني.

ـ الكلام العلمي لايهين أحدا..

ـ أنت لاتعلم شيئا..

ـ الحدة في صوتك قد تؤيد كلامي..

ـ أمصمم أنت على تعذيبي؟؟

ـ لاياحبيبتي.. أنا أحبك..

ـ طلقني..

ـ أعتذر لك..

ـ مادمت لاتثق بي..

ـ ولكني أثق بك.

ـ وتقول أني أحب ألف رجل؟؟

ـ لابد أن نتكلم في هدوء.

ـ لاأريد أن أعيش معك..

ـ أنت لم تفهمني..

ـ لست غبية..

ـ اسمعي كلامي في هدوء.

وبكيت، بينما أستمر هو في الكلام:

ـ بدأنا المناقشة ياحبيبتي حول ماتريدين من الحياة، ولقد شعرت دائما من حديثك معي أنك لاتريدين شيئا من هذه الدنيا، لاتكترثين بمعرفة شئ، وسألت نفسي مرارا.. كيف يصل اليأس إلى قلب فتاة حلوة صغيرة مثلك. كيف يتسرب الملل من الحياة إلى قلبها. لماذا نسخر

من التاريخ وتقول ماأدرانى أن الفراعنة بنوا الأهرام. وهل كان هناك فراعنة.. وهذه القبور التى اكتشفوها ماأدرانى أنها منذ آلاف السنين.. لاحظت ياحبيبتى أنك تضيقين بالماضى.. تتحدينه.. وكان لابد أن أجد تفسيرا لموقفك هذا حتى أفهمك. وتذكرت أنك لاتتحدثين عن والدك أبدا. وعندئذ خطر لى أن الصدمة التى فاجأتك يوم مات والدك وأنت طفلة، مازالت تطاردك. الأب الذى يمثل الحنان. الأب الذى يمثل الإله بالنسبة للطفلة الصغيرة قد مات.. حبه مات.. ماذا يبقى إذن بعد موت الإله الذى يمنحنا كل شئ. تصبح الحياة بلا طعم.. كل شئ وأى شئ لافائدة منه.

أظن أن سالم كان يعنى مايقول. نظرية قرأها فى كتاب وصدقها. ظلمته. إنه لايعرف شيئا عن محمود.

عينا زينب تسعيان وراء الصخور السوداء، صخرة صخرة. كتل من الصخر الأسود فى مختلف الأحجام والأشكال. هائلة، ضخمة، ملتوية، غامضة، عاتية، صلبة، والنيل يتهادى حولها فى حزن عميق، حزن عريض، وهناك عند الشاطئ البعيد قمة بيضاء مهجورة فوق الجبل.

نعم أحببت محمود..

وجه محمود يطل من الصخرة السوداء. وجه محمود يطل من تيار الماء. وجه محمود يطل من شراع أبيض. محمود يقبع هناك عند القبة البعيدة. أنا ومحمود نهبط السلم متعانقين وآلة التصوير على كتفه. أرتدى بلوزة صفراء وبنطلونا أسود. وتقفز إلى المركب فى رشاقة، ويضحك محمود ويهمس فى أذنى:

ـ زوزو موزو أحبك..

ـ قلت لك لاتنادنى هكذا..

ـ لماذا يازوزو موزو.؟؟

ـ أخطأت يوم حكيت لك عن خالى..

ـ أحبك وأحب خالك يازوزو موزو..

ـ سيسمعك المراكبى..

فينادى المراكبى..

ـ اسمع ياعم.. لماذا لاتسمى هذه المركب زووز موزو؟؟

كان يفعلها المجنون..

لاأريد مالا، ولا طائرة.. ولكنى أريد. أريد. أريد تلك الشقة الصغيرة عند كوبرى عباس..

ـ ستموتين من الجوع لو تزوجتك يازينب..

ـ ولو.. لن أتركك أبدا..

ـ وماذا تأكلين؟؟

ـ إذا جعت.. نهضت فى الليل وأكلت أذنك..

ـ أذنى؟؟

ـ أو أنفك..

ـ أنفى؟؟

ـ أو لسانك..

ـ أنت آكلة لحوم البشر.

مات..

أكله الموت، يجب أن أكف عن هذا.. لو تماديت فسأبكى إلى الأبد. وأجن.

محمود مات، مات، يجب أن أتذكر دائما أنه مات. سالم على حق. إنه يفهم أشياء كثيرة، ولكنه لن يفهم. لن يفهم أبدا أن محمود هو الذى مات.

دخلت زينب الحجرة، وهى تتعمد إخفاء وجهها عن سالم.

كان يقرأ جرائد الصباح، وأسرعت هى إلى الحمام وأصلحت وجهها وعادت إليه، ووقفت خلف ظهره، كأنه رجل غريب.

رددت زينب لنفسها. هذا زوجى، هذا زوجى، لن أفقده، لن أضيعه، ومدت ذراعيها وطوقت عنقه، وقبلته فى شعره وهمست:

ـ ألم تفرغ بعد من جرائدك؟

أشار باصبعه إلى خبر صغير أحاطه بدائرة حمراء وقال:

ـ لاتنسى أن تقصى هذا الخبر وتحتفظى به فى الملف.

قرأت زينب السطور الأولى بسرعة، وسألت بغير اهتمام:

ـ مالذى يهمك من خروج هذا الإرهابى من السجن؟

ـ من يدرى.. ربما جاء الوقت الذى أكتب فيه عنهم..

ـ مامعنى إرهابى؟

ـ هه..

ولم تفلح زينب فى السؤال. كانت يدها قد امتدت إلى مجلة بجوار سالم. فتحتها. وقلبت صفحاتها بسرعة. حتى وجدت ماكانت تتوقع رؤيته، وظلت لحظة تحدق ببلاهة، حتى أفاقت من دهشتها وتبينت أنها تحدق فى صورتها.

وصاحت زينب مهللة:

ـ صورتى

٦

الحديث الصحفى

نشرت مجلة «صورة ورأى» حديثا طويلا مع سالم وزينب بمناسبة زواجهما، استغرق ثلاث صفحات، تحت عنوان:

زواج أحدث ضجة فى الجامعة

مؤرخ كبير يتزوج تلميذته

الأستاذ سالم عبيد يقول: تزوجتها لأنى رأيت تاريخ مصر فى وجهها.

وكان منشورا مع الحديث أربع صور إحداها لزينب وهى تصعد إلى عربة النوم فى قطار الصعيد مرتدية فستانا أبيض، تلتفت إلى الوراء وعلى وجهها ابتسامة مرحة، وفى يدها باقة ورد، وخلفها الأستاذ سالم يمد يده ليصعد خلفها، وتحت الصورة كتبت المجلة «العريس وتلميذته العروس يصعدان إلى عربة النوم فى قطار الصعيد، لبدء رحلة شهر العسل بين آثار الأقصر وأسوان، هذه أول مرة يسافر فيها المؤرخ الكبير سالم بك عبيد إلى مناطق الآثار، ليهتم بشئ آخر غير التاريخ..».

وصورة ثانية، لوجه زينب، مكتوب تحتها «طالبة الجامعة التى قال المؤرخ سالم عبيد أن وجهها خلطة تاريخية».

وصورة ثالثة للأستاذ سالم مرتديا روب الجامعة وهو يصافح الملك فاروق تحتها «جلالة الملك وهو يصافح مهنئا المؤرخ الكبير سالم بك عبيد، بعد أن فرغ من كتابة ثلاثة كتب عن تاريخ مصر الحديث.

وصورة رابعة، للأستاذ سالم، وهو شاب صغير. يرتدى القبعة وتظهر خلفه مسلة فرعونية، ومكتوب تحت الصورة «قضى سالم بك عبيد فترة من حياته فى باريس فى السوربون وهذه صورته عام ١٩٢٥ فى ميدان الكونكورد بباريس».

ثلاثة أيام وأنا أطارد الأستاذ سالم عبيد لأحصل منه على حديث بمناسبة زواجه من إحدى طالباته بالسنة الثالثة بكلية الآداب. الزواج الذى أحدث ضجة فى الأوساط الجامعية والتعليمية بمصر. ولكن المؤرخ الكبير رفض أن يتكلم.

ذهبت إليه فى الجامعة فاعتذر بأنه مشغول بمحاضراته، انتظرته بعد إنتهاء المحاضرات فهرب منى وهو يردد بعصبية.. هذه مسألة لاأريد أن أتكلم فيها. مالذى يهم الصحافة من أمر زواجى، أتركونى فى هدوء..

وكان من المستحيل أن أترك الأستاذ سالم فى هدوء، فالجميع يريدون معرفة قصة زواجه من إحدى طالباته بقسم التاريخ. إن الأستاذ سالم عبيد هو الذى عرف كيف يكتب تاريخ مصر الحديث بدقة وعمق، وقد أثارت مؤلفاته ضجة كبيرة، وكان كتابه الأول «السخرة

والكرباج، الذى نشره أثر عودته من باريس عام ١٩٢٧ سببا فى فصله من الجامعة، ثم عاد إليها عام ١٩٣٠ فى عهد حكومة الوفد.

وأصبح الأستاذ سالم فى السنوات الأخيرة مرجعا حيا لتاريخ بلدنا، وأنعم عليه جلالة الملك بأكثر من وسام، وكان المعروف عن الأستاذ سالم ميله الشديد للعزلة والهدوء. وقد بلغ الخامسة والأربعين دون أن يتزوج ولم يجرز أحد أن يسأله لماذا لم يتزوج، كان راهبا من رهبان العلم ولكنه تزوج فجأة من تلميذته الطالبة زينب سلامة التى انقطعت عن الحضور بالكلية منذ أسبوعين، وتساءلت زميلاتها عن سبب انقطاعها، حتى ذهبت إحداهن إلى بيت زينب فى شبرا.. وهناك عرفت أن زينب تزوجت فى هدوء وبدون إحتفال من أستاذها سالم عبيد.. وكانت المفاجأة الضخمة التى هزت أركان كلية الآداب. وزلزلت الوسط الجامعى.. وكان لابد أن ألجأ إلى العروس لأعرف منها القصة. فذهبت إلى بيتها الجديد فى منيل الروضة، شقة صغيرة تطل على الحقول والنيل بالدور الثانى فى بيت صغير.. طرقت الباب عدة مرات.. قبل أن أسمع صوتا قلقا يسأل من الطارق. عرفت أنه صوت العروس. سألتنى:

ـ من تريدين؟

ـ أريد مقابلتك..

وفتحت الباب..

دخلت شقة صغيرة أثاثها قديم.. إنها نفس شقة الأستاذ سالم، وهو عازب. أول ظاهرة لفتتت نظرى هى الكتب المكدسة فى كل مكان،

كتب فى أرفف على الجدران، وكتب فى البهو فوق الكراسى وكتب مرصوصة على الأرض، وصناديق خشبية داخلها كتب ووسط هذا الأثاث القديم والكتب الكثيرة، وقفت زينب طالبة الأمس، والدهشة مازالت مرتسمة على وجهها، كانت ترتدى فستانا أزرق جديدا، وتسريحة جديدة، وزينتها تدل على أنها عروس، والعطر الباريسى يفوح من جسدها بقوة.

قدمت لها نفسى..

ـ أنا كوكب حمدى صحفية بمجلة «صورة ورأى»

ـ أهلا وسهلا..

وهنأتها بالزواج. وصارحتها برغبتى فى الحديث معها..

ضحكت قائلة:

ـ ماذا تريدين منى أن أقول؟؟

ـ خبر زواجك أثار ضجة كبيرة.. والأستاذ سالم رجل غير عادى ومؤلف مشهور، وله تاريخ كبير فى السياسة والقراء مهتمون بمعرفة أخبار هذا الزواج..

بدا عليها الإرتباك.. وقالت مترددة:

ـ أظن سالم لايوافق على نشر أى شئ..

ـ لماذا.. أليس الأفضل أن نسمع القصة منك ولانضطر لسؤال زميلاتك فى الكلية وربما سمعنا كلاما مشوشا.

واعترفت آسفة أنى هددتها قائلة بلهجة مؤدبة جدا:

ـ إذا لم تتكلمى فسأكتب القصة كما أسمعها وأمرى لله..

قالت بسرعة:

ـ الحكاية بسيطة.. سالم طلب الزواج منى.. وأنا وافقت..

ـ ولكنى أريد أن أعرف مقدمات الزواج..

ـ أبدا.. الزواج تم من غير مقدمات.

ـ غير معقول..

ـ أنا كنت طالبة فى السنة الثالثة قسم التاريخ، وكان سالم يحاضرنا فى تاريخ مصر الحديث، وكنت أجلس فى الصف الثالث أو الرابع فى قاعة المحاضرات ولم يخطر ببالى أنه يلاحظنى أو يعرفنى.

ـ كيف عرفك إذن؟

ضحكت زينب وقالت:

ـ شكلى هو السبب.. قال لى سالم فيما بعد أن ملامحى خلطة تاريخية.. وضحكنا معا..

وسألتها وأنا أشعر أنها بنت طيبة وقد بدأت تكلمنى كصديقة أعرفها من زمن بعيد..

ـ فسرى لى حكاية الخلطة التاريخية..

ـ شوفى.. سالم يقول أن وجهى رومانى على فرعونى على عربى.. وكان يتذكر أحيانا وجهى بعد المحاضرة بغير ما سبب، ثم بدأ يتنبه إلى ويتفحص ملامح وجهى ولاحظ أن وجهى يذكره بأيام الفراعنة، وغزو الرومان، ودخول العرب مصر..

سألتها مازحة:

ـ ألم يتذكر فى وجهك دخول الفرنسيين والإنجليز مصر؟

قالت زينب:

ـ لا.. الأتراك فقط..

وضحكنا من قلبنا..

سألتها فى فضول:

ـ ألم يحدد لك أثر التاريخ فى ملامح وجهك؟

ـ نعم.. أنفى رومانى.. عيناى شركسيتان.. شفتاى فرعونيتان.. شعرى عربى..

قلت لها:

ـ بصراحة هذا غزل «أروجينال»

أجابت ببساطة:

ـ عند سالم.. هذا تاريخ..

ـ هل أستطيع أن أكتب أن هذا زواج حب..

ـ طبعا.. أنا أحبه..

ـ ولكنك كنت تعرفينه قبل الزواج ولاتفكرين فى الزواج به.

ـ كان من الصعب على أن أتخيل أنى سأصبح زوجة رجل مشهور مثل سالم..

ـ هل كنت تحبين محاضراته؟

ـ طبعا..

ـ لماذا؟؟

ـ كانت لذيذة..؟؟

ـ متى صارحك برغبته فى الزواج؟

ـ منذ شهر.. كان يوم مظاهرات فى الكلية وكنت قد ذهبت لأحضر المحاضرة فلم أجد غير البنات أما الأولاد فكانوا قد خرجوا فى المظاهرة ويومها تكلم الأستاذ.. أقصد سالم عن فردناند دى لسبس.

والتقطت عثرة لسانها وسألتها:

ـ أما زلت تنادينه ياأستاذ؟

ـ لا طبعا.

ولاحظت أن سؤالى يضايقها. فغيرت موضوع الحديث وسألتها:

ـ واستمعت إلى المحاضرة عن فرديناند دى لسبس؟

ـ كأنى أستمع إلى قصة بوليسية مثيرة..

ـ أتحبين القصص البوليسية؟

ـ أحيانا..

ـ أرسين لوبين؟؟

ـ لا.. لاأحب روايات الضرب.. أحب روايات الجريمة الغامضة.. روايات الجريمة الكاملة.. التى يرتكبها المجرم ولا يستطيع أحد أن يكتشف سره.. مثل روايات أجاثا كريستى..

ـ أتجيدين الطهو؟؟

ـ طبعا.. أنا أصنع كل شئ بنفسى.. أنظرى.. ليس عندنا خادم..

ـ لماذا؟؟

ـ لاأحب أن يتركنى سالم فى البيت مع خادم..

ـ هذا رأيك.. أم رأى الأستاذ سالم؟؟

ـ رأينا نحن الاثنين..

ـ والخادمة؟

ـ مازلنا نبحث عن واحدة.. سيحضرها سالم من البلد.. وقامت العروس، طالبة الأمس، وتحرك معها عطرها الباريسى لتصنع لى فنجان قهوة، فاستأذنتها فى دخول المطبخ معها، ووقفنا أمام نار «البريموس» واعترف أن قهوتها كانت ممتازة.

ـ من الذى علمك صنع القهوة؟

ـ ماما..

ـ حدثينى عن أسرتك..

قالت وكأنها تعتذر:

ـ بابا مات وأنا فى الثانوى.. كان محاميا.. ومن يومها ارتدت ماما ملابس الحداد ولم تخلعها حتى الآن.

ـ حتى بعد زواجك؟

ـ اعتادت عليها..

ـ لك أخوات؟

ـ أربعة أولاد..

ثم قالت بفخار:

ـ وأنا البنت الوحيدة..

ـ أنت أكبرهم؟

ـ لا.. أنا الثانية بعد مصطفى وبعدى كمال وهشام وصلاح.

وعرفت أن أخاها الأكبر مصطفى، وكيل نيابة فى دمنهور أما كمال فهو طالب فى الزراعة. وهشام وصلاح فى الثانوى..

ـ طبعا كانوا يدللونك لأنك البنت الوحيدة.

أجابت وسعادة حقيقية على وجهها:

ـ جدا.. بالذات بابا يحبنى جدا.

ـ وماما؟؟

ـ كانت تحبنى ولكنها تحب مصطفى أكثر..

ـ ولمن تقدم الأستاذ سالم لخطبتك؟

ـ تقدم لى أنا.. ثم ذهب لمقابلة خالى فى وزارة التجارة.. جاء خالى وقال لأمى..

ـ وماذا كان رأيهم؟

ـ كانوا موافقين.. لأنى موافقة.

ـ مارأيك فى الأستاذ سالم كأستاذ ومؤلف؟

ـ أحسن مؤلف فى العالم..

تعمدت أن أطيل الحديث.. حتى يحين موعد عودة الأستاذ سالم إلى البيت.. وحوالى الساعة الواحدة سمعت حركة عند الباب. ومفتاحا يدور.. ودخل الاستاذ سالم. كان يحمل برتقالا فى كيس ورق ومعه لفافة صغيرة قرأت عليها اسم صيدلية.. فعلمت أنها أدوية..

وماكاد الاستاذ سالم يرانى، حتى ضحك فى عصبية، وسأل عروسه فى لهفة:

ـ ماذا قلت لها؟

ـ كنا نثرثر..

قال بعصبية لم تفلح ابتسامته فى أخفائها:

ـ أنا لاأريد نشر شئ عن حياتى الخاصة.. قلت لك أريد أن أعيش فى هدوء، وأظن أن من حقى هذا..

ولكنى دافعت عن حقى كصحفية.. فقلت له:

ـ حياتك ليست ملكا لك ياأستاذ سالم، أنت رجل مشهور.. وكل الناس تريد معرفة قصة زواجك..

قال فى تردد:

ـ لاأظن أن أحدا يهتم بهذا..

ـ بالعكس.. ولو تكلمت بصراحة لقلت لك أن زواجك آثار ضجة كبيرة جدا..

ونظر الأستاذ سالم إلى زوجته فرآها تبتسم، فجلس مستسلما وصمم على أن نعيد على مسامعه كل كلمة تبادلناها فى غيابه، وعندما ذكرت له ماقالته عروسه عن «الخلطة التاريخية» هز رأسه مبتسما وقال:

ـ هذا صحيح..

وعندما سمع أنها قالت أنه أحسن مؤرخ فى العالم ضحك فى سعادة كبيرة، ورأيت المؤرخ العالم الكبير يضحك فى براءة الطفل، كان سعيدا حقا..

ودعانى الأستاذ سالم للغذاء مع عروسه، وطبعا قبلت الدعوة وتركتنا العروس لتعد الطعام فى المطبخ وجلست مع المؤرخ الكبير وحدى وسألته:

ـ هل تذكر محاضرة فردناند دى لسبس

فأطرق برأسه يفكر ثم سألنى:

ـ أية محاضرة؟

ـ المحاضرة التى ألقيتها يوم طلبت من عروسك الزواج؟

وفوجئت بأن المؤرخ الكبير لايذكر شيئا عن هذه المحاضرة.. ربما لايذكر عن ذلك اليوم الا انتظاره بفروغ صبر أن تفرغ المحاضرة ليكلم الطالبة زينب سلامة ويطلب يدها..

سمعت الأستاذ سالم يردد فى دهشة حقيقية:

ـ أنا لم أحاضر أبدا عن فردناند دى لسبس..

٧

كذب الاستاذ سالم عبيد بلا تردد، وهو ينكر أمام الصحفية أنه ألقى محاضرة عن فردناند دى لسبس، وظنت الصحفية أن المؤرخ الكبير كان مشغولا بزوجته المقبلة زينب سلامة، فنسى كل شئ عن المحاضرة، ولكن الصحفية ذكرت بعض الحقيقة، ولم تذكر الحقيقة كلها، فالأستاذ سالم كان مشغولا بزينب ولكنه يذكر عن يقين المحاضرة التى ألقاها عن فردناند دى لسبس، يذكرها كلمة كلمة، كانت محاضرته رسالة موجهة إلى زينب، في لحظة أراد أن يبدو فيها كبطل يتحدى الخطر فى سبيل إعلان مايعتقد أنه الحق.

استمع إلى المحاضرة سبع طالبات، بينهن زينب، وتردد سالم أول الأمر خشية أن يدخل قاعة المحاضرات أحد. ولولا أن هذا الإحتمال كان بعيدا لما ألقى محاضرته، كان واثقا أن الطلبة مشغولون بمظاهراتهم، وأن العيون والجواسيس مشغولون بما يجرى خارج قاعة المحاضرات، إذن فالمخاطرة هينة، البنات لن يثرثرن بما قال، إنهن مشغولات بالحب. ولا يتحدثن عما قاله أستاذ التاريخ.

ليست زينب هى السبب الوحيد الذى من أجله ألقيت محاضرتى أنا لست عبدا لزينب ولن أسمح لعقلى وتجاربى وعمرى بأن ينهار أمام زينب، هذا جنون، لن أكون العجوز الذى يفقد عقله أمام صبية جميلة، هوى الشيوخ ليس نهايتى، هذه المظاهرات التى تجتاح البلد تهز أعماقى، الأولاد يهتفون فى الشوارع، والجنود على رؤوسهم الخوذات. وفى أيديهم العصى الغليظة والدروع، يتقون بها قذائف الحجارة والطوب، وضميرى يسألنى.. ماذا أنت فاعل ياسالم.. أتمضى فى الحصول على الأوسمة والنياشين، أم تكتب كتابا آخر يصادرونه ويجردونك من الألقاب ويلقون بك فى السجن. كان لابد أن أتكلم، أرفع صوتى، أقول بعض ماأعرف، لست أقل حماسا وحيوية من الشباب، لو عرفوا ماأعرف لأطلقوا الرصاص لا الحجارة والطوب، لسالت الدماء، لانفجر البركان، أيامى لم تذهب بعد، لى من الجرأة بقية، وتكلمت. ألقيت محاضرتى.. نعم ألقيتها.. ولكن أمام سبع بنات..

أنا أخدع نفسى، يصعب على أن أحدد مشاعرى، لو كنت ألقيت محاضرتى فى ميدان عام، لأصبحت بطلا، بطلا حقيقيا، ولو انتهى الأمر بى إلى السجن، ولكنى تكلمت أمام الطالبة زينب سلامة، البنت التى أريد أن أتزوجها، نهاية مؤسفة لشجاعة مؤرخ.

سألته زينب بعد أن قرأت الحديث الصحفى..

ـ كيف لم تذكر محاضرة دى لسبس؟

ـ صدقت هذه البنت الصحفية.. كنت مشغولا بك..

ـ أنا لاأصدق أنك تنساها..

ـ لماذا

ـ كانت لذيذة..

أهذا كل مابقى من جرأتى كل مابقى من شجاعتى، ألم تنتبهى إلى الخطر الذى تعرضت له من أجلك؟؟

سألها سالم بصوت قلق:

ـ لذيذة فقط، على أى حال أنا لاأذكر أنى ألقيت محاضرات لذيذة..

قالت زينب بزهو كبير:

ـ كنت تفكر فىّ إذن..

ـ نعم أنت السبب..

صدقى هذه الأكذوبة يازينب، إقبلى هذه الرشوة، صدقى أنى أنسى علمى كله من أجلك، دعى الغرور يملؤك، ويفيض بك ويصعب تفكيرك فلا تكتشفى محاولتى الساذجة لأكون بطلا أمامك.

ماأكثر محاولاتى الساذجة..

كانت ساعة عصر، والأستاذ سالم خارجا من الجامعة. مهرولا بحذاء سور حديقة الأورمان. خطواته عصبية، يشعر بجوع حاد، وتعب يسرى فى مفاصله، يوم آخر من أيام الملل والتعب، وفى منتصف الطريق قرر الاستاذ سالم أن يركب سيارة تحمله إلى بيته، رفع بصره باحثا عن سيارة أجرة كان الطريق خاليا، مهجورا، غارقا فى الشمس والصمت، وهناك على بعد عشرات الأمتار، طالبة وطالب يتسكعان، الطالب يحمل فى يده كيسا فيه برتقال أو يوسفى، يأكلان، ويمشيان

بخطوات متعثرة أو مترنحة، نشوة الحب تفوح من خطواتهما، وتقدم نحوهما الأستاذ سالم وهما لايتنبهان إليه.

فاتني هذا الحب زمن الشباب. شغلت نفسي بالمذاكرة وبالأخلاق الحسنة. سالم الشاطر. سالم المؤدب. سالم ذو المستقبل الباهر. ضاع الشباب، البنت تبتسم للولد، والولد يبتسم للبنت، لايهمهما من محاضرات الجامعة شئ.

أمسكت الفتاة بفص برتقالة ووضعته فى فم الولد، شعر سالم بمذاق البرتقالة في فمه، ولثم يد الفتاة، يدها ناعمة طرية حنونة، هذه اليد تلمس جلد وجهي الخشن، هذه اليد حول رقبتي.. هذه اليد فى صدرى، كل ماأعرفه ثمنا لهذه اليد، أريد أن أحصل على هذه الفتاة، هذه الفتاة بالذات، صاحبة هذه اليد بالذات، الفتاة التى تمد يدها إلى فم عاشقها.

ونلف العاشقان من باب الحديقة، وهما لايدريان بأحد حولهما فى الوجود، ولمح سالم وجهيهما، هذه البنت تلميذتى.. وهذا الولد تلميذى.. أذكر وجهيهما. انتهت محاضراتهما منذ ساعة، وذهبت أنا إلى المكتبة، وهما يتسكعان يتناجيان، ليس فى أيديهما كتب ولامذكرات، الحب يملأ حياتهما، لو رسبا فى الامتحان فسيبكيان معا، ويتبادلان القبلات، رسوب لذيذ، آه من حياة الشباب...

وصل سالم إلى باب الحديقة، فنظر باحثا عنهما، لم ير إلا الأشجار والممرات، اختفيا، يضحكان، ذهبت اليد الحلوة، هربا منى..

وتردد سالم فى الدخول، تردد لحظة، ثم مضى فى طريقه.. لأمر ما، كانت تلك اللحظة من اللحظات الغريبة التى تمر بالإنسان فتبقى

معه بأحاسيسها وأفكارها، لزمن طويل لايستطيع الخلاص منها أو نسيانها.

وصل سالم إلى البيت، وأكل، ورقد فى سريره، وقال لنفسه وهو يغفو، يجب أن أراقب انفعالاتى، إن أفكارا طائشة تمر بخاطرى، ماالذى جعلنى أفكر على هذا النحو الغريب، وأتمنى الحصول على فتاة هى تلميذتى لمجرد حركة عابرة بدرت من يدها، حياتى عاقلة، ولابد أن تستمر حياة عاقلة.

أف.. هذه الحياة العاقلة ليس لها طعم.. حاجز يقف بينى وبين المتعة الخالصة.. أف، لاشئ يملأ العين أو يسر القلب، لم تتملكنى طوال حياتى عاطفة جامحة، لم تستبد بى نزوة، ليس بينى وبين الحياة الشهية عمار، أهى السن؟ اقتربت من الخمسين ولم يعد لى حق التمتع بشئ، ولكن السن ليست هى السبب، حياتى كلها مضت على هذا النحو، حتى معرفتى بالتاريخ لم تعوضنى، زادتنى تعاسة، منذ متى وأنا أردد لنفسى متى ينصلح الحال، كمن يقف على شاطئ بحر هائج ينتظر هدوء العاصفة ليهبط إلى البحر، والعاصفة لاتهدأ ابدا، متى ينصلح الحال، أرددها منذ صباى، أهمس بها لنفسى بمناسبة أو غير مناسبة، أقولها حتى ولو كنت راضيا، أقرأ صفحات التاريخ وأدرس الأمجاد الماضية، ومتى ينصلح الحال، أسافر إلى أوروبا، ومتى ينصلح الحال، أعيش حياة عزلة، ومتى ينصلح الحال. كأنى على يقين أنه لن ينصلح أبدا..

بدأ الأستاذ سالم يتنبه إلى وجه الطالبة العاشقة أثناء المحاضرات تجلس مستريحة واثقة مطمئنة، بسمة خفية فى عينيها، مرح أهوج فى

شعرها، تخفى يديها، والولد يجلس خلفها كحارس، تربص به الأستاذ سالم، حتى رآه يبتسم ذات مرة.

فصرخ:

ـ قف.. أنت.. نعم فى الصف الرابع..

وقف الولد..

ـ ماسمك؟

ـ محمود حنفى عبد العال..

ـ مالذى يضحك؟

ـ آسف...

كانت على لسانه كلمات الطرد، ولكنه تخيل الطالبة بعد المحاضرة وهى تواسيه وتلعن الأستاذ السخيف الذى طرده، واستولت عليه عاطفة أبوية.

ـ اجلس..

وجلس محمود، وأراد سالم أن يتابع المحاضرة، ولكن عاطفته الأبوية اشتدت فسأل محمود:

ـ هل أنت من الأوائل؟

ـ للأسف.. لا..

ـ أرجو أن تكون من الأوائل هذا العام.

كلام لامعنى له خرج من فم سالم..

وصاح صوت:

ـ محمود بطل التجديف فى الكلية.

بطل، بطل تجديف، عاشق، شباب، عضلات، حياة كاملة محرمة على رجل مثلى، كانت صور كالأشباح تنتفض فى رأس سالم، طردها، واستمر فى إلقاء محاضرته وهو يختلس النظر بين لحظة وأخرى إلى وجه الفتاة العاشقة، كانت عابسة..

لم ينس سالم هذا الوجه أبدا. كان أحيانا يجلس مع صديقين أو ثلاثة فى ذلك المقهى الهادئ بالجيزة، ويتورط فى حديث لا يدرى كيف بدأه، حديث مشوش يهاجم الفوضى وعدم التفات الطلبة للمحاضرات، ثم دفاع عصبى عن الإختلاط فى الجامعة، غدا ينصلح الحال، ويفهم الأولاد مسئولية العلم ورسالة الجامعة، وعندما يتكلم سالم عن الأمل فى المستقبل ينقبض صدره، ولكنه يستمر فى الكلام، ويعود إلى بيته آخر الليل ووجه زينب لايفارقه، طبعا أنا لاأحب هذه الفتاة، ولا صلة بينى وبينها، أظن أن كل ما يربطنى بها هو ذلك السر الذى عرفته عن حياتها الخاصة، كان مشهدا رائعا، لم أر مثيلا له حتى فى باريس، حنان مصرى وحب مصرى، كانت تطعمه بيدها، كانت الأنثى، الأم.. لوحة فنية، نعم المشهد هو الذى يأسرنى، ولاشئ أكثر من هذا..

صباح أحد أيام أغسطس عام ١٩٥١ قرأ الأستاذ سالم فى صحيفة الوفيات نعى محمود حنفى عبد العال، كان جالسا فى سريره فى حجره ببنسيون فى محطة الرمل، نهض مفزوعا، وارتدى ملابسه بسرعة وجرى إلى الشارع وسار شوطا طويلا فى طريق الكورنيش قبل أن ينتبه إلى البحر والنهار والناس والسيارات من حوله. وجلس فى مقهى، وندم لأنه لم يحضر الجريدة معه، واشتراها من أول بائع للجرائد مر به، وقرأ

النعى من جديد، مات العاشق ذو العضلات، مات بطل التجديف، الحمد لله، لم أطرده ذلك اليوم، كنت عطوفا عليه، وتمنيت له النجاح، ونجح ،ونجحت هى، الحمد لله، ليس بينى وبينها ما يثير الأحقاد تحطمت، مات الحب فى قلبها، أصبح لها تاريخ، وأنا أعرف هذا التاريخ، قوة مجهولة تقف إلى جانبى، أردت الحصول عليها وأنا أعلم أنى أتمنى المستحيل، وها أنذا أجد الطريق اليها مفتوحا، لا يهم فارق السن، إنها الآن يائسة، تبحث عن مأوى، تبحث عن أب عطوف، انتهى أملها، لن تتمنى خيرا منى، هذه أسعد وأفضل فرصة للزواج، لن أتردد، لم يكن موت هذا الولد عبثا، الأقدار تتدخل، القوى المجهولة تتحرك لمساعدتى، عندما رأيتها أول مرة. كنت كمن يشاهد المستقبل. ظننت أنها فكرة طائشة. لا أنها حدس. صفاء بصيرة. سأدبر خططى. سأتزوجها ..

دخل الأستاذ سالم قاعة المحاضرات، وهو لا يتوقع رؤية أحد . فالمظاهرات محتدمة خارج الكلية، ورأى البنات السبع، ورأى زينب بينهن ..

إسمعن يابنات .. أنا لا أستطيع أن أتجاهل المظاهرات خاصة أنها مرتبطة بقنال السويس ، سأتكلم معكن اليوم عن تاريخ هذه المظاهرات..

كيف نطق لسانى بهذه الكلمات ، كيف تورطت، لا أدرى، ولكنى رأيت زينب. وقررت أن أفاتحها بعد إنتهاء المحاضرة.

كانت زينب خارجة مع زميلاتها. بعد إنتهاء المحاضرة والأستاذ سالم يجمع أوراقه ويضعها فى حقيبته، ووصلت زينب إلى الباب، وسمعت صوت سالم ..

– يا آنسة زينب ..

والتفت زينب . والتفتت زميلاتها .

– تفضلى ..

وتقدمت زينب نحوه . تتبعها زميلاتها ..

صاح سالم :

- تفضلن .. لا أريد غير زينب.

كان يملك شجاعة خرافية ..

– أريد أن أتكلم معك فى موضوع دقيق ..

وجهها يضطرب، خائفة، سأتكلم وكأنى صاحب الأمر والنهى،إنها لا تعرف أن الأقدار فى صفى، وأن زواجنا محتم .. بعد لحظات ستحنى رأسها فى خجل، معلنة رضاءها ..

– أنا أعلم عنك كل شئ .. ولم أسمع عنك إلا كل شئ طيب .. للأسف لا يوجد مقعد هنا .. سأقف أنا ..

– تفضل حضرتك ..

ـ لا .. سأقف .. كما تقضى الأصول ..

– العفو

اسمعى يا زينب .. لا تندهشى .. ما أقوله لك الآن سر ..

أرجو ألا يعرفه أحد .. حتى تبلغيه لوالدتك ..

الدهشة تختلط بالإضطراب، وجهها أصفر ، شاحب، جميل..

ـ إسمعى .. أنصتى إلى جيدا .. أريد أن أسالك أولا .. ما رأيك فيّ..

– رأيى .. ؟؟

– نعم رأيك ..

– أنت أستاذى ..

تكلمى بصراحة ..

– أنت أستاذ عظيم .. من أنا حتى أقول رأيى ؟؟

– إسمعى .. لقد فكرت طويلا قبل أن أكلمك .. وسألت عنك ..

فى عينيها لمعة غريبة .. أفهمت ؟؟ أحست بغريزة الأنثى ؟ .. يجب أن أسرع بالكلام ..

– إسمعى .. أنا أطلب الزواج منك ..

غامت عيناها ، ولكنها مازالت واقفة ثابتة ، يجب أن أسرع بالكلام.

– لا تقولى شيئا الآن .. فكرى .. وخذى رأى والدتك .. ورأى إخوتك .. خذى رأى مصطفى بك شقيقك وكيل النيابة .

ابتسامة غريبة تتلصص على شفتيها .. أتهزأ بى .. أهى راضية..

- هه .. مارأيك ؟؟

- أنا .. ؟؟

وأطرقت زينب برأسها ..

- من الذى أكلمه .. هل أتصل بمصطفى بك .. ؟؟

همست زينب بسرعة ..

- خالى ..

- سعد بك عبد الفتاح بوزارة التجارة ؟؟

- نعم ..

- سأتصل به غدا .. لا .. سأتصل به الآن ..

تلك الليلة .. قال سالم لنفسه .. إذن فأخيرا سوف ينصلح الحال .. وكان قد إطمأن إلى موافقة خالها الذى أضاء وجهه بالفرح، وهو يرى المؤرخ العظيم يطلب يد زوزو موزو..

ولكن إطمئنان سالم .. كان يشوبه انقباض ، كلما تفاءلت انقبضت نفسى .. هل أصدق خرافة الأقدار ؟؟ أتكون زينب سعيدة معى، لن أنسى مشهدها مع محمود، أتحبنى كما أحبت محمود .. تمشى بخطوات مترنحة بنشوة الحب. سيكون منظرى مثيرا للسخرية. كيف أبهجها .

أملأ حياتها بالحب. إنى أستغل حطامها. هذا تصرف لا يقدم عليه رجل ذو أخلاق . لعن الله هذا التردد . فات أوانه . سأمضى فى خطتى. كأنى نصاب كبير. أهذا الذى أقدم عليه غش. لا أدرى. يقولون عنى أنى مؤرخ كبير . أين أنا من المؤرخين الكبار . هنا فى مصر من السهل أن تكون كبيرا بالغش. زوجا سعيدا بالغش. كل شئ ملوث بمذاق غير حقيقى. أتزوج جثة عاشقة. جسدا محنطا. لا أستطيع التمادى فى هذا التفكير. سيقتلنى، سأقبل مصيرى. وأتحمل مشاعرى المبلبلة. وأتقبل القناع الذى أرتديه، الأستاذ الذى تفرح به تلميذته كزوج لها. والمؤرخ الكبير الذى تفرح به أمته .

* * *

كان الأستاذ سالم يناقش رسالة دكتوراه تقدم بها أحد تلاميذه وحدث أن قال صاحب الرسالة أثناء المناقشة:

– إن النظرية التى أعرضها..

فقاطعه الأستاذ سالم غاضبا بلهجة أشاعت الهلع فى قلوب الحاضرين.

– ما هذا الكلام عن النظريات يا أستاذ . أتعرف أن دراسة التاريخ تحتاج إلى صحة البدن، أكثر مما تحتاج إلى إجهاد الفكر فى الجرى وراء نظريات ..

ووجم صاحب الرسالة ..

ومضى سالم عبيد يقول فى حدة غير طبيعية ..

– لو كنت تعلم هذه الحقيقة، لعلمت أنك أضعت الوقت فى كتابة مثل هذا الكلام، كان الأجدر بك أن تزور عشرات المتاحف، وتقوم بسياحات طويلة بين الهند واليونان وإيطاليا والمكسيك، وتسجل حقائق ولا تخترع نظريات. التاريخ ليس عبقرية. إنه تدريب .. وأماكن نائية تزورها، وصور وتماثيل تشاهدها، ومقابر وحفريات تعيش داخلها. التاريخ ليس أفكارا تقال. إنه نبش قبور. نبش أسرار، تشريح جثث موتى، تفاصيل. تفاصيل . تفاصيل..

وسرت همهمة ودهشة وأعجاب بين الحاضرين. وارتبك صاحب الرسالة، وكان سالم عبيد ينظر إلى الرؤوس المتراصة فى القاعة الكبيرة، ويقول لنفسه .. هؤلاء الحمقى يصدقون كل كلمة أقولها. حتى هذا الغبى الذى يقف كالأبله ليناقشنى. أنا وحدى الذى يعلم كم نحن عاجزون عن التفكير عاجزون عن خلق النظريات..

* * *

ذات ليلة شتاء فى باريس عام ١٩٢٧ كان الطالب سالم عبيد يزور أستاذه فى السوربون (مسيو جاستون لافارج). رجل عجوز ساحر. له زوجة فى مثل سنه.. وله عشيقة أسبانية فى التاسعة عشرة.. تتردد على بيته على مرأى ومسمع من زوجته..

كانت كونشيتا خارجة لتوها من الحمام لا يستر جسدها العارى سوى (برنس) وشعرها الأسود الطويل. مبلل. يتدلى على كتفيها، وقالت بصوت دافئ شجى:

- أتسمحون لى بالجلوس بجوار المدفأة..

جلست كقطعة أليفة. ومضى مسيو لافارج فى حديثه الساخر..

- إن محاولاتك لدراسة تاريخ مصر الحديث لا تجدى..

- لماذا؟؟

- لأنك مصرى..

- ولكن هذا يجعلنى أقرب الناس لفهم بلدى..

صاح مسيو لافارج..

- الفهم يا عزيزى ممنوع عليك..

- كيف؟

اشار لافارج الى الأسبانية قائلا:

- كونشيتا تستطيع أن تقول رأيها فى بلدك بصراحة.. ولكن أنت لا تستطيع.

- أستطيع..

- أنظر فى كتب تاريخ مصر الحديث، من أهم أصحابها.. فرنسيون، إنجليز، هولانديون، أمريكيون. هؤلاء لم يمنعهم أحد من الفهم..

- ولكنهم فهموا تاريخ بلدى من ناحية مصلحة بلادهم..

- وهل تستطيع أنت أن تفهم من ناحية مصلحة بلدك؟؟

- لا أفهم ماذا تعنى يا سيدى..

كانت إبتسامة لافارج ساحرة وهو يقول:

- هذا هو ما أعنيه بالضبط..

وحدق لافارج فى وجه سالم وسأله ببطء..

- أتستطيع أن تقول أن الذى يحكم بلدك، أسرة مالكة، أنشأها لص ملاعق، وشوك، وسكاكين، وكانت ممتلكات فرنسية، من الفضة الخالصةيا عزيزى.. هل تستطيع أن تواجه هذه الحقيقة وتفهم ظروف بلدك على ضوئها؟؟

- نعم استطيع.

صاح مسيو لافاج ضاحكا:

- وتدخل السجن.. إن بلدك فى حاجة الى مفكر كبير يدخل السجن .. وهل لى شرف التحدث الى هذا الرجل..

- ربما..

- مستحيل.. النظريات التاريخية تقول مستحيل..إن بلدك أضعف من أن يتحمل الحقيقة.. إن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تدرس تفاصيل الأحداث، ثم تقف فى قاعة المحاضرات بجامعة القاهرة لتختار التفاصيل المناسبة اللائقة وتسردها أمام الطلبة.. لا شئ أكثر من هذا يا عزيزى.. أو السجن.. نصف الحقيقة وتحيا.. كل الحقيقة والمقصلة يا عزيزى..

بعد هذه المناقشة بأيام، جلس سالم بحجرته بسان ميشيل يكتب بيد ثابتة..

كان محمد على باشا صديقا لماتيو ديلسبس قنصل فرنسا الذى أرسلته الى القاهرة بعد معاهدة اميان عام ١٨٠٢ وكان محمد على فى ذلك الوقت ضابطا نكره فى الجيش التركى وصادف أن دعاه ماتيو ديلسبس الى مأدبة عشاء أقامها بالقنصلية الفرنسية، وبعد إنتهاء المأدبة، اكتشف الخدم سرقة الملاعق والشوك والسكاكين الفضية.. وأبلغوا ماتيو بالسرقة، وكان جالسا مع ضيوفه يتسامرون، وتصرف ماتيو بعقلية فرنسية أصيلة، فأجرى تحقيقا بين الخدم، وفتشهم تفتيشا دقيقا فلم يعثر على المسروقات، وفى لحظة انفعال أعلن ماتيو ديلسبس أمام المدعوين، أن السرقة قد وقعت، وصمم المدعوون على أن يستمر ماتيو فى التحقيق ويتولى تفتيشهم. كان يقف بين المدعوين الألبانى الضابط النكرة بالجيش التركى، والعيون تحاصره، تحاصر سراويله الضخمة الفضفاضة التى يستطيع أن يخفى داخلها المسروقات بسهولة، كان الضابط الألبانى محتقن الوجه، مرتبكا، وكان هو الوحيد الذى رفع صوته محتجا على التفتيش، وبلباقة فرنسية، انحنى ماتيو ديلسبس أمام اللص الألبانى، وقال له معتذرا:

- يا سيدى الضابط لن افتش أحدا، وأنا أعتذر لك أمام الجميع إذا كان قد تبادر الى ذهنك أى خاطر يسئ اليك..

وخرج المدعوون، وتبعهم الألبانى يهتز متثاقلا فى سراويله الفضفاضة، ونهر ماتيو ديلسبس أحد الخدم لأنه أقسم أنه سمع صلصلة المسروقات فى سراويل الألبانى.

بعد ثلاثين عاما، كان الضابط الألباني النكرة ذو السراويل الفضفاضة واليا على مصر، يحكمها كما يشاء، وكان صديقا حميما لماتيو ديلسبس.

وانتقم فرديناند بن ماتيو ديلسبس للسرقة، فسرق من سعيد ابن الضابط الألباني محمد على مشروع قناة السويس. أى سرق مصر بأكملها مقابل سرقة شوك وسكاكين وملاعق. إن هذه الحقائق المخزية تضطرني الى التساؤل عن القيم التي تحكم مصر، إننا مستسلمون لهذه القيم، نحترمها ولا نناقشها، نحيطها بقداسة مع أنها ليست قيم الأخلاق ولا قيم الدين ولا قيم العلم والتقدم، ما هي إذن قيمتنا التي تتحكم فينا، وتسيطر علينا، وتحدد آفاق تفكيرنا ألا توجد قيم على الإطلاق، أهي فوضى أو عجز في عقولنا، أمامي الآن بحث طويل حتى أصل إلى معرفة الأسباب التي أدت الى ضعف الشعب المصرى حتى استطاع المتهمون بسرقة الشوك والملاعق والسكاكين السيطرة عليه.. متخذين صورة الحكام العظماء، وهالة النبلاء، وقداسة الأبطال، هل هو ضعف حتمى لشعبنا نتيجة دورة التاريخ كما يقول فيكو وتلامذته، أيام مجد، وأيام ذل، قرون نضج وحضارة، وقرون انهيار وتخلف، لقد ذكر لى أستاذى لافارج اليوم اسم كتاب لمؤرخ ألماني اسمه شبنجلر وقال إنه لا يوافق على آراء شبنجلر لأنها مكتظة بالتخمينات البارعة الباهرة التي تنقصها دقة التحليل العلمي، ومع ذلك فهو ينصحني بقراءة الكتاب لأعرف منه معنى التفكير والقدرة على الفهم والتنبؤ بالأحداث طبقا لنظرية متكاملة في التاريخ، ودهشت عندما أخبرني لافارج أن شبنجلر

تنبأ عام ١٩١٧ بأن مصر تستطيع أن تقوم بثورة مؤقتة، ولكنها لا تدوم، لأن قانون التاريخ يحتم بقاءها فى حالة الشيخوخة، أكان يعنى شبنجلر ثورة ١٩١٩، كيف استطاع هذا الألمانى أن يتنبأ بها، إن معرفة أحداث التاريخ وتفاصيلها لا تعنى شيئا إذا لم تخرج منها بنظرية عامة، وهذا هو ما أريد محاولته متحديا اعتراضات أستاذى الفرنسى لافارج.

وكانت بداية المحاولة، هى الكتاب الذى ألفه سالم عبيد بعنوان «السخرة والكرباج» كتبه فى باريس، وصادرته الحكومة المصرية، وفصلت الأستاذ سالم من الجامعة حتى أعادته حكومة الوفد بعد ذلك بأعوام، ولم يكرر سالم عبيد المحاولة.

وكانت جملة قرأها الأستاذ سالم فى كتاب شبنجلر، وتأثر بها، هى التى وجهت تفكيره حتى انتهى به إلى تأليف كتاب «السخرة والكرباج» قرأ سالم فى المقدمة التى كتبها شبنجلر «أن التاريخ الذى كتبه هو تاريخى أنا، كما يسرى فى دمى».

جاشت الكلمات التى قرأها فى صدره، وأحدثت له نشوة عارمة، حتى خيل إليه أنه لو استرق السمع الى الدم الذى يجرى فى عروقه: لعرف التاريخ كما يجب أن يكتبه..

وسأل سالم نفسه..

من أنا؟ ما الذى يهمس بى فى دمى؟

لو أجبت على هذا السؤال أستطيع أن أكتب تاريخ مصر، هذه مسألة منطقية، فأنا مصرى، أكلت طعام مصر، المش والبصل والفجل والفول

المدمس، شممت هواء مصر، شممت روث البهائم والحطب، وملأت أنفى عواصف الخماسين، استنشقت عبير الورد البلدى والياسمين رأيت مصر بعينى، ومشيت فى دروبها وأزقتها وحواريها وشوارعها.. لعبت فى الحقول، وسرت فى الصحراء.. عانقت أمى والحناء فى شعرها والملس على جسدها، أفهم لهجة بحرى ولهجة الصعيد، مشيت فى جنازات؛ جنازة أخى عمران، صليت فى الزاوية والمسجد، حركت الشادوف، حزنت مع غروب الشمس فى الصحراء، سمعت الكروان يردد الملك لك، رأيت التمساح محنطا فوق الأبواب، راقبت أبو قردان يملأ الأشجار، كأنه القطن الأبيض ، أبو فصادة والغراب وفرس النبى، الفطير المشلتت، والخبز البتاو والشمسى، الجلباب الأزرق والفأس، والمساقى والترع، والقناطر الخيرية، والهويس، أغانى الصبا والموال، والناى والأرغول، أخى سليمان المجذوب، وبسيونى فى الجهادية، والقطار المستعجل، نعم، أنا مصرى، فى دمى تاريخ مصر..

وأمسك سالم بورقة، محاولا أن يفهم حياته.. وعندما طلع الفجر.. كان سالم قد سود أوراقا كثيرة.. وهذا هو النص الحرفى لما كتبه تلك الليلة.

أريد أن أكون أعظم مؤرخ فى الدنيا.. لماذا يكون العظماء من بلد غير بلدى.. ما الذى يعجزنا .. يعلم الله إنى أتفانى فى الدراسة، الكتب والمحاضرات هما كل شئ فى حياتى الآن.. لست مثل بقية طلبة البعثات.. أقضى الليالى فى مواخير مونمارتر، وأتصيد البنات. وأعب النبيذ، سيطرت على نفسى.. أخمدت صوت رغباتى، قاومت

الانحراف.. لأكون عالما مؤرخا، وتفخر بى بلدى.. أريد أن أفهم.. أريد أن أعرف كل شئ.. ولقد أدركت الآن سر عظمة المؤرخ.. وهو أن أكتب التاريخ كما لو كنت أكتب سر حياتى .. أكتبه كما يسرى فى دمى.. لذلك يجب أن أعرف أولاً من هو سالم عبيد. يجب أن أكتب كل خلجة تطوف برأسى الآن. حتى أكون صادقا أمينا.. سأكتب بلا وعى.. وبلا مراجعة أو رقيب.. وسأنظر فى الأوراق بعد ذلك. لأعرف من أنا، وما الذى كتبته عن نفسى.. عقلى يهمس لى أنى أقوم بعمل مضحك. كما أشعر بخجل. اطمئن يا سالم. لن يقرأ هذه الأوراق أحد.. وأستطيع أن أمزقها بعد كتابتها..

هذه الكلمة «أمزقها» كأنها جرحتنى.. كأنى أمزق شيئا شفافا فى حنايا صدرى، أرى صورة لحم رقيق وردى اللون.. أشبه بورق نشاف مبلل بالدم، أمزقه.. أتوكل على الله وأكتب .. من أين ابدأ.. هذه مسألة محيرة.. أمى.. وجهها الأسمر المستدير.. الطرحة السوداء تلتف حوله، عيناها الضيقتان. فمها يتمتم بآية الكرسى. يدها تمسح على رأسى، أمى أسمها نفيسة.. لا..، هذه ليست طريقة مجدية.. الأفضل أن أكتب بطريقة علمية. أقسم الموضوع الى عناصر.. سيريحنى هذا الأسلوب.. اقسم حياتى الى عدة عناصر تضم حياتى كلها..

من أنا؟ ها أنذا أفكر دون أن أكتب.. سأكتب كل ما فكرت فيه.. صديقى زكى وهو يودعنى فى الميناء عيناه ساخرتان.. يربت على كتفى قائلا:

- ستنتهى من الدكتوراه فى سنة واحدة.. أقسم أنك تستطيع حفظ كل كتب السوربون فى شهرين.

لم تفتنى السخرية. كانت مكشوفة.. يذمنى وهو يمدحنى يعنى أنى صمام،.. سأعود بالدكتوراه وأصبح مدرسا فى الجامعة.. وسيظل هو مدرسا فى الإبتدائى أو الثانوى على أكثر تقدير.،. لن أضيع وقتى فى هذه التفاهات المهم هو أن أفهم حياتى بطريقة علمية.. رغم وجه زكى الذى مازال يلازمنى وكأنه يخرج لسانه.

عناصر الموضوع..

لافارج يقول أنى لا أستطيع الفهم، نصف الحقيقة فقط.. ولكنى أتحداه..

عناصر الموضوع..

أولا: أنا فلاح. .لا.. أنا ابن فلاح مصرى. أبى هو الفلاح شيخ البلد عبيد سالم ابراهيم. يملك ٩ فدادين. وله ثمانية أبناء. خمسة من زوجته الأولى عائشة بنت الحاج رمضان.

أم سليمان، أمرأة طويلة بدينة. خبيثة، غبية. كان أبى يبقيها من أجل الأولاد. أبى كان مهيبا . الزوار لا يفارقونه. والسوط لا يفارق جيبه أو يده. صوته هادئ وقور بطئ. له رهبة. كنت أحبه. وأرهبه.

كان يرقبنى من بعيد . وأنا صغير، لا ينادينى ولا يكلمنى، ويكتفى بابتسامة خفيفة ، ولمعة فى عينيه. أحيانا كنت أراه. فأفر هاربا إلى

أمى إذا كلمنى بكيت، سمعته أكثر من مرة يقول أن بى شيئا لله. وأنى سأصبح مجذوبا مثل الشيخ سليمان. كنت أصدقه ، وأخاف نبوءته. أمى هى التى حمتنى من النبوءة وصممت على تعليمى، كنت أحفظ الدروس، والرعب يملأ قلبى، خشية أن أتحول الى مجذوب.

عندما مات أبى حزنت وفرحت، حزنت لأنى كنت أحبه، وفرحت لأنى تخلصت من نبوءته، كان أبى من رجال دائرة الأمير يكن. وهو يعتبر الأمير أهم من ربنا، ويخشاه أكثر من ربنا، والأمير هو الذى أنفق على تعليمى حتى بعد موت أبى.

كان الشيخ سليمان أخى الأكبر من زوجة أبى مجذوبا يسيل لعابه كالأطفال.

توقع أبى أن أكون مثله. كان الشيخ سليمان يتردد على حلقات الذكر، ويغيب عن دارنا بالأيام والأسابيع. ونسمع أنه يهيم على وجهه فى بلاد الله، فى يده شمروخ يلوح به ليطرد الأولاد الذين يسخرون منه، عندما جئت الى القاهرة لأكمل تعليمى الثانوى فى بيت إبن عم والدى سعد أفندى عبيد. كان يهبط علينا الشيخ سليمان فى مولد السيدة. ومولد الحسين. وكان يحب اللحم بالدمعة، والطرشى ويجلس أمام صحون الطعام يأكل ببطء شديد، فإذا بدأنا الغداء الساعة الواحدة، قام الساعة الرابعة، بعد أن يلتهم عددا كبيرا من الأرغفة، وكان صامتا.. عيناه تبتسمان، ويتحدث مع نفسه بصوت مسموع ، ويهش أشباحا من حوله، ويهز رأسه بعنف، ويصرخ هووو..هووو.

كان لاينام فى البيت، ويفضل رصيف السيدة..

لم يتزوج، أعتقد أنه عاجز جنسيا، كنت أرقبه من بعيد، كما كان يراقبنى أبى وأنا صغير. وأشعر بنفور منه يرتجف جسدى وهو يمد يده ليمسح بها على رأسى، كما وعد أمى ويقرأ..

حامد شقيقى الثانى من زوجة أبى، قاتل لم يقبض عليه البوليس أبدا. لكن البلد كلها تعلم أنه قاتل أبو الفضل. وعمتى زكية المجنونة كانت تروى لنا ونحن صغار أخبار سطوه ونهبه وقتله..

كنت أخشاه، وحسدته وأنا صبى، واحتقرته وأنا كبير. كان قوة لزوجة أبى. أبى كان يخشاه، كنت أختلس النظر إلى شاربه المفتول، وبشرته المحروقة، ووجهة الصغير وقامته المديدة وأتوهم أنه عفريت..

ليلة جاء المأمور والعساكر الى دارنا، بعد أن قتل أبو الفضل، كان أبى قد جاء بالبندقية إلى دار أمى ودفنها فى الغلة. وأمسك العساكر بعصى طويلة دسوها عدة مرات فى القمح. وتمنيت لو أنهم عثروا على البندقية. كدت أهتف . البندقية هنا. استمروا ستجدونها. هتفت فى سرى، ولم يسمعنى أحد؛ بعد موت أبى استولى حامد على الفدادين فى الحوض القبلى، ولم يكترث لصراخ أمى، كنت صبيا مراهقا، وفكرت فى قتله ولكن بكيت.

عمران مات بالتيفود، أما سعد والسيد فساذجان أبلهان لا فرق بينهما وبين الجاموسة التى تدور مع الساقية وشقيقتاى سعدية وهانم، تزوجتا، لهما أولاد لا أعرف كم عددهم، ولا أعرف أسماءهم. لا أهمية لهم..

أبى والمجذوب والقاتل، هم تاريخى فى القرية..

وأمى أيضا. لم يكن لى صديقا سوى بسيونى فى طفولتى، كنا نلعب معا.. ونتسامر معا.. ثم انقطع كل ما كان بيننا.. آخر مرة رأيته كان جنديا فى الجيش. الطربوش فوق رأسه ملوث بالعرق تفوح منه رائحة عطنه. قضينا لحظات مرتبكة. حاولنا أن نضحك، وأن نتذكر فلم نفلح وانصرف كل واحد إلى حاله، أما الشيخ برعى فلن أنساه. هو أيضا جزء من تاريخى .. أزهرى.. بيته أنيق، حجرة المسافرين فى الطابق الأعلى، خجرة غريبة على قريتنا، أعطانى الكتب لأ قرأ. وتحدث معى فى الفقه والشعر، وسألنى هل بلغت سن الرشد.

كان يضع أصبعه على أنفى ليتأكد أنه مشقوق، حدثنى عن البنات بحماس، وليالى الدخلة، والوضوء والنجاسة، كان معاما فى المدرسة الإلزامية، يكبرنى بعشر سنوات أو أكثر، كانت شهيته مفتوحة للحياة. وكلمات الحلال والشرع تزيد من شهيته، كنت أستريح له. تبهرنى أحاديثه، وتفيض بى مشاعر بعضها يثير خجلى، ويربكنى.

هل أستمر فى سرد الذكريات، التفاصيل لا تنتهى. كلها تعنى أنى فلاح. آه.. نسيت شيئا هاما، ذلك الوشم الأخضر على يدى، الثعبان، الحنش، والعقد الملتف حوله، نزعة الطبيب بعد وصولى إلى باريس بأسبوع، كنت فرحا به وأنا صغير. ولكنى كنت على إستعداد لأن أقطع يدى وأتخلص من هذا الوشم وأنا كبير. آثاره مازالت عالقة فى ظهر كفى، ولكنهم يظنون أنها حروق قديمة، أثر من آثار الجهل..

أبى وأمى ومجذوب وقاتل وأزهرى وآثار وشم..

ما الذى تعنيه هذه التفاصيل. جهل وجريمة ودين وشعوذة. أهذا هو المفتاح الى تاريخ مصر الحديث.. هل ذكرت كل التفاصيل، إنتظر حتى أنتقل الى العنصر الثانى..

ثانيا: أنا رجل مثالى، أشعر بتردد وأنا أكتب هذا الكلام.. ولكنه صحيح أخلاقى مثالية لاشك فى هذا..

يشهد الله أنى فى باريس عاصمة الفساد والملذات والفجور، أمامى كل المغريات، ولم أرتكب ما يغضب الله، أو ما يقول عنه الشيخ برعى أنه حرام. عندما ركبنا المركب من الإسكندرية طاف بنا بائع عقود خرز، وطلب منى زكى متهكما أن أشترى بعض العقود، هدايا لفاتنات باريس، كاد أن يشترى بنقوده العقود، لولا أننى رفضت، غضبت.

أهناك تفاصيل أخرى أضيفها يجب أن أعترف بكل الحقيقة .. نفسيتى مرهقة بالتفكير فى المرأة.. بلغت من العمر الرابعة والعشرين ولم اقرب امرأة. مازلت أسأل نفسى، هل أنا عاجز جنسيا مثل الشيخ سليمان.. كيف أعرف..

علمنى الشيخ برعى العادة السيئة، أدمنت عليها، رغم أنى قرأت أنها تؤدى الى الجنون والعقم، حقيقة أنا فى حيرة، ولابد أن أجد حلا، البنات هنا فى باريس يتصرفن بحرية كاملة يتبادلن القبلات مع الشبان فى الشوارع والحدائق ومحطات المترو، بنات أجرأ منى..

دائما أهمس لنفسى.. وقد طغى على شعور بالتقزز حتى ينصلح حالى.. سلوكى الخارجى مثالى، ولكن أفكارى وخيالاتى غير

مهذبة، سفالة أو جبن أو خطأ فى تربيتى. عجز. أم أخلاق، حصانة، وأدب، حقا أنا فى حيرة، ليلة أن رأيت كونشيتا لم أنم، اشتهيتها وتخيلت أبشع الصور، انا انسان مقرف مقزز، الآن أتمنى لوكنت مجذوبا مثل الشيخ سليمان، أو قاتلا مثل حامد ـ أنا ضعيف ـ لن يعلم مخلوق على هذه الأرض أنى أشتهى نساء التاريخ، نفرتيتى، كليو باترا ، أى امرأة أقرأ عن عشقها ونزاوتها..

أكتب بالرغم منى.. سأمضى إلى الكتابة، سأمضى، سأعترف، بالأمس وأنا فى فراشى. فتحت الكتاب وبحثت عن تلك السطور، وقرأت بشهوة، أتخذتك ياتاماتيس زوجة شرعية لى فى منزل مدة خمسة أشهر فقط، وقد وضعت الفضة فى هيكل هاتور. وهى لك إذا لم تفلح التجربة إذا تركتنى اذهبى واقبضى الفضة من الصراف. تخيلت تامانيس عارية فى سريرى، زوجتى لخمسة شهور. وتحولت تامانيس الى خديجة بنت الحاج رمضان وطردت صورة زوجة أبى، ودارت رأسى بأجسادهن. كل النساء كل بنات باريس كل من رأيتهن. فى سان ميشيل، فى الكلية. حتى مدام زوبير البوابة العجوز.

هل أتوقف عن الكتابة إنها تتحول الى أشياء تافهة فارغة، أتحدث عن الجنس.

الحرمان والكبت يفضحاننى، سأنتصر على هذا كله. عندما أعود الى مصر أتزوج، متى أعود الى مصر. أشعر. بحنين جارف الى مصر، مضت ثلاث سنوات وأنا بعيد عنها، خطاباتى شحيحة، وأمى ترقد على الفرن مريضة. تنتظر.

حبيبتى أمى، رغم خجلى منك، خجلى من جهلك، وتعاويذك، وعقلك المكتظ بالأوهام ، رغم كل شئ أحبك، قلقة على زواجى، وتنتظر عودتى، لأعطيها ما تشاء من نقود، طعامها شهى، البرغل والسمن البلدى الذى أتلف معدتى، قدموا لنا الطعام بكميات وافرة فى المركب، كنت أجلس مع قساوسة، وجوههم حمراء كالبنجر يأكلون بشهية، وإذا فرغنا من الطعام، التهمنا الموز، وشربوا النبيذ.

كانت رحلة ممتعة، خفت البحر، وبعد يومين اشتقت الى عاصفة، من حسن الحظ أنها لم تهب علينا.

أيمكننى بحث تاريخ مصر من خلال مشكلتى الجنسية وأفكارى عن الطعام، أشعر أنى منهوك القوى، فى الحضيض، سأمزق هذه الأوراق، سأمزقها، الجنس والطعام، ما صلة التاريخ بهما، نعم نعم، قد يتحول هذا إلى فكرة عظيمة، الجنس يتحول إلى دراسة مشكلة تزايد النسل، والطعام يتحول إلى دراسة الاقتصاد الزراعى، شبنجلر عبقرى، أى شئ تافه حقير فى دمى يتحول إلى فكرة بارعة وثورة توجه أبحاثى، سأستمر فى النبش عن العناصر الأخرى للموضوع.

ثالثا: تكلمت عن الريف، والجنس، أعنى الأخلاق، لم يبق إلا ثقافتى. أنا رجل مثقف لاشك فى هذا.

ولم يكمل سالم الكتابة، سرح مع أفكار مشوشة، كان الإرهاق قد بدد قواه. وضوء الفجر يتسرب من نافذته.

وقف سالم أمام البنات السبع يحاضر عن فرديناند ديلسبس، «أتعرفون ما سبب هذه المعارك فى القتال، إنها قصة أشبه بالقصص البوليسية وأفلام المغامرات، ولكن الجريمة فيها لم تقع على فرد، بل وقعت على مئات الألوف من هذا الشعب الأولاد المتظاهرون فى الخارج هم الأحفاد الذين يطالبون بالثأر.

نبدأ بمستر أدوين دى ليون القنصل الأمريكى العام فى القاهرة. راقدا فى فراشه، ينعم بنوم هادئ، وفجأة يدق بابه فى منتصف الليل رسول موفد من ألفى بك محافظ القاهرة يطلب منه أن ينتقل فورا الى قصر بنها على بعد حوالى أربعين كيلو مترا من القاهرة. ويرتدى أدوين دى ليون ملابسه، ويسرع الى قصر بنها، لابد أن شيئا خطيرا قد حدث هناك، فما مناسبة هذا الإستدعاء المفاجئ إنه يعلم أن عباس باشا حاكم مصر يعيش فى ذلك القصر، حياة عزلة، مع بعض العبيد المخلصين له: وقد أحاط قصره بحديقة تمرح فيها حيوانات مفترسة، إنه يفضل هذه الوحوش على الناس، ويعتز بصلته بها، وقد تمضى الشهور ولا يقابل أحدا. لا يقابل الأجانب بالذات لأنه يكرههم، ويمقت القناصل فهو الذى قال مرة متحدثا باحتقار عن جده محمد على باشا «جدى يتصور نفسه أرستقراطيا متعجرفا، ولكنه كان كذلك بالنسبة للأهالى، أما بالنسبة لقناصل أوروبا فهو ليس أكثر من حذاء».

كان أدوين دى ليون خائفا، ولكنه واصل رحلته، ولما وصل إلى قصر بنها كان الظلام والصمت يخيمان على القصر، الهدوء شديد

مريب لا أثر لضوء، ولا حياة. واستقبله ألفى بك واقفا عند باب القصر، كالشبح. يتستر بالأسوار، ويهمس فى أذنه.

- عباس فى الداخل مقتول..

- من الذى قتله؟

- لا أحد يدرى..

- لم تقبض على أحد؟؟

- أشك فى عبدين وصلا حديثا من استنبول..

- كيف مات؟

- مخنوقا..

- أين؟

- فى فراشه..

- هنا؟؟

- نعم؟؟

- وماذا ستصنع الآن؟

- لن أخبر أحداً بمصرعه..

- والحراس؟

- لا يعلمون..

ـ هل نستطيع؟

ـ نعم..

ـ ما هى خطتك؟

ـ سيسافر عباس فى هذه العربة الى القاهرة.

ـ ستنقل جثته؟؟

ـ سيسافر كأنه حى..

ـ لا أفهمك..

وأشار ألفى بك إلى عربة عباس الرسمية.. وقال ببساطة:

ـ سأجلسه فيها، وكأنه حى وسأجلس أمامه..

وصعد ألفى الى بك وأدوين دى ليون ورئيس الأغوات، إلى غرفة نوم عباس وأدخلوا جثته فى الملابس الرسمية الموشاة، وتعاون ثلاثتهم على الهبوط به، كأنه مريض يتحامل عليهم، وأجلسوا الجثة فى العربة، وجلس أمامها ألفى بك،. وانطلقت العربة الى القاهرة، تتبعها عربة القنصل الأمريكى تحيط بهم كوكبة من الحرس..

لم يلاحظ أحد بطوال الطريق أن عباس ميت، لأنه لم يتعود تحية أحد، كان يجلس صامتا فى عربته مترفعا متكبرا يبخل بنظراته على الناس، لا فرق بين منظره كتمثال أو ميت أو حى..

ودخلت العربة القلعة، قبل أن يشك أحد فى موت عباس، ومن القلعة صدرت أوامر ألفى بك، فصوبت المدافع الى القاهرة، وحشدت الجنود..

وعندئذ فقط و أعلن موت عباس.. لماذا تكلف الألفى بك كل هذه المشقة؟ لأنه أراد أن ينصب إلهامى باشا ابن عباس خليفة له، ولكن أدوين دى ليون الأمريكى، رأى الفرصة مواتيه للتمسك بحاكم يحب الأجانب، فاتصل بالقنصل الإنجليزى سير فوردريك روس، وذهب الإثنان إلى القلعة وحذرا ألفى بك من عواقب مسرحيته وقالا له، أن سعيد باشا عم عباس، هو أكبر أفراد الأسرة ومن حقه الشرعى أن يصبح واليا على مصر، وخشى ألفى بك في اللحظة الأخيرة أن يمضى فى خطته فاستسلم لتحذيراتهما.

سعيد باشا، يصدق فيه قول عباس عن جده، كان هو الآخر حذاء فى قدم الأجانب، رباه الفرنسى توينج بك وبث فيه حب الأوروبيين، وعوده على الإختلاط بهم، وعلمه كيف يتكلم الفرنسية بطلاقة.

وكانت مشكلة سعيد، أنه شخص بدين، ووالده محمد على يكره البدانة لأنها ضد المظهر العسكرى، فأمر ابنه سعيد بأن يتحول إلى رجل رشيق القوام ووضع له برنامجا صارما يصعد كل يوم صارى سفينة، ثم يقفز الحبل ثم يجدف فى النيل، ثم بعد ذلك يذهب الى القلعة ويجرى بحذا أسوارها.

وكان سعيد السمين يلهث من التعب ويقرصه الجوع، وتتقلص بطنه من الآم ويطلب الطعام فلا يقدم له إلاّ المسلوق.. فيهرب الى بيت دبلوماسى فرنسى أسمه ماتيو ديلسبس- صديق لوالده محمد على، وهناك يلعب مع فرديناند بن ماتيو، ويلتهمان أطباق السباجتى بالصلصة الحمراء واللحم المفروم التى يسميها الفرنسيون صلصة بولونيز.

كان محمد على صديقا لماتيو ديلسبس ، ذات ليلة كان محمد على الضابط الألبانى النكرة مدعوا فى بيت ماتيو، ووقعت سرقة شوك وسكاكين وملاعق أثناء المأدبة، وحامت الشبهات حول محمد على لكن ماتيو رفض أن يتهم ضيفه الألبانى ولا أحد يعلم هل سرق محمد على هذه الأشياء فعلا أم لا، ولكنه أحتفظ بالجميل..

واحتفظ سعيد السمين ابن محمد على بالجميل لفرديناند بن ماتيو. الأب محمد على مدين للأب ماتيو ببراءته. والإبن سعيد مدين للإبن فرديناند بانقاذه من قرصات الجوع..

على المؤرخ أن يواجه هنا حالة شاذة، يواجه نفسية رجل متهم بجريمة سرقة ونفسية رجل متهم بنهمه الشديد الى الطعام، هذه التفاصيل التى قد تبدو لكم تافهة أو غير وقورة لها أثرها فنحن لا نستطيع أن نفهم كيف أصبح محمد على حذاء فى قدم القناصل الأجانب قبل أن نعرف حادث الملاعق والسكاكين، كذلك لن نفهم خضوع سعيد المطلق لفرديناند، قبل أن نعرف تفاصيل منافساته على إلتهام أطباق الإسباجتى، ومسابقاته مع فرديناند لابتلاع أكبر عدد من قطع الجاتوه..

أصارحكم أن المؤرخ الحقيقى مطالب بفهم هذه الأشياء، إنه مطالب بأن يكون رجلا واسع الأفق، يلم بمعانى الحياة بكل ألوانها، يتعمق نفوس من يكتب عنهم، يجب أن يعرف معنى الجريمة ونفسية المجرم، يتخيل الشر فى النفوس، يحيا مع الأيدى التى تدس السم فى طعام الملوك، يعرف الحب والعشق، ليفهم العشيقة التى تسيطر على عقل

إمبراطور، المؤرخ بطبيعته قادر على أن يتقمص الشخصيات، أنه أحيانا ملك، وأحيانا دون جوان محارب نبيل، أو شرير مخادع، رجل بربرى وحشى، أو قديس طيب، إن التاريخ لا يحركه وقار العلم، وأبطال التاريخ ليسوا دائما من الملائكة، لذلك نضطر نحن رجال التاريخ الى الخروج من وقارنا العلمى، نخرج منه بنفوسنا وخيالنا، لنفهم الحياة كما هى، أنا شخصيا رغم مظهرى الهادئ أتحول وأنا أدرس التاريخ إلى مقاتل من إسبرطة، إرهابى فى روسيا القيصرية، بطل رياضى فى الألعاب الأوليمبية، ملك يسبى النساء أو راع فى سهول منغوليا .. إنها حياة عريضة متعددة الآفاق، حياة بلا حدود.

نعود الآن الى سعيد وديلسبس. كان فرديناند لا يسيطر على سعيد بالطعام فقط، بل سيطر عليه بالجنس، سافر سعيد مع فرديناند الى باريس وانطلقا يلهوان فى الحى اللاتينى ويطوفان بالمراقص الرخيصة، وجمع سعيد حوله النساء وتوهم أن بنات باريس مفتونات به، وعاد سعيد الى مصر، وبقى فرديناند فى مزرعته..

كان فرديناند فى حجرة بسطوح بيته يقوم ببعض أعمال التجارة عندما وصلته برقية، تقول له أن عباس مات، وأن صديقه سعيد أصبح حاكما على مصر، وهبط فرديناند من السطوح، ليسافر فى الحال الى مصر.

يقولون أن الحمقى والمغفلين، يجازفون ويخاطرون فى الطريق الذى لا يمشى فيه الملائكة، وكانت فى رأس فرديناند فكرة حمقاء، قال

ملائكة العلم أنها مستحيلة، هذه الفكرة هى مشروع حفر قناة تربط بين البحر الأحمر والبحر الأبيض، لتتزوج مياههما وفرديناند ديلسبس هو المأذون الشرعى الذى سيعقد القران..

وصل فرديناند الإسكندرية يوم ٥ نوفمبر عام ١٨٥٤، وقابله سعيد بالعناق والقبلات وسافر الإثنان معا إلى القاهرة عن طريق الصحراء فى قافلة يحرسها أحد عشر ألفاً من الجنود وأثناء الرحلة، استيقظ فرديناند فى الساعة الخامسة صباح يوم كان المعسكر هادئا نظر إلى يمينه فأسره ضياء الشرق المشرق بالأمل والوعود، نظر إلى شماله فرأى الغرب مظلما تتجمع فى أفقه سحب سوداء وفجأة سطع فى السماء قوس قزح يشق ظلمات الغرب متجها إلى ضياء الشرق وأيقن فرديناند أن هذه علامة سماوية تبشره بمشروعه الجديد..

هذا ما كتبه فرديناند ديلسبس، وهو يصف شعوره يوم فاتح سعيد فى مشروع قنال السويس.. مشاعر مجذوب أو درويش من دراويش السيدة..

هل كل فرديناند مجذوبا حقا، يستلهم الوحى من علامات فى السماء؟! لا أظن بل كل الدلائل تشير إلى أنه كان صاحب عقل متآمر، يعرف كيف يسيطر على البسطاء، ويرسم الخطط لمدى بعيد..

سلم سعيد بكل ما طلب فرديناند وأكثر، ودفع ثمن الإسباجنى والجاتوه أرض مصر والقنال. ومئات الألوف من الفلاحين، أمر بتسخيرهم تحت وطأة الكرباج، ليعملوا مجانا يجلدون ويجوعون ويموتون . لحفر قناه تقدم هدية الى فرنسا..

كم مات من الفلاحين خلال شق القنال.. كم تركت السياط آثارا أبدية على ظهورهم ونفوسهم..

هنا يقف المؤرخ، ليتقمص دور الفلاح المعذب، الذى ينبش الأرض بأظافره، السلطات تنتزعه من حقله، تهجم على داره وتخرجه من مخبئه، وسط عويل أمه وزوجته وبكاء أطفاله يسير فى قوافل الموت ليحفر القناة ويموت فى قاعها، جريمة شوك وسكاكين وأكلات شهية، ومغامرات فى باريس ورجل يدعى أنه درويش، كل هذا ينتهى بمصرع شعب..

ألا تجدون فى هذا مبررا كافيا لكى يقوم من بيننا، شأن نسميهم بالإرهابيين، يقتلون ويدمرون ألا تبدو مظاهرات الطلبة فى شوارع العاصمة وخارج قاعة هذه المحاضرة، شيئا أقل من العادى لدفع ملايين الجرائم التى وقعت..

إن المؤرخ فى هذه اللحظة، يتحول الى شاب يملأ قلبه الحماس، ورغم أنه يقف أمام طالبات حسناوات يحاضرهن بوقار علمى، وأعتقد أننا أرضينا ضمائرنا خلال هذه الساعة، فشاركنا المتظاهرون فى الخارج، بتأملاتنا فى معنى هذه المظاهرات ومراجعة بعض الظروف التاريخية التى أدت اليها..

٨

مساء ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٤٣ :

شوارع وسط المدينة تضج بالمحتفلين بالكريسماس،. الوجوه متحفزة للفرح.. زحام غير عادى أمام دور السينما. شبان يمشون جماعات. ضحكات عصبية تنفجر فى الهواء. نكات بذيئة.. جنود انجليز سكروا منذ الصباح يجتاحون الشوارع فى صخب أحذيتهم الثقيلة تدق أسفلت الطريق أناشيد حرب. وأغانى غرام. حول الجنود تحوم عربات حنطور، وسيارات أجرة .. بنات حرب.. بنات غرام. ، أصحاب الدكاكين يرقبون الشارع فى حذر، فى انتظار نقود الجنود، وفى انتظار هياجهم الذى قد يدمر كل شئ.. الناس يتحركون بعصبية. خطواتهم تسرع وتبطئ تبعا لتحركات الجنود. مصابيح ترسل ضوءا أزرق. السماء بلا قمر أو نجوم. فرح وحشى.. نهم وقلق. خطوات وصيحات، قئ تفوح منه رائحة الخمر، جندى يتبول على جدار.

أمام باب الأمريكين، عند ناصية شارعى عماد الدين وفؤاد، وقف عمر النجار. فتى فى السابعة عشرة من عمره. نحيل، متوسط القامة،

له عينا شاعر. شفتاه رقيقتان رأسه محنى إلى الأمام قليلا. كأنه ينوء بحمل غير عادى. قامته منتصبه مشدودةكل شئ فيه مشدود. جامد صلب فى الجيب الداخلى لسترته الرمادية. مسدس.

هؤلاء الجنود السكارى أهداف سهلة.. أستطيع أن أصيب .. العشرات ...هذا الجندى الأسترالى استطيع أن أصرعه فى الحال.. وأمضى هادئا فى طريقى. كأنى وطئت صرصارا بحذائى.. استرالى ضخم. قذر، لحمه سميك.. فكه بارز. يرفع عقيرته بالصياح المخمور. هذا وحش لا صلة له بالبشر.. يمشى غير هياب. عيناه فاجرتان.. رماديتان.. رماد الموت فى عينيه.

وهذا الجندى. ماكر. عيناه خرزتان ضيقتان. مخلوق لابد من سحقه.. ينظر إلىّ ساخرا يلوح بيده مستهزئا. الموت لك.

هذا الصباح قال لى فهمى لا تقتل. أنت لست مستعد، لا تغتر ولا تفرح بالفرصة. القرص والإنجليز أكثر من الهم على القلب.

- سأطيع أمرك.. لن أقتل الليلة.

كان عمر النجار قد أمضى ثلاثة أشهر وهو يتدرب على إطلاق النار استعدادا لمجئ اليوم الذى يصبح فيه قادرا على قتلهم.

هناك فى عزبة فهمى عند القناطر تعلمت دروسى. الحديقة كالغابة وأشجار البرتقال تخفينا. كان اليمام يفزع ويكف عن تسبيحه.، والعصافير تخاف. والبقر ينصت فى وقار والحمير تنهق. والرصاص يئز.

الدرس الأول فى التصويب ياعمر. هو نفسه الدرس الأخير. يدك يا عمر.. يدك قبل عينيك .. يدك هى التى ترى. ويدك هى التى تحدد الهدف، يدك هى التى تصوب، يدك هى التى تطلق.

كان فهمى يتكلم بصوت بارد. لا أثر للإنفعال فيه. إنه يكره الإنفعال. ويكره المشاعر، ويكره الأفكار، ويكره كل ما يتحرك فى القلب أو العقل.

صوب إصبعك نحوى.. كأنك تشير إلىّ.. نعم اشر إلىّ بإصبعك.. لا.. هذا خطأ.. المفروض أن عينيك تتبعان يدك، لا أن تتبع عينيك.

هذا الطلب البسيط الذى طلبه فهمى لم أستطع أن أحققه.كيف أُخضع عينى ليدى؟

هذه مسألة غريزية يا عمر. يدك هى التى تصنع كل شئ. أنا أعتقد أننا كنا منذ زمن بعيد جدا نستعمل أيدينا دون أن تكون لنا عيون، كانت أيدينا تتحسس، تمسك، تقبض، تمتد، تعتصر، تضرب. ثم جاء وقت اردنا فيه أن تمتد أيدينا الى كل شئ.. أن تمسك بكل شئ.. وكانت حاجة ملحة.. فاخترع جسدنا العيون.. كل فائدة العيون أنها أُيد طويلة جدا تمسك من بعيد، تقبض من بعيد.. تتحسس من بعيد.

استمعت الى فهمى . ونظرت حولى. عيناى تقبضان على قمم الأشجار، تتحسسان السحب تمسكان بغراب. كلامك معقول يا فهمى. أتعرف أن هذا الكلام يريحنى..

الخطأ يا عمر عندما نتصور أن عيوننا مستقلة عن أيدينا. إن هذا الخطأ يحولنا الى كائنات مخرفة تتوهم وتتخيل وتحكم بلا حدود، فنرى أهدافا غير حقيقية، ونجرى وراء أوهام لا يمكنك أن تمسكها بيدك. اسمع يا عمر. إذا أردت أن تقتلهم. فأنت بلا عين. بلا قلب، بلا عقل. أنت أولاً وأخيرا يد ثابتة. والآن ضع المسدس في يدك كأنه قطعة من كفك ماسورة المسدس وإصبعك شئ واحد. نعم.. هكذا.. إلى حيث يتجه إصبعك تتجه فوهة المسدس. وتتجه عيناك. إصبعك قادر على تحديد الهدف خير من عينيك ألف مرة. إنه قادر على أن يشير.. لا.. يدك ترتعش.. هذه اليد يجب أن تتحول الى قطعة حديد. أتفهم الحديد لا يرتعش ولا يهتز.

أنظر .. لقد حركت اتجاه المسدس وأنت تضغط على الزناد. هذا خطأ.. ولكنك فى حاجة الى تدريب..

كم قتل فهمى من الإنجليز.. عشرة؟ عشرين؟ إنه لا يتكلم أبداً..

لماذا تسألنى يا عمر عن عددهم.. إسألنى عن عدد الطلقات التى ضاعت داخل أجسادهم، إسأل عن الطبنجات التى يجب أن أنظفها وأعتنى بها.

فتح فهمى خزانة المسدس وأخرج الطلقات. ووضعها فى كفه، يتأملها بشغف.

طلقات رصاص. حقائق محدودة أقبض عليها بيدى. لا غموض ولا إلتواء، حقائق مفهومة لا تكذب ولا تخدع. بسيطة. فصيحة. حقائق

تؤمن بها. عندما تنطلق تنفذ فى اللحم والعظم وتسيل الدماء. أنها أصدق من اللحم والعظم والدماء.. كانت ليلة جميلة ورصاصة عزيزة مثل هذه تنطلق من يدى. يوم. هاهاها. سقط بكل ضخامته وعظمته وإمبراطوريته، مجند لا. تعجبنى هذه الكلمة.م.. جـ. ن.. د.. لا.

.. ألا تعجبك يا عمر، أنت توافقنى.. أتعرف؟ أن الأشكال التى يرسمونها وهم يسقطون لا تنتهى.. الأوضاع التى تتخذها الجثة على الأرض.. أوضاع لا نهائية. بقع الدم لها مليون شكل وشكل... لا شئ يبقى كما هو.. إلاّ الرصاصة نجدها فى المخ أو القلب، فى البطن أو نفذت من الجسم واستقرت بعيدا.. ما يؤلمنى لا أستطيع جمعها. هاهاها.. ولكنهم يحتفظون بها فى أماكن محترمة.. فى معامل الطب الشرعى. وفى إحراز القضايا. كل الطلقات انتهى بها المطاف إلى أماكن وقورة محترمة.

همس عمر بحنان جارف:

- أنا على استعداد لجمعها لك.

أجاب فهمى بحدة:

- لا تفكر فى هذا..

سمعا وطاعة يا فهمى. أخضع لأوامرك بلا مناقشة..لأنى أحبك.. لأنك صديقى. بغيرك لا معنى للحياة.. لا أطيق أحدا غيرك.. لا أطيق سخف أبى. ذاكر يا ولد.. احفظ دروسك يا ولد، كن مؤدبا يا ولد،

ستكون طبيعيا عظيما مثل على ابراهيم جراح يمزق بمشرطه، لحم المرضى، عمل كريه.. ما هذا الذى تكتبه يا ولد؟ شعر؟ تكتب الشعر يا مغفل . نهايتك أسود من الطين.. مزقت يده أشعارى.. سيد بك النجار. النائب المحترم عضو مجلس النواب. الناخبون على باب البيت من الفجر حتى العشاء.

وهو يتبختر بينهم كالديك الرومى.. يقبلون يده السمينة حتى أنا أقبل يده. عاطفة مطيعة.. حنانه أصغر. يتكلم فى السياسة مع الضيوف.. ويدخل حجرة النوم ليشتم أمى. الباكية المترهلة وعجائزها اللاتى يقرأن الفنجان، ويتحدثن عن العفاريت والسحر.

قال فهمى لعمر بعد أن فرغا من درس التدريب:

– إذا أردت أن تقتلهم فانس أنك تقتلهم .. لن تقتلهم حتى تتخلص من غضبك وثورتك .. حتى تصبح أنت والمسدس شيئا واحدا ..

– وماذا يبقى منى لو فعلت كل هذا ؟

نظر إليه فهمى نظرة طويلة باردة وهمس بفتور:

– لو كانت الإجابة على هذا السؤال تهمك فلا تحضر إلى التدريب بعد الآن .. إننا لانسأل هذا السؤال.

سأل عمر خائفا:

– أيمكننى أن اسألك سؤالا واحدا .. قبل أن ننهى هذه المناقشة إلى الأبد.

– إسأل.

– ألسنا نقتل من أجل الوطن!

– من الذى علمك هذا؟

– كان أبى يقول . لابد من قتل الإنجليز.

– وماذا فعل بعد أن قال هذا؟

قال عمر بسرعة وغضب:

– إنه نصاب ..

– قال فهمى :

– نحن لا نقتلهم من أجل الوطن.

– من أجل أنفسنا؟

– ولا من أجل أنفسنا.

– إذن..

فقاطعه فهمى :

أننا مسدسات . .أتعرف لماذا تنطلق المسدسات!

أجاب عمر بنظرة حائرة.

فقال فهمى :

– المسدسات تنطلق لأنك تضغط على الزناد.

وحدق فى عمر متحدياً:

– أترضيك هذه الإجابة يا عمر ؟

– نعم ..

– لماذا ؟

– لأنى أصدقك ...

كان يود لو استطاع أن يقول لأنى أحبك.

ابتسم فهمى. كان عمر يجهد عقله باحثا عن كلمة يعبر بها عن حبه.

– أنا يا فهمى مستعد لأن أفعل من أجلك أى شئ.

قال فهمى فى برود:

– أنا مسدس ورصاص.

قبل أن يفترقا، قال فهمى فجأة:

– الخدمة الوحيدة التى نؤديها للوطن. هى أننا نجعل فيه مسدسات .. الإنجليز عندهم مسدسات. أما بلدنا فليس فيها مسدسات .. حتى ظهرنا نحن.

هذا الصباح قال فهمى:

– خذ صديقك وتنزه به فى الشوارع .. وادخل معه السينما .. ضعه فى جيب سترتك الداخلية ، وتعود أن تشعر به يضغط على صدرك، وتمنى لو كان هو يشعر بك، مثلما تشعر به أنت فهو لك ،

وأنت له، صديقان، وليست هناك صداقة أو صلة أخرى لك فى هذا العالم. إذا كنت تعتبرنى صديقا لك. فثق أنك لن تكون مخلصا لصداقتى. حتى تخلص لصداقتك معه.

وقف عمر النجار يرقب الجندى الأسترالى وهو يعبر الشارع .. ما أسهل أن أصيبه فى رأسه ولكنى لن أخضع لرغبات عقلى. الليلة هى ليلة امتحان الأعصاب . سأفعل المستحيل : ساجازف بحياتى سأتعرض لمطاردة البوليس . ولكنى لن أطلق رصاصة واحدة. حتى يأذن لى فهمى.

ومشى عمر فى شارع عماد الدين .. حانات تفتح أبوابها وتغلق، وجنود يخرجون ويدخلون موسيقى ركيكة وأصوات نساء. سوط يفرقع فوق ظهر جواد. وجنود يلبسون الطرابيش .. على الرصيف الآخر يهرول شبح معمم، منظر خرافى.

كانت موسيقى راقصة تنبعث من إحدى الحانات . مد عمر يده إلى جيب سترته وأخرج المسدس. أمسك به تحت سترته ملاصقا لصدره .. دفع بقدمه باب الحانة جنود يسكرون ونساء جدران حمراء . ضوء أحمر شعر بثلاثة يقفون وراءه . احتكوا بكتفه وانضموا إلى هذا الجندى. حرك المسدس حتى برزت فوهته.

يدى تصوب نحو هذا الجندى القمئ. وهذا الذى يحتضن المرأة واستدار وخرج إلى الطريق بعد خطوات كان المسدس فى يده. ظاهرا لكل من يريد أن يراه.. انظر يا صديقى إليهم .. أدرسهم . افحصهم. غدا يأتى يوم العيد. وتطلق زغاريدك. جثثهم ترسم وهى تسقط أشكالا

جـميلة لا حـصـر لهـا . بقع الدم تفـرش الأسـفلت بألوان حـمـراء .. صرخات. أنات. سأسال فهمى عن الديناميت . نسف . نسف .. أشلاء تتطاير فى الهواء .. أذرع مبعثرة. أجساد بلا رؤوس. رؤوس تتدحرج قطع لحم . سيكون يوم عيد.. أريد أن أصنع لفهمى ما لم يصنعه أحد . أذهب إلى مشنقة . أموت .. أقدم له ما لايستطيع أن يقدمه أحد .. حتى الله .. السر الكبير بينى وبين فهمى. زعيمى فهمى .. أكبر منى بسبع سنوات، ويعرف أكثر منى بسبعة آلاف سنة. إنه يعرف كيف يقتل كيف يدمر. الشر يجب أن يدمر. الكذب يجب أن يدمر. الموت يجب أن يدمـر. لن يبـقى إلا الحق. لن يبـقى إلا فـهـمى والمسـدس والطلقات. لن تبقى إلا الأيدى الثابتة عندئذ اكتب قصيدة شعر.

أعاد عمر مسدسه إلى جيبه. وانعطف فى شارع فرعى مختصرا الطريق إلى شارع كلوت بك.

قبل هذا المساء بثلاثة أيام .. ذهب عمر مع فهمى إلى كلوت بك فى مهمة خاصة .. مهمة قتل . استقبلهما إبراهيم جاب الله، وكان عمر يراه لأول مرة .. أخذهما إبراهيم إلى بيتـه. شقة فى الطابق الثانى. كانت أم إبراهيم جالسة على البلاط فى الفسحة أمامها كوم ثياب .. صافحت عمر وهى تتفحصه بعينين مريضتين امرأة عجوز. لو تسلل أم عمر لخشيت على ولدها من عينيها الحسودتين تسلل ثلاثتهم إلى حجرة تطل على الزقاق .. اغلقوا الباب . واختلسوا النظرات من النافذة المغلقة عبر الزقاق شقة مدام روز وابنتها مارى، وضيوفهم الجنود الإنجليز .. بجوار البيت حوش مظلم مخزن للعربات الكارو.

سأل فهمى:

– هل الحوش مسكون؟

اجاب إبراهيم

– عم شنودة ينام فيه.

– هذا يفسد الخطة ..

قال إبراهيم:

– إنه مجنون.

– هذا أسوأ

– أعنى أنه صامت .. لا يتكلم أبدا . كل همه اصطياد القطط ودبحها ليأكلها مع الملوخية.

كانت الخطة .. قتل جندى إنجليزى وهو هابط من بيت مدام روز . واخفاء جثته فى قاع إحدى العربات الكارو . وسحبها إلى خارج المنطقة . كل ليلة يختفى جندى من بيت مدام روز لن يشتبه البوليس الحربى فى هذا المكان .. فهو خارج الحدود المسموح للجنود بدخولها . والجندى الذى يصل إلى هنا، يتسلل مخالفا الأوامر ، وعلى مسئوليته الخاصة .. المهم هو ألا يعثروا على الجثة هنا . ويصبح هذا المكان منجما ذهبيا للموت.

كان عمر ينصت إليهما، وهو يختلس النظر إلى الشقة المقابلة .. حجرة ضوؤها أصفر باهت وشبح أعمدة نحاسية لسرير ضخم.

همس عمر:

– هل بالبيت أحد؟

قال إبراهيم:

– بعد ساعة يبدأون فى المجئ

– يأتون فرادى؟

– اثنين .. اثنين .. غالبا .. أكلوا الجبنة والزيتون والحلاوة الطحينية، وخرج إبراهيم ليتشمم أخبار الجنود المتسللين، ويشترى علبة سجائر.

جلس فهمى وإبراهيم على صندوق خشبى فوقه حشية قطن يستعمله إبراهيم سريرا.

قال فهمى وهو يرفع قدميه ويهبط بهما كأنه يقوم بتمرينات رياضية

– إبراهيم لا يصلح .. جبان .. وقفز واقفا، وذهب إلى النافذة ..

سأله عمر:

– لماذا اخترته..

له أخت ..

– أخت :

أدار فهمى وجهه عن النافذة وجهه يوحى بخبث شيطانى.

– أخت حلوة ..

وجم عمر . فهمي بدين قليلا .. جسمه مربع . قوى . صدره بارز . رأسه كتلة ضخمة . شعره. أسود. نحيل.. فكه على شكل مستطيل يتدلى إلى أسفل كتماثيل الفراعنة.

قال عمر لنفسه . لابد أن أتظاهر بعدم الإكتراث . في الحقيقة ما الذي يهمني .. كان فهمي تقدم منه، حتى لمس ركبتيه وقال:

– بنت تعجبك ..

ورفع عمر رأسه بصعوبة .. وجه فهمي يكاد يسقط فوقه، وسأل:تحبها ؟

ـ أريدها..

ـ وإبراهيم؟

هز فهمي كتفه:

ـ قلت لك إنه جبان..

وسمعا وقع أقدام يقترب، وفتح الباب. وظهرت أم إبراهيم تلفتت باحثة عن إبراهيم. قال فهمي إنه خرج انحنت العجوز عند أقدام عمر. فابتعد. مدت يدها تحت السرير. وأخرجت صندوقا نبشته. حتى عثرت على زجاجة قطرة.

قال فهمي :

ـ سلامة عيونك يا خالتي.

- تسلم يا بنى..

- من الذى يقطر لك؟

- روحية..

- أين هى؟

- تذاكر فى حجرتها..

- قولى لها أن تأتى..

- تريدها؟

- نعم..

رغم دهشة الأم. ذهبت ونادت روحية. خيل لعمر أنه يحلم.. كابوس يكتم أنفاسه. متى ينتهى كل هذا. ويبدأ العمل. يقتلان الجندى.

جاءت روحية فى جلباب أبيض منقوش بزهور صغيرة زرقاء، وجهها مستدير أسمر طيب حلو. شعرها مربوط بمنديل وردى قذر..

- أهلا روحية.. تذكرينى.. أنا فهمى.

- أهلا بك..

- هذا عمر صديقى..

- وقف مرتبكا. فهمى يتصرف بلا قيود. لو جاء إبراهيم الآن واعترض سيقتله فهمى.

- أريد ورقة كبيرة وقلما..

ـ قلم رصاص..

ـ أى قلم..

ـ حاضر..

وذهبت روحية.. وضحك خبثه الشيطانى يتضاعف،

جسده المربع يرقص. عيناه ترقصان.

سأل فهمى:

ـ هه.. ما رأيك؟

ـ حلوة..

ـ تريدها أنت؟

ـ لا..

ـ لماذا.

ـ يكفى أنت.

ـ وأنت.. ألا تشعر بشئ..

ـ لا..

ـ هل أنت جبان مثل إبراهيم

ـ فهمى..

قالها عمر وهو يتألم.. وظهرت روحية.. ربما سمعت.،

كلام فهمى .. إنه يتكلم بصوت مرتفع. لا يعنيه شئ.. نعم لا يعنيه شئ.. وأخذ فهمى الورقة والقلم. ومضى يقول!

- أتذاكرين؟

- نعم..

- ماذا تذاكرين؟

- تاريخ.

- لا تصدقى حرفا من كلامهم..

- ومن أصدق ..

- صدقينى أنا..

قالها وهو يضحك .. وسألته روحية:

- أتمتحننى أنت؟

- إذا أردت ..

- ليتك أنت الذى يمتحننى كنت لا أذاكر..

- وماذا تفعلين؟

- أذهب وأنام..

- أو تجلسين معنا..

سألت روحية بدهشة ..

- ألا تذاكرون؟

- نعم نذاكر..

- لن أعطلكم..

تغير وجه فهمي فجأة. وقال بلهجة شبه آمرة.

- أذهبى وذاكرى دروسك.. أشكر لك الورقة يا روحية..

صوته يفيض بانفعال أخوى..

قال فهمي بعد اختفاء روحية..

- بنت طيبة..

- نعم. طيبة..

- كيف عرفت أنها طيبة..

- شكلها.

- أصدقت كلامى عنها؟

سكت عمر.. حائرا.

- تكلم.. أصدقت؟

- لا أدرى.

- من الممكن أن أكون سافلا، أو أكون شريفا..

- لا أظن أنك سافل..

ـ ولا شريف .. نحن نرتكب جرائم.

ـ أتسمي عملنا جريمة..

ـ أنا لا أسميه . أنا..

وكف فهمي عن الكلام. وقفز الى النافذة ينظر إليها.

وأمسك عمر بالورقة والقلم. وهو لا يدرى ماذا سيصنع فهمي بهما.. ربما سيرسم مواقع التربص والهجوم.

سمع فهمي يسأله..

ـ أتريد كتابة شئ.

ـ لا..هيا نلعب لعبة الأسطول.

وشرع عمر يرسم على الورقة مربعات.. يحدد عليها مواقع الأساطيل.. وهمس..

ـ لو رأتنا روحية..

ـ مازلت تفكر فيها..

ـ لا..

ـ ليس عندنا وقت للتفكير فى مغامرات نسائية..

ـ طبعا..

ـ تقولها بغير اقتناع..

- اقسم لك أنى مقتنع..

- لا.. أنت غير مقتنع..

- يجب أن تصدقنى..

- ولماذا أصدقك؟

- لأنى لا أكذب عليك..

- اسمع يا عمر .. أنا لم أفكر أبدا فى روحية..هل تصدقنى؟

- نعم أصدقك..

- حتى بعد ما رأيته وسمعته؟

- نعم..

- ولكن مستحيل أن يصدقنى مخلوق.. لقد رأيتنى أخرجها من حجرتها بلا مناسبة وأطلب ورقة وقلما لا أريدها ..

- أنا أصدقك..

- كنت ألعب..

- نعم.. كنت تلعب..

- ولكنى أفضل لعبة الأسطول.. جاء إبراهيم.. بعد أن غرقت طرادة لعمر، وغواصة وبارجة لفهمى واتجه رأسا إلى النافذة وقبع وراءها تبعه فهمى وعمر. يرقبون ثلاثتهم الزقاق الهادئ حتى رأوا الجنديين يتسللان الى بيت مدام روز.

همس فهمى..

- ابتعدوا عن النافذة، مدام روز.

ستنظر غريزيا من النافذة، لتتأكد أن أحدا لا يراها.. أنا أعرف هذا الشعور أسمع يا إبراهيم، أخرج وأشغل والدتك بعيدا عن هذه الحجرة سنطفئ النور وننتظر، عندما يدخلون حجرة النوم. ساهبط أنا وعمر الى الحوش.

خرج إبراهيم ، وأطفأ فهمى النور، وشعر عمر أنهما يلعبان لعبة جديدة يرتجف لها قلبه، ظلا واقفين بجوار النافذة عيونهما ممتدة الى الحجرة فى البيت الآخر. لا أثر لحركة.

همس عمر ..

- تأخروا.

- مازالا يساومان..

- أو يشربون..

- ربما..

- الجنود لا تستطيع كبت غريزتها.

- كل الناس مثلهم..

- الذى يحب لا يفعل هذا..

- لا أحد يحب..

تذكر عمر أمه وهى تتهم أباه بحبه لامرأة أخرى، كانت أمه تخشى أن يتزوجها، سحرت له حتى هجرها، همس..

- لماذا لا يحب أمثالنا.

- هل أحببت ؟؟

قال عمر:

- منذ عامين

- أين هى..

- تزوجت..

- مازلت تحبها..

- لا ، كانت أكبر مني..

قال فهمى وهو ينظر أمامه عبر الزقاق:

- النساء تحب..

- والرجال أيضا..

- لا.. الرجال لا يعرفون الحب..

- أبى أحب امرأة غير أمى..

- لم يكن حبا، نزوة، عين فارغة، اشتهاء لا أكثر ولا أقل.

- ربما..

قال فهمى:

- أمى أحبت أكثر من رجل..

صمت عمر، فسأله فهمي:

- أتعرف؟

- لا..

- إنها مع زوجها الرابع الآن.

أراد عمر أن يقول شيئا، ثم لم يستطع. متى يبدأ العمل لماذا لا يهبطان الى الحوش الآن، إنه على إستعداد لأن يقتحم البيت ويقتل الجميع. أشاح بوجهه بعيدا عن النافذة..

سأله فهمي:

- ماذا بك؟

- أريد الذهاب الى دورة المياه..

- انتظر حتى نهبط الى الحوش..

- كل هذا الإنتظار..

- مللت؟

- لا.

- سيطول انتظارنا..

- لو كنا نستطيع قتلهم بطريقة أخرى

- مدفع رشاش؟

- لا.

- قنبلة يدوية؟

- لا.

- خنجر؟

- لا.

- بماذا إذن؟

- لست أدرى..

- بالسم.. بالغازات الخانقة.

- لا.

- اختراع جديد؟

- شئ كهذا..

- ما هو؟

- نقتلهم.. نقتلهم.. لا أدرى..

- نقتلهم بأى شئ؟

- بالرغبة..

قالها عمر، كأنها انفجرت من صدره

- بالرغبة؟

- نرغب فى موتهم.. فيموتون..

- ونحن .. لا نصنع شيئا؟

- نحن نرغب..

- نرغب فقط..

- نعم..

- هذا تخريف..

- أعلم أنه تخريف..

- ما تقوله من اختصاص ربنا..

- لا..لا أعنى هذا بالضبط

- ماذا تعنى اذن؟

- يموت.. ولكنه لا يموت

- كيف؟

- يظل حيا.. ولكنه ميت

- كلامك مسل..

- أنا جاد فيما أقول..

- كما تشاء، أنت جاد.

- أقسم لك انى جاد.

- الظلام أثر فى عقلك

- أظن هذا.

- المهم ألا يؤثر على يدك.

- يدى لا تتكلم.

- من حسن الحظ أنها لا تتكلم.

- سأصمت.

- نعم. الأفضل أن نصمت

لاح شبح امرأة يتبعها شبح رجل لا شئ واضح.

ولكن خيل لعمر أن العمود النحاس للسرير يهتز فى أعلاه.

نادى فهمى فجاء إبراهيم مسرعا قال له:

- راقب النافذة.. عندما ينتهون.. افتح النافذة واغلقها بعنف.. سأهبط الآن مع عمر..

وهبطا إلى الحوش المظلم الذى امتلأ بالعربات الكارو.

كان عم شنودة راقدا تحت إحدى العربات يغط فى نوم متقطع، أحيانا يتمتم بكلمات غير واضحة، ولكنها غاضبة، ثم يواصل نومه، وقفا طويلا ينصتان إلى الصمت.

- نريد أن نصعد..

ـ أين..

ـ عند إبراهيم.

أطرق عمر برأسه، ثم رفعه، عيناه تتوسلان.

قال فهمي:

ـ حسن.. ابق معي..

بعد قليل أصدر فهمي أمره.

ـ اجلس.

جلس عمر القرفصاء، وخرج فهمي من الحوش، غاب دقيقة كأنها أيام وعاد، وجلس إلى جوار عمر.

ـ كنت تريد التبول.

ـ ليس الآن.

وتوالت اللحظات، أسـابيع وسنوات وقـرون، عـمـر ينصت إلى صوت فهمي إنه لايتنفس، فهمي ابتلع كل الأصوات نظر عمر إلى ساعة يده، لم ير عقارب الساعة، ومد يده في حذر إلى جيبه ولمس مسدسه.

ـ لماذا تلمس مسدسك؟

ـ لاأعني شيئا.

ـ هات المسدس.

وضع عمر يده فى جيبه وأخرج المسدس، أمسكه فهمى، حدق فيه، ووضعه فى جيبه.. انطلقت كلمات فى رأس عمر، لم يجرؤ على الإفصاح عنها، لماذا تجردنى منه، انتزعته أغاضب منى، خائف لن أسألك، أنت الوحيد فى هذه الدنيا الذى يستطيع أن يأخذ مسدسى أنت صديقى، أحبك يافهمى، هاهو الظلام يضمنا، لنقتل، لاشك أنك تريد حمايتى، يكفينى أنك رضيت ببقائى معك، ماذا أفعل لو تركتنى، الموت أهون، ليس بينى وبينك إهانة، أو إساءة، ليست بيننا كبرياء أو كرامة، أنا وأنت فوق هذا أنت إلهى، هل تصدق، بغيرك أنا ضائع لامعنى لوجودى، المسدس معك أو معى لايهم، أنا وأنت رجل واحد لو طلبت منى أن أموت فسوف أموت ليس عندى ماهو أغلى منك أطيع أوامرك، أخضع لمشيئتك.

كانت عربات الكارو ترفع أيديها فى الظلام، يرقد تحتها عم شنودة، كيف ذبح القطة؟ رائحة القطط تنبعث من جسده، لحمه لحم قطط، هذا الرجل يموء. وله سبعة أرواح غدا تنبعث من لحمى رائحة الإنجليز، عطرى دماؤهم أذنى صراخهم، عيناى جثثهم سيموتون وأحيا أنا.

سمعا صوت أقدام، فالتفت إلى فهمى كان ينظر أمامه جامدا، أى أفكار فى رأسه، إنه صلب صنم، عيناه تبرقان فى الظلام، هادئتان، باردتان ضيقتان، لايتنفس..

ابتعد صوت الأقدام، وعاد الصمت ابتلع فهمى صوت الأقدام..

وسمعا النافذة تفتح وتغلق بعنف، تصك الصمت والظلام.

همس فهمي..

ـ أنتظر.. لاتتحرك..

وقفز خارج الحوش، صمت مسموع الموت يدب في الزقاق، الليل يتحرك أيدي العربات تزداد ارتفاعا، وتشتد ضراعة، كل شئ يتأرجح أمام عمر. يسبح في الهواء. جدار البيت والعربات وجسد عم شتودة، ورأس عمر، لايمسكنا سوى يد فهمي، يد ثابتة لولا يده لسقطنا في جب أسود نظل نتأرجح ساقطين إلى الأبد، ياولد ذاكر لن أذاكر، ابني سيكون جراحا، لن أكون جراحا، ياولد الباشا سألني عنك، خجلت ماذا أقول له، أقول له عمر ابن سيد النجار راسب، ياولد ابن عمتك نبيل أصغر منك دخل الكلية الحربية، سيصبح ضابطا وأنت تلميذ خايب، ياولد سأحضر لك الإمتحان لاتذاكر وأنجح، كل ماهو مطلوب منك أن تنجح، ابني لابد أن ينجح، قال لأمي لولا عمر لطلقتك. بسببي يخضعها، من أجلي يهينها، كل شئ يتأرجح، اضرب يافهمي، اضرب في يدك الفداء دمر الباشا، والمدرسة وصوت أبي، والحياة التي لامعنى لها دمر النجاح الكاذب، اضرب السعادة المخجلة، اضرب، اضرب، ارسم الأشكال الجميلة، والبقع الملونة، كل شئ يهتز، كل شئ سوف يثبت مكانه عندما ينطلق الرصاص الخلاص، الخلاص سينهار الدمار، سيموت الموت..

سمع عمر صوت فهمي.

ـ هالو جوني..

اضرب.. اضرب..

سمع صوت جوني يتحدث مرحا..

لم يفهم شيئا. وصوت امرأة تضحك وصوت فهمي يضحك: وصوت جوني يضحك..

وضحك عمر، لابد أن يضحك كل شئ يهتز ويضحك.. أيدي العربات الكارو تهتز ضاحكة، جسد عم شدودة يغط ضاحكا، الجنون يضحك.

ظل قابعا مكانه، ضائعا، ابتلعه الجب الأسود، أحمال ثقيلة فوق رأسه مات تحت أنقاض لايراها ولكنها تجثم فوقه.. عاد فهمي، يدخن سيجارة.

ـ هيا بنا.

نهض وتبعه خارج الحوش، وصلا إلى الشارع الكبير. فجأة انحنى فهمي وأمسك بطنه بكلتا يديه، وجهه يتقلص من الألم.

ـ أنت مريض..

ـ لا..

ـ تشعر بألم..

ـ مغص حاد..

ـ تذهب إلى طبيب..

ـ لا.. سيزول..

وجه فهمي أخضر.. يلهث.. يهمس..

ـ هذا يحدث لي كلما امتنعت عن الضرب..

بكى عمر..

ـ أنا السبب.. أنا الذي منعتك.. اهتزت يدي.. كان رأسي يفكر. تقيأ فهمي ظن المارة القليلون أنه مخمور، كان بينهم جندي أطلق تعليقا ساخرا.

ـ لست السبب ياعمر. البنت هبطت معهم، خفت عليها

ـ البنت؟

ـ لانستطيع قتلهم في مكان مزدحم.

ستزعج روحية، وعم شنودة، سينتقمون من الجميع. هذا خطأ.

استمع إليه عمر كأنه نبي ينطق بوحي إليه، فهو يملك الموت والحياة والقسوة والرحمة، والحب والكره، إنه يملك كل شئ..

وكفكف دموعه.

قبل أن يصل عمر إلى شارع كلوت بك. رأى فتاة تقف بجوار الحائط تساوم جنديا راقبها لم تنجح المساومة، ابتعد الجندي، وتحركت الفتاة تمشي الهوينا، شعر أكرت وأنف مفلطح وساقان خشنتان، سأرتكب

المستحيل يافهمي، هذا هو امتحان الأعصاب مشي وراء الفتاة، انتبهت إليه وقفت.. وقبل أن تلفت كانت يده في فمها وفوهة المسدس على صدرها.

ـ لاتصرخي..

الهلع يقتلها.. تومئ برموشها.

ـ تحركي معي.. ضعي ذراعك في ذراعي..

سارا جنبا إلى جنب. حتى وصلا إلى سيارة أجرة.

ـ أركبي.

ركبت الفتاة وهو خلفها، المسدس يضغط على خصرها.

ـ جاردن سيتي.

ـ وأنطلق السائق إلى جاردن سيتي.

الشوارع مظلمة. صرخات السكارى بعيدة متراخية متعبة. جماعات الجنود تترنح. عربات البوليس الحربي نشيطة الفتاة تفوح برائحة العرق والعطور.

أنفاسها مقززة. جسدها ينتفض. عيناها تتوسلان. تعاتبان. تتلمسان منفذا للفهم، خلاصا من القلق.

وقفت السيارة أمام فيلا سيد بك النجار. دفع عمر النقود للسائق وهبط وراء الفتاة فتح باب الحديقة وسارا في ظلامها حتى وصلا باب

البدرون.

- أدخلى.

هبطت الفتاة درجات قليلة، ودخلا بهوا مظلما، أضاء عمر، بالبهو أريكة ومقاعد من القش.

لوح عمر بمسدسه.

- اخلعى ملابسك.

لم تتردد الفتاة فى خلع ملابسها تجرددت عارية تماما. وضع عمر يده فى جيبه وأخرج جنيها.

- نامى..

أوشكت الفتاة أن ترقد على الأرض.

- نامى هنا.

وأشار إلى الأريكة. جسدها العارى مقزز، وجهها مقزز لو كانت أجمل لكان الامتحان أصعب، الفتاة تنظر إلى المسدس، وتنظر إلى الجنيه فى يده. ألقى الجنيه على جسدها.

- ارتدى ملابسك واخرجى.

- أخرج؟

- نعم أخرجى.. بسرعة..

ارتدت ملابسها، وخرجت تعثرت على السلم، فساعدها.. كانت

مازالت ترتجف.

عند باب الحديقة قال لها:

ـ مع السلامة.

وتثاءب. وصعد إلى غرفته ونام.

٩

مساء ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٣

هذا الصباح قال لى فهمى. اقتلهم. ليلة العيد أقبلت! هذه هى ليلة العيد يموت العام، ويموت الجنود بالرصاص..

كان عمر النجار راكبا دراجة يطوف بها شوارع مصر الجديدة يقترب من الصحراء. ويبتعد. الليل أسود والطريق أسود، والضوء الأزرق يذوب فى السواد.

الدراجة ترسل ضوءا أزرق. قدماه ترتفعان وتنخفضان والعجلتان تدوران قدم ترتفع وقدم تنخفض. شجرة وراء شجرة مصباح بعد مصباح منحنى بعد منحنى. تقاطع بعد تقاطع. ميدان بعد ميدان، البيوت جاثمة رابضة، الحدائق لاتنتهى.

كان طريقا عريضا، أوله ميدان مظلم، ومحطة مترو، ونهايته مطار مظلم ومحطة مترو طرقات فرعية ضيقة تتسرب من الطريق

العريض. قدما عمر ترتفعان وتنخفضان، اليد ثابتة، العينان ثابتتان، المسدس داخل القميص ملتصق ببطنه.

وقف المترو، وهبط منه ثلاثة، أربعة خمسة + سبعة يهرولون ناحية الصحراء. الدراجة تسرع نحوهم. فوق الدراجة يجلس عمر. يرتدى قميصا أبيض وبنطلونا أسود. قدماه ترتفعان وتنخفضان. رأوه فلم يلتفتوا إليه.

صاح عمر..

ـ هالو أجونى..

ـ هالو تشاب..

وابتعدت الدراجة.. فوقها عمر. قدم ترتفع وقدم تنخفض، والعجلتان تدوران. ودخلت. الدراجة طريقا ضيقا. قفزت الدراجة فوق حفرة. ارتج جسد عمر ولكن اليد ثابتة والعينان ثابتتان.

هذا الصباح قال لى فهمى. اقتلهم. ماالذى كان يعنيه. لاأدرى صوبت المسدس إلى صدر الفتاة. حملتها إلى البيت. جردتها من ملابسها. ألقيت الجنيه على جسدها العاري مالذى كنت أعنيه. لاأدرى.

رأسى هادئ. مستريح. البيوت مصطفة فى نظام. الشوارع خالية. على الجانب الأيمن رصيف. وعلى الجانب الأيسر رصيف. وحدائق وأبواب. وطريق تسير فوقه الدراجة. فوق الطريق سماء سوداء..

خرجت الدراجة إلى الطريق العريض. قدم ترتفع وقدم تنخفض.

والعجلتان تدوران. هناك هدف يتحرك طويل يمشي بين عمودين. تبلغ قامته نصف العمود. الدراجة تسرع إليه مائة متر سبعون مترا. خمسون لايلتفت إلى الوراء على يمينه حديقة. عشرة أمتار. المسدس يحتك ببطني. المسدس في يدي. يدي تصوب. إصبعي على الزناد.

ـ جوني..

وجهه أبيض. شعره أصفر. عيناه واسعتان. يدي تضغط على الزناد. ملابسه صفراء صوت ينطلق..إنه ورائي. نظرة واحدة إلى الوراء. نظرة واحدة.

أدار عمر رأسه فرأى جثة ممددة على الأرض. الليل أسود والطريق أسود. الضوء الأزرق يذوب في السواد. قدم ترتفع وقدم تنخفض والعجلتان تدوران. شجرة وراء شجرة مصباح بعد مصباح. منحنى بعد منحنى. تقاطع بعد تقاطع. ميدان بعد ميدان. صدر عمر يعلو ويهبط. الهواء بارد يلفح وجهه. كم الساعة الآن. الثانية. هذا هو العام الجديد ليلة غد أعود وأقتل.

١٠

١٥ ابريل سنة ١٩٦٢

مساء تلك الليلة، ذهب ثلاثتهم سالم وزينب وعمر، إلى السينما وكان الداعى هو عمر.

قال عمر لنفسه، لقد لبيت دعوتهما أكثر من مرة ولابد أنا أدعوهما بدورى. هذا أمر ضرورى رغم أنى لاأستريح له، كما أنه ليس معى النقود الكافية لأ نفق عليهما. وأنا فى العادة لا أقبل دعوة أحد. وعندما إحتفل رئيس الأرشيف بزواج إبنته، دعانى ولم أذهب. أعتذرت بمرضى، أنا لا أشعر بحاجتى إلى الإتصال بالناس. الكلام يضايقنى والضحك يستفزنى والنكات التى أسمعها لا أفهمها. أنا أحب اليوم الرتيب. أستيقظ وأغسل وجهى وأصنع كوب شاى وأرتدى ملابسى واخرج إلى الشارع. وأركب الأتوبيس. وأدخل الوزارة. وأجلس إلى مكتبى وأعمل. وأخرج. وأعود إلى بيتى. ويوم الخميس أذهب إلى السينما. وأشترى كتبا مهمة أقرأ صفحات قليلة منها ثم أنساها. يوم

الجمعة أنام طوال النهار.

أحـيـانا أفكر فى الزواج. وأصل إلى قرار بأنه ضـرورى ولكنى لم أتزوج حتى الآن، لأنى أكسل عن الإتصال بالناس والبحث عن زوجة.

عندما يفكر عمر النجار فى الزواج يتذكر لحظة خروجه من السجن. وقف فى الشارع يتمنى لو ذهب بعيدا إلى كل مكان ، ولكنه شعر بعجز حقيقى عن التقدم خطوة واحد. وأدهشه خاطر غريب همس له بأنه لن يستطيع الحركة بسرعة وحسم إلا إذا إلتفت إلى الوراء ومشى عائدا إلى زنزانته.

كان عمر يذهب إلى بيت سالم، وهو يشعر أن شيئا أقوى منه يسوقه إلى موقف غامض لا مبرر له. وفجأة أحس بأن هذه الدعوات تتحداه، وأن عليه أن يرد التحدى بالتحدى. عين بعين وسن بسن. ودعوة بدعوة.

يجب أن أصمد وجها لوجه. هو سالم عبيد، وأنا عمر النجار.

قبل سالم عبيد دعوة عمر دون أن يظهر التردد الكبير الذى يعانى منه. كان سالم يريد أن يحدد بدقة أفكاره.

لماذا التقى بعمر؟

من أجل الكتاب، أم من أجل زينب؟

أهو تاريخ مصر الذى أبحث عنه. أم تاريخ علاقات زينب سلامة؟

هل أنا المؤرخ الكبـيـر الذى يدرس ويبـحث بأمـانة. أم أنا الزوج العجوز المخدوع الذى فقد سيطرته على زوجته. ولا يريد أن يطلقها

قبل أن يعرف بدقة كل التفاصيل قبل أن يخدعها الخدعة العظيمة. فيصنع لها بنفسه المغامرة. ويرتب لها عناصر الخيانة. ويقدم لها العاشق ويتمتع برؤيتها وهى تتحرك وتفكر وتشعر، كما يشاء، وكما يريد. كأنها فأر يجرى عليه التجارب فى المعمل. وفى الوقت المناسب، ينهى التجربة ويتدخل معلنا أنه يعرف وأنه لم ينخدع أبدا، وأن كل التفاصيل فى جيبه، ثم يتعالى ويترفع، ويطردها كرجل ذكى بارع واثق من نفسه. غير مخدوع.

الشيء الوحيد الواضح، هو هذا الهمس المجنون الذى يراودنى، ويؤكد لى أن علاقة ستتم بين زينب وعمر النجار.

وأن شيئا ما سيحدث من هذه العلاقة سيكون فيه القضاء على زينب فجيعة تنهى كل أحلامها فى المغامرات. وقبل أن يحدث هذا الشيء. أنا غير قادر على التصرف. لا أطلقها. ولا أعيش معها. لا أغفر لها ولا أعاقبها. لا أنفصل عنها، ولا أتصل بها، ولقد كنت أتجاهل زينب وأتفرغ لعملى. ولكن عملى يخرج عملا ناقصا. لا يرضينى. ومنذ زمن بعيد وأنا أعرف عن يقين أن المؤرخ يكتب تاريخ نفسه ويكتب تاريخ دمه. وهو يكتب تاريخ بلده. ولكن نفسى مليئة بمشاعر العجز والشك وعدم القدرة على المصارحة. زوجتى التى تنام معى على سرير واحد بينى وبينها ألف حجاب. وعندما أسكت وأتجاهل الشك الذى أعانيه نحوها .أسكت وأتغاضى رغم أننى عن حقائق يجب أن أدركها عن تاريخ بلدى.

كان سالم عبيد يعانى فى السنوات الأخيرة. شعورا حادا بالحيرة والشك وعدم التصديق والدهشة. وهو يتابع أعمال ثورة ٥٢ فى مصر. والتقى فى أكثر من مناسبة برجال مسئولين قادة ووزراء. يرحبون به. ويطلبون منه الإدلاء برأيه. فيعجز عن التعبير. ويندفع فى إطراء كل تصرف، ومدح كل قرار. وإعلان تفاؤله المطلق. وتأييده التام. ويتملق الكبير الذى يسأله ثم يخرج من مكتبة ورأسه يدور.

لماذا قلت هذا الكلام لماذا تملقت ونافقت لست واثقا فى قرارة نفسى من شىء. ولكن النتائج باهرة. تأميم قناة السويس نهاية رائعة لمأساة فرديناند ديلسبس. ومع ذلك أشعر أن كل شىء مؤقت. كأنه غير حقيقى. كأنه لن يدوم. كل شىء يعوم فى بحر من الفوضى وعدم الفهم ولكنى أعجز عن مواجهتهم أخشى أن أسمع السؤال ،ما الذى تفهمه أنت يا أستاذ عبيد؟

وما الذى تقترحه أنت. كيف نقضى على الفوضى. وكيف يتم الفهم بماذا أجيب؟

بماذا أجيب؟

لو كانت زينب هى التى يسألونها إنى أحسدها . إنها بعيدة عن كل هذا لا تفكر فى شىء ولا تقلق لشىء. لن تقول شيئا مفيدا. ولكنها تعبر عن نفسها بدقة.

أنا أريد أن أعيش. ألهو وأفرح ولا أشغل نفسى بالهموم هذا هو ما كانت تقوله زينب لو سألوها.

وأحيانا يناقش سالم زوجته فى السياسة. يناقشها بينه وبين نفسه ويدير حوارا بينهما يسأل الأسئلة ويتولى الإجابة عن زينب.

- والفقراء يا زينب؟

- لا شأن لى بهم.

- إنهم يعيشون معك فى بلد واحد.

وما ذنبى أنا؟

- ألا تفكرين فى بلدك؟

- أنا لا أفكر إلا فى نفسى.

- هذه أنانية.

- من يقول غير هذا نصاب.

- ووطنك يا زينب؟

- ليس لى وطن.

- كيف تأكلين وتشربين وترتدين الملابس الأنيقة وتتزينين بفصوص الماس وأساور الذهب؟

- أنت تعطينى النقود.

- تصورى الإنجليز عادوا إلى مصر وصادروا كتبى وفصلونى من الجامعة.. تصورى هذا يا زينب.. أليست لك مصلحة فى استقلال مصر؟

ـ ولماذا يفصلك الإنجليز؟

ـ لأنى أكرههم. ولن أبيع ضميرى وأفرح لعودتهم.

ـ ومن طلب منك أن تبيع ضميرك؟

ـ لأستمر فى الحصول على المال الذى أعطيه لك.

ـ لا أحب أن تبيع ضميرك.

ـ ومن أين أحصل على النقود؟

ـ أحصل عليها أنا.

ـ ومن أين تحصلين على النقود يا زينب؟

ـ الرجال كثيرون..

ـ تبعين جسدك ؟

ـ ما شأنك أنت؟

ـ هذه أخلاق سيئة.

ـ لا أعرف معنى كلمة أخلاق.

ـ ما الذى تعرفينه يا زينب؟

ـ أعرف نفسى.

ـ وما الذى تعرفينه عن نفسك.

ـ أنا جميلة. والرجال يحبوننى.

ويفزع سالم من هذا الحوار. فيهز رأسه محاولا أن يفيق منه. ويتهم نفسه بالمبالغة. والإفراط في الشك. وأحيانا يتهم نفسه بأن الصورة التى يرسمها لزينب في خياله ما هى إلآ انعكاس لبعض الشر الذى فى نفسه.

انتهى الفيلم. وكان المشهد الأخير يصور موت نابليون بونابرت. ولكن سالم نهض استعدادا للخروج وهو يفكر فى مشهد آخر يصور أول لقاء لنابليون بحاكم جزيرة سانت هيلانة.

قال نابليون بتأكيد قاطع لحاكم الجزيرة..

- مصر هى أهم بلد فى العالم. كان سالم واثقا أنه قرأ هذه الكلمات على لسان نابليون في أحد كتب التاريخ. وضايقه أنه لا يذكر اسم الكتاب ولا اسم المؤلف.

وكان عمر يشعر بضيق هو الآخر لم يعجبه الفيلم.

الفيلم سخيف. تهريج رخيص. لا شيء أسخف من الفيلم سواى. ما الذى أفعله ما صلتي بهذين الزوجين حتى أدعوهما إلى قضاء سهره معى. لن تكون بيننا صداقة. وهذه المرأة لها وجه وقح. يخيل إلى أنها تتفرج علينا. أنا وسالم. كما لو كانت تشاهد لعبة مسلية. يجب أن أعترف لنفسى أنى أنفر منها. وأنفر من نفسى.

أمثل أمامها. وتمثيلى سخيف. يجعلنى أقطع صلتى بهما أنا لم أقرر الكلام بعد. سالم ينتظر كلماتى! لو تكلمت فسيكون ذلك بدافع التمثيل. بدافع التظاهر. مستحيل أن أتذكر فتلك أيام بعيدة حتى لوتذكرت. فلن

أتذكر إلا حوارا سخيفا ومشاهد سخيفة. وهذا خطأ أنى لا أعرف شيئا. كل شىء قد ذهب. كل شىء قد فات. الذكرى ماتت. ضاعت. هذا الجهد الذى أقوم به لا معنى له. لقد تورطت فيما لا أريد.

كان ثلاثتهم يتجمعون ويتفرقون فى زحام الخارجين من السينما، حتى وصلوا إلى الباب الخارجى.

قال عمر وهو يقاوم اندفاع الناس من حوله.

ـ أسف.

قالها وهو يبتسم معتذرا.

فابتسمت عينا زينب. وقالت وهى تتظاهر بالدهشة:

ـ ظننت أن الفيلم أعجبك.

ـ أبدا..

واجهته زينب بعينيها. بالوجه الذى يشعر عمر بوقاحته.

كانت كمن يتحدث بعينيها.

المهم هو أنك دعوتنا إلى السينما فارتديت هذا الفستان الأسود وكشفت عن ذراعى. وتعطرت واعتذرت لسعيد. المهم أنى رأيت سالم المسكين يذعن لك. تصور سالم يذهب إلى السينما ويسهر حتى منتصف الليل خارج البيت. إنه يتعذب. أنظر كم هو ساهم شارد أنت يا عمر الذى تعذبه. هذا هو أفدح ثمن دفعه سالم من أجل تأليف كتابه.

ولكنك بطيء يا عمر كان ذراعك يفر مذعورا من ذراعى. وساقك تستعد ملسوعة من لمسة ساقى! ألم يشجعك الظلام والعطر ما فائدة اللقاء، والسينما والظلام والعطر. إذا لم تنتهز الفرصة لنتسلى، ونمضى وقتا لذيذا؟ كنت تلهث يا عمر سمعت أنفاسك تلهث.

قال سالم فجأة:

- كانت الوقائع التاريخية سليمة اعتمدوا فى القصة على كتاب «روز» عن حياة نابليون.

كان سالم فرحا لأنه تذكر المؤلف والكتاب. وتحرك استعدادا لعبور الشارع حيث تنتظر سيارته. ودعا عمر ليركب معهما.

هتف عمر:

- لن تذهبا الآن.

قال سالم فى دهشة:

- الوقت تأخر.

وتحمست زينب لمراقبة دهشة سالم.

قال عمر وهو يرفع رأسه فى كبرياء:

- إنى أدعو كما للعشاء.

- مستحيل.. أنا لا أتناول العشاء الآن أبداً. هذا يقضى على.

- ولكنى مصمم.

والتفت عمر إلى زينب يسألها:

ـ ما رأيك..

قالت وهى تتظاهر بعدم الإكتراث.

ـ سالم لا يسهر:

ـ ولكن ما رأيك أنت.

قال سالم بلهجة حاسمة.

ـ السهر بعد الآن مستحيل.

قال عمر متحديا.

ـ ولكنكما ستسهران..

برقت عينا عمر. وكأنه فقد السمع فلم يعد ينصت لكلام سالم. كان عنيدا. إن آخر شيء يريده هو البقاء معهما. ولكنه يلح ويصر. لا يسمع اعتذارا، ولا يقبل رفضا، ولا يأبه بمحاولات التخلص، كل ما يريده هو محاصرتهما. إحاطتهما. بكل ما يشعر به من ضيق وسخف، لابد أن يستمر هذا الموقف الذى لا معنى له. يستمر هذا اللقاء الذى لا يريده. إنه يشعر الآن فقط أنه لا يمثل. يريد أن يقبض عليهما، يخرجهما، ويخضعهما، يحصل على استسلامهما لن يتحركا إلا بأذنه ولن يعودا إلى بيتهما إلا بأذنه. حتى ولو وقع سالم ميتا على الأرض. سيحمل جثته إلى حيث يريد.

سألت زينب فى ذهول..

- إلى أين تريد الذهاب بنا.

- سنأكل فى الطريق.

قال سالم يائسا:

- أين؟

- عند رجل أعرفه. دكان كباب.

- أين؟

- فى شارع كلوت بك.

اختار عمر النجار مكان العشاء بغير ترتيب. وقبل أن تسأله زينب إلى أين يريد الذهاب لم يكن يعرف إلى أين يذهب بهما. وكان الأرجح أن يدعوهما إلى سندويتشات فى أحد محلات سليمان باشا. التى يتردد عليها بعد السينما يوم الخميس. ولم يكن عمر يعرف دكان الكباب بشارع كلوت بك ولا الكباب بشارع كلوت بك. ولا كان يتوقع أن يتذكره وهو لم يتردد على هذا الدكان إلا مرة واحدة، وكانت صدفة. وحدث ذلك يوم التقى عمر بالأستاذ سالم لأول مرة فى حديقة جروبى. كان يوم سبت أو أحد أنه لا يذكر بدقة ولكنه ليس على أية حال يوم خميس. ليلتها ارتدى عمر ملابسه فى المساء وخرج على غير عادته ومشى فى الشوارع لا يذكر أين سار ولا يذكر أنه رأى شيئا. أو كان يفكر فى شىء. كان يسير، فقط يسير، منحنى بعد منحنى. مفترق

طرق بعد مفترق طرق. ميدان بعد ميدان. وللحظة انتبه أنه يسير فى شارع فؤاد كان ذلك عند ناصية الأمريكين. حيث يتقاطع الشارع مع شارع عماد الدين وانحرف عمر فى شارع كلوت بك وفجأة شم رائحة شواء. وشعر بالجوع. فوقف أمام الدكان. وأكل.

ركب ثلاثتهم العربة. وقادها سالم إلى شارع كلوت بك. كان واجما وفى رأسه صور متلاحقة لمدن تحاصرها جيوش، وملوك وأبطال يحاصرهم ثوار. وأزمات تنتهى بكوارث.

وقال صوت داخله.. متى ينصلح الحال.

أما زينب فقد استولت عليها الدهشة، ولم تصدق أن سالم يقود عربته إلى شارع كلوت بك الذى ارتبط اسمه بحياة يأباها سالم..

كانت تشعر بقلق، نفس الإحساس الذى يفيض بها وهى ذاهبة للقاء عاشق جديد. وتذكرت أكثر من شقة وأكثر من سلم، وكأنها ذاهبة فى مغامرة...

شقة، سلم، وجه بواب، التفاتة إلى الخلف، أعبر بهو العمارة بسرعة لهفة.. عرق خفيف يفسد زينتى.. هذا هو كل ما يبقى لى.. كا ما بقى لى.

كانت زينب لا تذكر وجوه عشاقها. تعودت على النسيان. ربما تعودت على ما هو أقوى من النسيان. إنها لا تؤمن بالماضى.. ولا تصدق أن ما حدث قد حدث فى السنوات الأخيرة كان مستحيلا أن

تذكر أن يوما ما كان لها أب أو أم. ونسيت تماما محمود... وفى غمار النسيان نسيت أشياء أخرى..

عادت ذات ليلة إلى بيتها متأخرة وكان سالم ينتظر فى البيت وحده. وليس فى البيت طعام..

قال لها سالم متذمرا:

ـ تتركيننى أجوع. ألا تؤمنين بالله..

أجابت متحدية:

ـ لا..

وفزع سالم من أجابتها. ومن لهجة صوتها. فصمت. وراقبها ذاهلا. وهو لا يصدق أن امرأة مصرية، تصل إلى الإلحاد بكل هذه الجرأة والقحة.

إن شيئا ما أخطر من الجهل أو الإنحلال الخلقى يؤدى بالإنسان إلى الكفر والإلحاد.. ما هو هذا الشيء؟

ولا يكف سالم عن سؤال نفسه.

وينتهى به الأمر إلى ذلك الشعور الغريب الذى ينتابه بأن زينب أجرأ وأصرح منه.. ثم ذلك الشعور غير الواضح بأن أفكاره عن زينب، ما هى إلا انعكاس لبعض الشر فى نفسه. وهو شعور لم يدافعه سالم ولا يطيق أن يقف عنده.وإذا أحس به كان هذا بداية تجاهله لما يشغل فكره ومع الوقت تعود سالم أن يقول لنفسه أن كفر زينب بالله غير حقيقى.

وأنه احتجاج على فقدان أبيها وهى صغيرة، وفقدان حبيبها محمود وهى فتاة تستقبل الحياة، غير أن هذا التفسير القائم على التحليل النفسى لم يكن يقنعه تماما. وإن كان يرتاح له.

أما زينب فلم تكن تفكر فى الله، ولا تشغل نفسها بتأمل وجوده.. لا لأنها مسألة ثانوية لا تستحق التفكير، ولكن لأن الله لا يخطر على بالها ولا يمر بخيالها أو يؤرق أحلامها، ومع ذلك أحست زينب أكثر من مرة وهى تغادر أحد عشاقها أنها أكثر من إنسانة.. وأنها فوق جميع البشر وإنها أم الدنيا كلها ،وأن من واجبها أن تمنح الرجال جميعا المتعة والأمومة. وغالبا ما يستولى عليها هذا الشعور فى بداية العلاقة أما فى نهاية العلاقة فتشعر زينب بلحظة ندم. وتعانى من لحظة ألم .. ثم تنسى كل شيء.. وكأن العلاقة لم تكن.. وعندئذ تتحول إلى امرأة جديدة.. كأنها ولدت الساعة. ولدت كبيرة جميلة راغبة مرغوبة.. جاءت إلى الحياة تقتحمها بجسدها. بصوتها بنظراتها. بشعرها.. بملمس يدها. بضحكاتها. وتنطلق باحثة وراء مغامرة ببراءة طفلة.

ودخلت العربة شارع كلوت بك. أنوار صادرة من دكان بقال، وكلاب تنبح، وجماعة من الشباب يمشون متسللين فى الظلام، وصيحات من بعيد وروائح غريبة. وأزقة مظلمة صامتة. ورجل يسعل ،اقف بجوار جدار .. وشرطى يدير رأسه فجأة.. الشارع ضيق، وصبية يجلسون فى حلقة على الرصيف انحنت رؤوسهم فوق شيء ما.. وأعمدة «البواكى» تتوالى. غليظة.. قذرة...

أشار عمر إلى دكان أمامه منضدتان.. رائحة الشواء تنبعث منه. وهبط من العربية كان محنى الظهر. فلما وقف خارج العربة رأى أمامه زقاقا مظلما. ورأى فى نهاية الزقاق أطياف فهمى وجاب الله وعم شنودة وبيت مدام روز وروحية والجنود الإنجليز وعربات الكارو في انحوش.

كاد يسقط من الدوار..

كان سالم يتكلم، فلم يسمع عمر إلا آخر كلماته.

ـ صدقنى أنا لا أتناول العشاء أبدا..

قال عمر لزينب:

ـ أنت ستأكلين معى..

ـ أنا خائفة..

قال عمر بسرعة وهو يتجه إلى الدكان:

ـ الناس هنا مسالمون..

الدكان الذى دخله عمر لا يغلق أبوابه أبداً، خلف الواجهة الزجاجية تتدلى شرائح اللحم تحتها فرن نحاسى كبير، يتوهج الفحم داخله، وبالقرب من الفرن أكوام من الخبز، وأكثر من ذبابة حائرة لم تنم.. دكان ضيق، دهليز قصير مطلى بالجير الأبيض الذى اتسخ وسقطت أجزاء منه، وبقيت قشور على وشك السقوط.. داخل الدهليز الضيق عدة مناضد مزدحمة بالزبائن خليط غريب، بعضهم فى ملابس العمال،

والبعض من رعايا مملكة الليل، الملابس الضيقة النظيفة القديمة.. والقمصان الزرقاء والحمراء.. والشعر الأكرت المثبت فوق الرأس بالصابون، العيون المحمرة، والأنوف الضخمة، والجلسة التى تجمع بين الحذر والتظاهر باللامبالاة.. وصبيان الدكان يتحركون فى صمت. كانوا يصرخون أول الليل، ثم هدأت الآن أصواتهم، وتراخت حركاتهم.. فإذا صدر من أحدهم صوت فهو ممطوط أو أجش. الدكان مضاء بالنيون.

همست زينب فى جلستها بجوار سالم:

- إلى متى تستسلم لنزوات هذا المجنون.

لو كان ذراعه التصق بذراعى، لو كان ساقه مس ساقى:لا ستطعت أن أمنعه من المجئ إلى هنا.. لاستطعت انقاذك يا سالم..

- هذا الولد يحيرنى يا زينب.. لو ظل على هذا الحال فسأتخلى عن المشروع كله..

أيرضيك أن أتخلى عنه؟ أما زلنا قادرين على التراجع؟

وإذا تراجعنا فما الذى نصنعه؟ تبحثين عن عاشق آخر لا أعرفه.. وأغرق أنا فى شكوكى إلى الأبد..

سألت زينب:

- ما الذى جاء به إلى هنا؟

- لا أدرى..

ـ مكان مشبوه ...

ـ سنغادره سريعا..

هذا المكان هو نهاية مطافك يا زينب..

قالت زينب:

ـ أخشى أن يكون لحم قطط.

ـ لا تأكلى..

ـ كيف أرفض.. إنه مجنون.. أطرق سالم برأسه، ثم نظر بعيدا.. نعم إن زينب لن تستطع عصيان عمر.. إنه يعرف ذلك.. وإن كان لا يستطيع تفسيره.

سألت زينب:

ـ هل جئت إلى هنا من قبل؟

ـ نعم..

ـ متى؟

ـ منذ سنوات بعيدة..

ـ قبل زواجنا..

ـ أيام الحرية..

ـ لماذا؟

- جئت مع صديق..

وابتسمت زينب فى رد ظاهر تدعوه لأن يشبع فضولها..

قال سالم:

- كان لصديقى صلة ببنت تعمل فى محل صيدناوى اسمها بولا..

- صديقته وحده..

- كان يظن هذا..

- وأنت .. ألم تكن على علاقة بها..

- أبدا..

قالت ضاحكة:

- إعترف بالحقيقة.. لن أحاسبك على هذا الماضى..

قال سالم بهدوء شديد:

- وهل بيننا حساب على الحاضر؟

تجاهلت زينب إجابته وسألته:

- وماذا فعلتما؟

- جئنا فى عربة صديقى.. وصعدنا وانتظرنا حتى فرغت من ارتداء ملابسها.. وخرجنا إلى شارع الهرم..

- وبعد ذلك..

- تركتهما..

- حكايتك غير مسلية.. أنت تخفى الحقيقة..

كل الذى أغفله سالم.. أن صديقه نسى أن يغلق باب عربته بالمفتاح.. هبطوا مع بولا.. وجلسوا فى العربة.. وفوجئوا برائحة قذرة.. كان بعض الأولاد قد تسللوا إلى العربة فى الظلام، وفتحوا وقضوا حاجتهم فوق المقاعد، تلوثت ملابسهم جميعا..

كان سالم يرتدى بدلة بيضاء شاركسكين.. وبكت بولا. وقضوا ساعتين فى تنظيف أنفسهم وعندما ذهبوا إلى شارع الهرم. كانت بولا وصديقها يضحكان، وكان سالم يفكر فى جسد بولا وهى تقف أمامه بعد أن خلعت الفستان.. وعندما عاد سالم إلى البيت.. أيقظ فاطمة الخادمة وتخيل وهى راقدة فى سريره، أنها بولا.

وقفت أمام عربة سالم، عربة أخرى فخمة، هبط منها ثلاثة شبان.. نظروا إلى زينب ونظرت إليهم، أحدهم قصير نحيل، وكأنه قائد لهم. كان الآخران أطول منه. أحدهما بدين وجهه باسم والثانى رياضى له مظهر مصارع أو ملاكم، وقفوا أمام الدكان، وخرج لهم رجل يبدو أنه رئيس الصبيان، أو ربما صاحب المحل.. وفى هذه اللحظة ظهر صعلوك قصير بشرته سمراء، حدوده سمينة. وعيناه واسعتان بياضهما كبير.. شعره أسود ناعم يتدلى على جبهته.. ووقف الرجل أمام الشبان الثلاثة.. يتهته، ويتلوى، ويقفز فى الهواء ويقلد الغوريللا..

خرج عمر من الدكان يحمل رغيف.. قال وهو يقدم أحدهما

لزينب:

ـ هذا المهرج يشبه نابليون بونابرت..

قالت زينب:

ـ حرام عليك..

وقال سالم:

ـ هذا صحيح.

قالت زينب لعمر:

ـ أركب..

قال عمر شارداً:

ـ انتظرى.

ـ ما الذى تنتظره؟

قال عمر باهتمام طفل:

ـ أريد أن أتفرج على هذا الرجل.

صاحت زينب:

ـ ليس هذا وقته..

كان عمر يقضم الرغيف.. فضحك وهز كتفيه.. وتقدم ناحية المهرج.. أشار الشاب الأنيق الذى فى يده مفاتيح العربة إلى المهرج،

فتقدم منه محنى الظهر، يداه متدليتان تتراقصان حول جسده .. ورفع الشاب يده وهوى بها على قفا المهرج. الذى تمايل ضاحكا وهو يتراجع بين صجيج الضحكات التى كان أعلاها تلك الصادرة من الشاب السمين..

همست زينب خائفة:

- ما هذا ..

- تمتم سالم:

- حماقة..

ونادى على عمر، ولكن عمر أشار بيده أن أسكت، وهو يقضم الرغيف وينظر إلى الشاب القصير وهو يهوى بيده على قفا المهرج..

- عمر لن يأتى..

صاحت زينب:

- نتركه..

- إصبرى..

كان سالم يتذكر أخاه الشيخ سليمان المجذوب والعيال تطارده.. وقفزت على لسانه كلمة الشعب المصرى..

وتذكر أيامه فى فرنسا، صور سريعة لمسيو لافارج وحجرته فى سان ميشيل وأحزان غامضة ومتى يتصلح الحال.

وتداعت خواطره. ليلة زواجه. أسوان. وجه محمود. محمود بطل التجديف في الكلية.

وفي العادة لا تنتهي هذه الصور، صنبور ماء ينفتح في رأس سالم، ولا يستطيع إحكام غلقه، دائما تسقط صورة أو ذكرى. أو فكرة، تسقط إلى رأسه نقطة نقطة، ويبذل جهودا للسيطرة على هذا الضجيج، ويحاول أن يغلق الصنبور بكل قواه، فتتدفق المياه مرة أخرى. عمتي زكية، زينب كانت لطيفة منذ لحظة، نيرون حرق روما، العادة السيئة التي أدمنتها في مطلع شبابي قضت على كل قدرة على التركيز، كتبي مركزة، لم أكتب كلاما مشوشا أبدا هذا المهرج ليس أبله، إنه خبيث، إنه يلعب لعبة ماكرة، لورد بالمرستون، الأمر لا يحتاج إلى شفقة ولا عاطفة، لابد من تأليف الكتاب.

وأطلق سالم كلمات سريعة بصوت عصبي:

ـ هذا الرجل مسكين..

كان الشاب مازال يلعب لعبة الصفع على القفا، وعمر النجار يقف على بعد خطوة واحدة منه..

قالت زينب فجأة:

ـ أخشى أن ينهور عمر.

قال سالم:

ـ هذا هو نفس ما أفكر فيه فانزعجت زينب. أكد لها سالم مخاوفها، فسألته:

ـ أيتدخل لإنقاذه.

همس سالم:

ـ أريد أن أعرف.

ـ ناد عليه..

ـ لا فائدة من النداء..

فجأة تقدم عمر النجار ووقف بين الشاب الذى يصفع والصعلوك والمهرج الذى يتقبل الصفعات. كان وجه عمر يبتسم. وسأل الشاب فى رقه بالغة.

ـ لماذا تضربه..

ـ هو الذى يريد.

التفت عمر إلى الصعلوك فانحنى أمام عمر يدعوه لأن يضربه على قفاه. ثم أشار منهما إلى رغيف عمر.

وقال الشاب ضاحكا:

اتفضل أضربه على قفاه.. العشرة بقطعة كباب وضجوا ضاحكين.

نقل عمر بصره بين وجه الشاب. وقفا المهرج. ابتسامته لا تفارق شفتيه وفجأة تحرك ناحية العربة. وأسرع سالم بمغادرة المكان.

التفتت زينب إلى عمر فراعها أن وجهه متجهم يتصبب عرقا ولما التقت عيونهم سمعت صوت عمر، صريرا يخرج من بين أسنانه..

ـ أوغاد..

قالت زينب:

ـ ولكنك كنت تبتسم.

همس عمر:

ـ كنت أود قتلهم.

قال سالم فى برود شديد

ـ هذا زمن مضى يا عمر.

قال عمر محتدا:

ـ عندما أقول أنى أردت قتله.. فإنى أعنى أنى أردت قتله. وساد العربة صمت. زينب تنظر أمامها نظرات جامدة لا ترى شيئا، يرهبها صوت عمر. وسالم لا يدرى أيلوم نفسه أم يهنئها لأنه استطاع إثارة عمر! ولكنه الآن يفضل السكوت.

كانت العربة تجتاز ميدان المحطة، وقد أتسع الأفق، بالليل والأنوار الكثيرة وشبح تمثال نهضة مصر، وسيارات مسرعة، وانفجر عمر.

ـ هناك.. فى كلوت بك.. كنا نقتلهم.. يموتون كالكلاب انظرا.

صرخت زينب.

كان فى يد عمر مسدس. والتفت سالم بسرعة. وأوقف العربة وشلل يسرى فى عقله وجسده.

قال سالم بصوت وقور ولكنه يفضح خوفه

ـ ما هذا يا عمر..

صاح عمر:

ـ أنت تستفزنى..

ـ لم أقصد أبدا..

قاطعه عمر:

ـ عندما أقول أنى أردت قتله..

فيجب أن تصدقنى..

ـ أنا أعرف يا عمر..

قال عمر بصوت كالفحيح:

ـ إذن لماذا تقول أنه زمن مضى..

ـ أعتذر لك..

كان المسدس مصوبا نحو سالم، وأبتسم عمر، وكأنه لم يكن يصيح. أصبح دمثا وديعا صافى الوجه.

ـ لا تخف..

ـ لست خائفا..

ـ لا.. أنت خائف.

ـ فى الحقيقة نعم..

قال عمر مخاطبا زينب:

ـ وأنت أيضا خائفة..

ـ نعم..

ـ إنه لا يؤذى.. خدى.. أمسكيه..

ومد يده بالمسدس نحوها. المقبض ناحيتها.. والفوهه نحوه..

همست زينب متراجعة، منكمشة.

ـ لا.. أرجوك..

أصر عمر.

ـ لا تخافى..

ـ أرجوك .. لا أريد..

ـ المسيه بيدك..

كان عمر كمن يتوسل إليها..

ومدت زينب يدا حذرة. ولمسته. فهتف عمر بصوت أشبه بالصوت الحنون.

- اقبضى عليه.. خذيه فى يدك..

وقبضت يد زينب على المسدس، فتركه عمر فى يدها

صرخت زينب..

- لا تتركه معى.

وسقط المسدس فى حجرها.

وهمس سالم سائلا:

- به رصاص؟

قال عمر ضاحكا:

- لا..

وأمسكت زينب المسدس بحذر شديد، وقدمته لعمر. فأخذه ووضعه فى جيبه!!

قالت زينب وهى تضحك بعصبية.

- أفزعتنى..

قال عمر بإطمئنان شديد

- هذا وهم.. خوف لا مبرر له.. وأدار سالم محرك العربة، وانطلق بها، ومضت دقائق قبل أن يسأل فى حذر..

- ولكن لماذا تحمله معك.

- لا أدرى.. هذه أول ليلة أحمله معى منذ سنوات.

- وما السبب؟

- وجـدته أمـامى صـدفـة فى الدولاب.. كنت أبحث عن منديل..

فسألته زينب:

- أتحتفظ به فى الدولاب.

- فى درج لا أستعمله..

نظرت زينب إلى الجيب الذى فى داخله المسـدس. وقالت فجأة وعيناها تبتسمان ابتسامة غريبة. ويدها ممدودة إليه.

- أرنى..

- المسدس؟

- نعم..

وأخرجه لها، وقبضت عليه، تتأمله وتتحسه.. فى دهشة، وسألت..

- أتدربنى على إطلاق الرصاص.

١١

قالت زينب لسعيد

ـ أمس كدت أموت بالرصاص.

لم تعجبها ابتسامته، إنه لا يصدقها أو لعله يظن أنها تبالغ. أو تريد أن تقول كلاما مثيرا، حكاية لا معنى لها ولكنها مثيرة. كعادتها فى الحديث. خاب أملها. لن يشاركها ما تشعر به الآن من ذعر حقيقى وهى تتذكر مسدس عمر النجار مصوبا إليها.

ـ أنت لا تصدقنى.. ولكن هذا حدث.

قال سعيد ساخرا:

ـ كنت تحلمين.

ـ لم يكن حلما.. كدت أموت حقيقة.

بذل سعيد مجهودا ليقتنع بأنها جادة. كان مازال مترددا، وانتظرت

زينب حتى لاحظت علامات الإهتمام تزحف على وجهه، وعندئذ قررت أن الأمر كله لا معنى له، ولم تعد تريد رواية شيء عن الحادث.

سألها سعيد باهتمام:

ـ ما الذى حدث؟

ـ لا شيء.

ـ كدت تموتين.. ورصاص.

ابتسمت زينب وهزت كتفها ونظرت بعيدا، فزاد فضول سعيد.

أيقن الآن أنها جادة فحاصرها بأسئلته..

ـ يجب أن تتكلمى.. أهو زوجك؟.. أعرف شيئا؟..

يجب أن أعرف.

كان وجهه يتخذ ألوانا متعددة. وعيناه تنظران بحدة وكأنهما لا تبعدان، قالت زينب لنفسها، أن منظره أصبح مسليا لولا أنها لا تحب أن تراه هكذا. وقالت فجأة وكأنها أسعد مخلوقة في العالم.

ـ كنت مع شاب يدربنى على إطلاق الرصاص. صرخ سعيد:

ـ ماذا؟

قالت زينب في ثقة:

ـ قررت أن أتدرب على إطلاق الرصاص.

كانا يجلسان متجاورين على أريكة فى صالة بيت سعيد. أمامهما منضدة عليها زجاجة بيرة فارغة وكوبان ممتلئان. المكان كئيب، مترب. وسعيد يصر على إغلاق النوافذ، رغم الحر المبكر خشية عيون الجيران. وكانت زينب تعلم أن علاقتها بسعيد لن تستمر طويلا، هكذا تسير الأمور فى مثل هذه العلاقات. المهم أن تعرف كيف تتخلص فى الوقت المناسب. وقبل أن يبدأ هو فى التخلص منها. ولقد امتدت هذه العلاقة أكثر من المعتاد. أكثر من سنة، وهى واثقة أن اليوم قريب. عندما يقرر أن يتزوج، أو يجد أخرى، أو يصاب بملل. أو تجد هى آخر. ولكنها علاقة طويلة ربما لأن سعيدا لا يثير مشاكل من أى نوع، ليس ذكيا إلى الدرجة التى تقلقها وتصدع رأسها. كان مجرد اكتشافها لأفكار من أى نوع فى رأس الرجل أمرا كافيا لأن تقطع علاقتها به فى الحال. يكفينى سالم، وصداع سالم. ولكنها ترحب بعلاقة تأخذ فيها دور المثقفة مع شاب تسخر من جهله، ولا يهتم بسخريتها. وسعيد من هذا النوع..

لايتمسك برأى ولا يدعى أن له رأيا، حديثه أشبه بثرثرة النساء، يتكلم عن أى شىء بحماس، ويعتذر إذا ما تورط فى كلام عن عمله فى المصرف، مخلوق مريح، لا تتردد على لسانه الكلمات الضخمة الكبيرة. كلمات الله والأخلاق والشرف والعيب. طيب جدا ولكنه أحيانا يكشف عن أنانية قوية. مثل هذه اللحظة عندما قالت له زينب أنها كادت تموت بالرصاص أول ما فكر فيه أن يكون سالم قد اكتشف أمرهما. وهو يريد أن يطمئن بسرعة.

قال سعيد وهو يتنهد:

ـ الحمد لله.. خفت أن يكون زوجك قد عرف..

قاطعته زينب.

ـ هذا هو كل ما يهمك.

قال فى غباء:

ـ وهل هناك أهم من هذا..؟

صرخت فيه ساخرة:

ـ قلت لك كدت أموت.

كانت واثقة أنه لن يهتم كثيرا إذا ماتت أو قتلت. ولم يكن يهمها عدم إهتمامه. ولو مات هو أو قتل فلن تحزن. ربما حزنت ساعة، أو يوما على الأكثر. وهذا من أسباب الراحة التى تشعر بها فى علاقتها بسعيد. المهم هو المبدأ، مبدأ العلاقة، لا أهمية لها أو له. المهم أن يصنعا شيئا بهيجا من لقائهما.

سأل سعيد بعد أن شرب نصف كوب البيرة دفعة واحدة.

ـ ولكن من هذا الشاب؟

ـ سر..

ـ سر؟

ـ نعم سر..

ـ ماذا تعنين..

- قلت لك.. سر.

كانت لا تفكر إلا فى إغاظته، إثارته، لم يعد يعنيها أمر عمر النجار والمسدس وهى لا تدرى لماذا تذكرتهما.

لقد بالغت فعلا. فهى لم تتعرض للموت. والمسدس كان خاليا من الرصاص.

ولكن ذعرها كان حقيقيا. من الخطأ أن نشغل أنفسنا بالذعر. أنا وسعيد لا نتحدث فى هذه الأشياء، ولا نثيرها.

يجب أن أعترف أنى ما قلت له هذا إلا لينتهى الأمر بأن يأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى. ويمنحنى إهتماما وحنانا أكبر.

قالت له. حتى تنشط حواسه أظن هذا هو ما سننتهى إليه.

قال سعيد محتجا:

- لماذا تحاورين.. قولى.. ما الحكاية؟

وقررت زينب أن تعدل عن غموضها. ولكنها لن تكون واضحة تماما. ستحكى له عن عمر النجار. ولكن شيئا ما يستفزها، ويدعوها لرواية الحادث بطريقة أخرى، غير ما وقع عليه.

- يجب أن تقولى يا زينب.. أنا لا أخفى عنك شيئا. اتخذت زينب مظهرا جادا، وتعمدت أن تتكلم بوقار. كانت تتكلم وهى تتخيل سالم وطريقته فى الكلام.

- سأحكى لك، ولكنه موضوع خطير، لا يحتمل العبث.

ويجب أن تقسم لى أولا أنك ستكتم السر.

قال سعيد بصوت جاد.

ـ أقسم..

ضحكت زينب قائلة:

ـ بماذا تقسم..

وضحك الإثنان. وأوقفا ضحكهما فجأة. تذكر سعيد أنه مطالب بأن يقدم دليلا على أنه محل ثقة. حاول بعينيه وملامح وجهه الذى تجهم. ولاحظت زينب المجهود الذى يبذله، ورضيت به. قالت:

ـ أنت لا تريد الإساءة لسالم طبعا.

مستحيل.

ـ أنا واثقة من ذلك.

ـ طبعا.

ـ لأنك طيب برغم كل شىء..

ـ وأنت طيبة.

توقعت زينب أن يقبلها، ولكنه لم يفعل. فمضت تقول بصوت جاد.

ـ سالم يقوم بعمل سرى هام. ولا يجب أن يعلم به أحد وليس من حقى أن أبوح بأسراره.

نظر إليها سعيد قلقا. وقال:

ـ ثقى أنـى لن أتكلم أبدا. وإذا أردت أن تكتـمى السر فـلا تقـولى لى شيئا.

ـ سأقول لك ما يهمنى أنا.

ـ هكذا يكفى..

ـ سالم يتصل بأحد الإرهابيين.

ـ إرهابيين.

ـ نعم..

سأل واجفا وهو يشم رائحة خطر مجهول:

ـ لماذا..

قالت وهى تتعمد ابتسامة غامضة:

ـ إنه يؤلف كتابا جديدا..

ـ صحيح؟

ـ نعم..

ـ أهناك شيء آخر.

ـ لا أدرى.

وأعجبها منظر سعيد. كان وجهه أصفر. ومضت تقول:

ـ شاب عمره.. حوالى عمرك.. خمسة وثلاثون.. ستة وثلاثون..

ـ أنت واثقة أنه كتاب.

ـ وماذا يكون إذن..

ـ يجب أن تحترسى.

قالت ضاحكة:

ـ لا أظن أن سالم يفهم فى الدنيا أكثر من تأليف الكتاب.

ـ يجب أن تخبرينى بكل شىء..

وأشعل سعيد سيجارة وهو يشعر بأهميته البالغة. وراقبته زينب وهى تخفى سخرية من منظره. إنه لا يصلح فى دور الرجل المهم. فارق ضخم بينه وبين عمر.

قالت زينب:

ـ دعاه سالم إلى بيتنا أكثر من مرة.. وبالأمس دعانا هو إلى السينما.

ولماذا..

وضحكت زينب، وقالت وهى تتصنع الخجل.

ـ كان يجلس إلى جانبى.. و.. وسكتت زينب، أطرقت برأسها ومرح جنونى يهزها.

ـ وماذا...

رفعت إليه عينيها. عابثتين. ماكرتين وهمست:

ـ ألم تفهم..

ـ فهمت..

ـ ماذا فهمت..

قال سعيد بسرعة كأن هذه النقطة بالذات لا تعنيه:

ـ غازلك..

ـ حاول..

ـ مفهوم. ولكن ما الذى بينه وبين زوجك.

قالت فى ضيق:

ـ قلت لك كتاب.

ـ أى كتاب؟

ـ كتاب تاريخ.

ـ ولكنى أحذرك يا زينب.

ـ أنت خائف علىّ..

ـ لا تتورطى مع هذا الرجل..

ـ وهل أنا مجنونة..

ـ تقولين أنه سيدربك على إطلاق الرصاص..

قالت زينب بصوت قاطع:

ـ هو الذى طلب منى.. ولكن مستحيل..

ـ هل أنت واثقة مما تقولين.

ـ نعم..

ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها:

ـ هذا النوع من الرجـــال لا يمكن أن تكون بينه وبين أى امـــرأة علاقة.

ورغم أن سعيد حاول أن يسأل مزيدا من التفاصيل، حاول أن يعرف اسم الإرهابى، إلاّ أن زينب صممت على إنهاء المناقشة.

واستسلم سعيد رغم قلقه الذى لم يتبدد، كانت مخاوف مجهولة غامضة تدور فى رأسه. وخطر له أنه قد يكون من الأفضل أن يقطع علاقته بزينب. لولا أن ألقت زينب بجسدها بين أحضانه، فأخمدت الأفكار. وأسكتت أصوات الرأس، وقد ظنت زينب أنها وصلت إلى قرار نهائى، وهو أن علاقة بينها وبين عمر، أمر مستحيل، ولكنها عندما عادت إلى البيت وجاء سالم وجدت نفسها مدفوعة إلى السؤال عن عمر.

ـ هل اتصل بك؟

أجاب سالم:

ـ لا..

وضايقها أن سالم غير مكترث، أو لعله يتظاهر بذلك. بعد قليل كانت تسأله:

- ولماذا لا تتصل به أنت.

أجاب سالم شاردا:

- ربما الأفضل أن انتظر بعد الذى حدث منه بالأمس.

قال زينب:

- مسكين.. لقد أشفقت عليه.. وأحست أنها لم تقل الكلمة الصحيحة. وربما كان الأصدق أن تقول اهتممت به. وأحست فى نفس الوقت، أن بينها وبين سالم حديثا لم يتعودا عليه منذ سنوات. إنها تعبر أمامه عن بعض مشاعرها. حتى ولو كانت مشاعر عابرة. تريد أن تتكلم معه عن عمر. تسأله عن رأيه فيه. ترددت والكلمات حائرة فى حلقها. ثم عدلت عن الكلام.

ومضت أيام.

نسيت زينب كل شيء عن عمر النجار. حتى أنها فوجئت ساعة عصر وهى ترى سالم جالسا يكتب فى حجرة مكتبه. وعلى الفور أحست أن سالم يكتب عن عمر النجار، ليس عندها ما يؤكد صحة هذا الإحساس. ومع ذلك فهى واثقة أن هذه الأوراق أمامه تسجل شيئا عن عمر النجار بعد لقاء تم بينهما، لقاء لا تعرف عنه شيئا.

وحامت حول الحجرة، تظاهرت بالبحث عن مفتاح. وتغيير ماء زهور. كان سالم يكف عن الكتابة، ويغطى أوراقه.. ويجلس صامتا فى

انتظار خـروجـهـا. لا .. إنه لا يكتب لأنـهـا تعطله، إنه لا يكتب لأنه يخشى أن ترى ما يكتبه. أن تعلم أنه يكتب عن عمر النجار..

سألت سالم:

ـ تريد قهوة.

منذ سنوات لم تسأله هذا السؤال وهى تعلم جيدا أنه لا يشرب القهوة إلا مرة واحدة بعد الغداء.

أجاب سالم فى هدوء وهو ينظر إليها باسما:

ـ لا..

ـ ما الذى تكتبه..

أجاب بنفس الهدوء. إنه هدوء غريب.. أما الإبتسامة فقد أختفت.

ـ لاشيء..

ـ محاضرة.

ـ نعم..

جازفت بكل هذه الأسئلة. إنها تحطم تقاليد مضت عليـها سنوات، تحطمها بلا تردد أو خجل. لا يهمها ما الذى سيظنه سالم.

كان سالم يقول لنفسه. إنها تشك. عندما أفرغ من الكتابة سأخفى الأوراق.. مستحيل أن أتركها تقع فى يد زينب.

غـادرت زينب الحـجـرة، وهى واثقـة أن سـالم يكتب، وقـررت أن تنتظر الفرصة لتقرأ هذه الأوراق. وأن سالم ظل يكتب حتى المساء.

وعندما دق جرس التليفون وسمعت صوت سعيد يطلب منها الخروج. رفضت.

ـ عندك ضيوف؟

كان سعيد يسأل عن عمر.

ـ لا..

ـ ما الذى يمنعك..

ـ لا أريد.

ـ لماذا..

ـ متعبة.

ـ من أى شيء..

ـ لاشيء..

ـ هذه ليست عادتك..

وأغلقت السماعة. وظن سعيد أن سالم فاجأها. وسألت هى نفسها. متى تنتهى علاقتى بسعيد. وحبست نفسها فى البيت، متربصة، منتظرة. للحظة التى تستطيع أن تصل فيها إلى الأوراق التى يكتبها سالم

كانت ساعة غروب، وسالم فى حجرة المكتب، والتليفزيون يعرض برنامجا نسائيا، وسعيد يفكر فى أمر زينب ويتساءل ما الذى جرى لها.

وزينب مرتمية على مقعد لا تشعر بالغروب. ولا تسمع ولا ترى البرنامج النسائى. وقد انتابتها حالة كدر. واستسلام، وحزن غامض.

لماذا يكتب سالم؟

ما الذى يكتبه عن عمر النجار؟

أريد أن أعرف كيف يفهم سالم عمر النجار. عندما طلبت منه أن يدربنى على إطلاق الرصاص. ضحك. ورفض. كان مؤدبا ووقحا واعتذر لأنه أظهر المسدس. كان يتألم، أيمكن أن تقوم بينى وبينه علاقة. لماذا أخاف منه. لماذا قلت لسعيد أن مثل هذه العلاقة مستحيلة. ولكن سعيدا لم يصدقنى .. يظن أن عمر سيزورنا الليلة. بدأ يهتم. أحب أن يهتم بى سعيد، ولكن بغير إلحاح.

هل أنا مجنونة؟

طفلة؟

عاهرة؟

هذه الأسئلة لا تكف عن الدوران فى رأسى. ولكنى أعجز دائما عن الإجابة. الاسئلة تخنقنى، تطالبنى بالإجابة ولا أجد الجواب الصحيح. الجواب الذى يقنعنى. كلها أجابات مضلله. إجابات يقولها الناس لا أقولها أنا. ولكنى أعلم بعض الأشياء سالم ليس إمبراطور. وأمى لبست ملابس الحداد حتى ماتت. وأنا لن أرتدى ملابس الحداد. متى يخرج سالم من هذه الغرفة. ما السبيل لإخراجه من البيت. ما رقم تليفون عمر النجار. غدا أبحث عنه.

هذه الدنيا كلها يجب أن تكون لى وحدى. كل الدنيا، بلا استثناء، حتى عمر النجار. عندما أتزين أفكر فى كل الناس. كل الرجال والنساء والأطفال، وأقول أنهم سيرونني أنا زوزو موزو. الملكة الإمبرطورة سيبهرهم جمالى، سيشمون عطرى كذب. أخرج بزينتى فى السر، والتقى به فى السر، عرفتهم جميعا فى السر، حرمت نفسى من الصديقات، لا أحب المجتمعات إنهم يكرهوننى، يشمئزون منى، العيون تتهمنى، الألسنة تجرحنى. يقولون عن أمثالى كلام روايات السينما.

نظرت زينب إلى شاشة التليفزيون. كانت مقدمة البرنامج تتكلم عن الفستان الإشتراكى. كلام غريب هذا الذى يقولونه فى السينما. امرأة فى الوحل ساقطة فى الهاوية ولكنى عندما أنفرد بواحد منهم أجعله يركع تحت أقدامى.. أنا ملكته. لو انفردت بكل الرجال، رجلا رجلا. إنهم جميعا يتمنون.

يركعون. أستطيع الإنتصار عليهم جميعا لو إلتقيت بهم واحدا واحدا فى السر. ولكنهم يتجمعون. العيون والألسنة. والأفكار. والكلام. ويتحولون إلى غيلان. لن أترك سعيد. ولن أفكر فى عمر. أنا وسعيد نصنع للحياة بهجة. نحولها إلى دنيا سعيدة. دنيا كلها ضحك ومرح وحرية.

حياة..

جو..

أرقص. أغنى، الدنيا كلها حلوة.

ولكن تبقى الأسئلة.

طفلة..

مجنونة!

عاهرة؟

كل الأسئلة سألتها لنفسى. أسئلة من يتكلمون عن الضمير. أسئلة من يتحدثون عن الأخلاق والشرف، أسئلة المؤديين والطيبين .. أسئلة المتزمتين. ولا إجابة. لأنى أنتظر إجابتى أنا. يبقى دائما هذا الإحساس بالإحتقار لنفسى، ربما ليس إحتقار ولكنه عدم إهتمام. لا مانع عندى أن أضيع. أحترق. أموت مشردة. أموت مهانة. ما شأنهم. أنا ونفسى. أنا وجسدى.ولكنى أحارب حتى الموت من أجل أن تبقى فى الدنيا ضحكات وجو ومرح، وحياة. لا أذكرهم. ولكنى أذكر لحظات لذيذة، مغامراتى تحفظ اللذة فى الدنيا.. تحفظ المرح، الإنبهار، لابد أن أطمئن إلى أن هذه الأشياء باقية فى الدنيا، لا تموت، لا تضيع . الفرح باق والحرية بلا حدود موجودة. عندما أضحك بلا ندم وأنا فى أحضانه، تتعلم الدنيا. يطمئن الزوج الصالح الطيب، وتعلم الزوجة النقيةويدرك الرجل المشغول بالعمل. يعلم هؤلاء جميعا أن الدنيا ليست كلها تعبا ونكدا وشقاء، هناك الفرح، وسيأتى اليوم الذى يتحقق فيه المرح والحب والحياة البهيجة، لهم جميعا لأنى احتفظت لهم به. حتى ولو ضعت. وفقدت سمعتى. أنا أضحى بنفسى فى سبيل بقاء الضحكة الرنانة، والنظرة النشوانة. والفرحة بلا حدود. لست غبية، ولست

جبانة، أى شجاعة أحتاج إليها من أجل أن أهين نفسى وأجرحها. فليقل سالم ما يشاء عن تصرفاتى. ليس بيننا حساب. زنا.. خيانة.. فساد. رعونة. ولكنه تصرفى أنا. أمقت كل من يقف أمامى ويعترضنى إنه تصرفى أنا. مرض سالم، إنهماكه فى العمل. أى شىء. أى شىء لا قيمة له إذا ما وقف لحظة واحدة. أخرنى لحظة واحدة. عن لقاء رجل حددت له موعدا لنضحك ونعبث ونفرح. عمر لا يضحك. أليس له جسد. ما سر هذا الرجل، كان يقتل. دخل السجن. اتهمه الناس. تحدى الناس. كيف صمد؟ مضى شهر كامل بين اللحظة التى قررت فيها أن أعيش حياة المغامرة واللحظة التى بدأت فيها المغامرة. نهاية أغسطس سنة ٥٦. إلى آخر سبتمبر ٥٦. سالم فى أمريكا. سأعرض نفسى على الطبيب بعد المؤتمر. هذه المرة سننجب أطفالا. كنت يائسة. ولا أريد أطفالا. لماذا يأتون إلى هذه الدنيا. ليرتدوا ملابس الحداد. وفى لحظات الفرح أتمنى لو أنجب أطفالا. أطفال فرح. أطفال من الدنيا كلها إلى الدنيا كلها وأنا الأم الكبيرة. أنا الأمومة. أما أطفال سالم فلن يأتوا. أطفال أقراص ودواء وحقن. أطفال للموت. كيف يقتلهم عمر. كيف يواجه الموت ينطلق من يده. أيكره الحياة. أنا أحب الحياة. نهاية أغسطس. بلاج رشدى رأفت يحوم حول المظلة. وجهى يحمر وأنفاسى تضطرب وجسدى يفكر. وأمى تقضى آخر صيف لها فى الحياة. كلهم يموتون نهاية سبتمبر ورأفت يظهر أمامى فى شارع قصر النيل ووجهى يبتسم، شهر كامل بين القرار والتنفيذ. عشت حياة جديدة خلال هذا الشهر. وجها لوجه مع نفسى. مع ضميرى، مع الفضيحة التى

سأواجهها، مع الموت. قلت لنفسى لو شعرت بشىء من السعادة لو أحسست بفرحة واحدة. لو ضحكت من قلبى، فسأتحمل كل شىء بقلب شجاع. وإذا ضبطنى سالم أو طلقنى، فلن يهتز لى رمش. ولن تكون حياتى الجديدة هى المصير السىء التعس الذى انتهيت إليه. لن أكون امرأة فى الوحل ولا ساقطة فى الهاوية بل هى النهاية الطبيعية التى يجب أن تنتهى إليها حياتى كما عشتها.

لم تهتم زينب برؤية سالم يخرج من حجرة المكتب. فقد كانت قد نسيت سالم، وما يفعله سالم، ونسيت عمر التجار، وغاب سالم فى الحمام، وتذكرت أنها كانت تريد قراءة الأوراق التى يكتبها سالم، ولكنها الآن لا تشعر بحماس. ومع ذلك قامت متكاسلة ودخلت حجرة المكتب. ولم تجد الأوراق. اختفت الأوراق تماما. وعاودها كل الحماس الذى فى الدنيا. ستعثر حتما على هذه الأوراق. أعادت التفتيش.. إنها واثقة أن سالم خرج من الحجرة. وليس معه أوراق. لقد أخفاها.

أين؟ أين؟. سالم قد يعود فى أية لحظة.

عثرت زينب على الأوراق صباح اليوم التالى، وجدتها فجأة فى الصف الأعلى بالمكتبة.

١٢

اتصل بى عمر النجار وأنا فى الجامعة هذا الصباح وقال أنه يريد مقابلتى فى الحال.. وجاء حوالى الظهر ... فعرضت عليه أن يأتى معى إلى البيت ولكنه رفض رغم هدوئه الظاهرى كان يخفى انفعالا أشبه بالغضب... ولم أجسر على سؤاله إذا كان يحمل مسدسه معه أم لا. وأدهشنى أنه بادرنى قائلا، أنه يحمل مسدسه. كأنه يقرأ أفكارى. وقال أنه جاء ليعرض على عرضا محددا، فإذا كنت أريد اعترافاته فهو على إستعداد لأن يبيعها بالثمن. ثم قال أنه يفضل نشر هذه الإعترافات فى كتاب باسمه. وأنه فكر طويلا فى هذا الموضوع، لولا أنه متردد لبعض المشاكل التى وصفها بأنها خاصة. ولم يذكر عنها شيئا. وقد فاجأنى هذا العرض. إذ آثار ناحية مادية لم أتوقعها. خاصة من عمر. كنت أظن أن مثله لا يفكر فى المادة. وقررت أن أعطى لنفسى بعض الوقت للتفكير قبل أن أجيبه.. فاحتججت بأن الكلام فى الكلية لن يثمر. وقررت أن أعطى لنفسى بعض الوقت للتفكير قبل أن يأتى معى إلى جروبى لنتحدث. وعند سلم الكلية الخارجى. خطر لى أن نذهب إلى

حديقة الأورمان ونتحدث هناك .. عرضت عليه الفكرة فوافق. ومشينا إلى الحديقة. ونحن سائران على الرصيف قلت لنفسى أن عمر هو (كلمة مشطوبة حاولت زينب قراءتها فلم تفلح) وأنه يسير معها الآن وفى يده قرطاس اليوسفى.

ومرة أخرى عاودنى هذا الشعور الغريب بأن شيئا ما سيحدث والجديد فى هذه المرة هو أن الذى سيحدث هو إثارة للماضى.

هو سيعود من جديد فى صورة عمر. وأنا أعلمه الدرس الأول (وقفت زينب هنا، وأعادت قراءة الفقرات السابقة عدة مرات. وهى تشعر بغموضها التام. وحاولت أن تفسر الكلمة المشطوبة فعجزت. ثم واصلت القراءة فى لهفة) وعندما اجتزنا باب الحديقة كنت أشعر بقلبى يخفق كأنى أعود إلى الماضى وأعيش فيه مجسدا حيا.. لقد فشلت. وهأنذا ابدأ من جديد. والمشروع كله بدا عند باب الحديقة. وهما يأكلان البرتقال (سألت زينب نفسها. أى برتقال. ومن هما اللذان يأكلانه؟ أهذا هو ما يكتبه سالم فى كتب التاريخ. أم هو يخرف؟ أى مشروع يتحدث عنه؟) وهانذا بعد كل هذه السنين أعود إلى نفس المكان ويأتى عمر لأسلمه (هنا رسم سالم شرطة معوجة على السطر) لأسلمها له. وسأقف مكانى، بعيدا. أرقب وأتفرج وأعرف. لأنى أعلم الآن أن كل مهمتى فى الحياة هى أن أعرف.

أعرف فقط. وليس لى مهمة أخرى غير المعرفة وعندما أخرج عن حدود مهمتى أفشل فشلا ذريعا. لأنى أحاول القيام بعمل لا أصلح له..

اختـرنا مكانا منزويا فى الحـديقـة. كـان يلعب بالقـرب منا أطفـال وخـادمـات. أمـا الطلبـة والطالبات فلم يظهـروا طوال الوقت. رغم أنى كنت أشعـر بوجـودهم حـولى. أنا اكـتب بألم ممض. ومنذ بدأت هذه التـجـربة الخطرة وإدراكى يتـزايد. وقلبى يكبـر. ربما لأنـى عـرفت حدودى وطريقى الوحيد الذى يجب أن أسير فيه طريق المعرفة. وأنا واثق أنى سأعـرف كل شىء. لابد أن القديسين كـانوا يشـعرون بنفس هذه المشاعر وهم يتطلعون إلى معرفة الله. هذه التجربة التى أخوضها لا تفزعنى. ولا تخجلنى. إنها تملؤنى بالتقوى.

وكان الله يرعـانى فى كل خطوة. عندما يحدث ما أتوقعه لن أتألم. ولن أنتقم.. يكفى أنى عرفت .. سأقول للناس هذه هى بلدكم وأموت..

وأقول (كلمة مشطوبة أخرى) هذه هـى أنت (لم يكمل سالم الجملة) فتحت مع عمر موضوع النقود.. وسألته عن الثمن الذى يريد أن يبيع به مذكراته. فقال أنه مائة جنيه. فاعتذرت لأن المبلغ كبير. وشرحت له ظروفى. فالجامعة لا تساعدنى بالمال على أبحاثى. والكتب العلمية غير مريحة. فلم يظهـر اهتمـامـا لكلامى.. وبدأ التـحـفز واضحـا فى عينيه، ذكرنى (لم يكمل سالم الجملة وسألت زينب أكان سالم يتوقع أنى سـأبحث عن هذه الأوراق وأقـرؤها. وارتبكت، وخـافت ثارت شكوكها فقد يكون سالم قد أخفى الأوراق فى المكتبة بطريقة خاصة. ليتأكد أن يدا لم تمسها وترتيب الأوراق ستحتفظ به كما هو. ووضعت زينب الأوراق بعناية على المكتب، وصعدت فوق مقعد إلى الصف

المرتفع للكتب، حيث خبأ سالم الأوراق. ورفعت كتابين ضخمين كانت الأوراق خلفهما، ودققت النظر، فرأت عود ثقاب. ما الذى جاء بهذا العود إلى هنا. التفسير الوحيد، هو أن سالم وضعه فوق الأوراق ليعرف هل مستها يد أم لا ما الذى يدور فى رأس سالم؟ لماذا يتصرف على هذا النحو؟ وما هذا الكلام الغريب الذى يكتبه؟ المهم هو عود الثقاب. هل كان فوق الأوراق أم تحتها. ولو كان فوق الأوراق لسحبته معها. كان تحت الأوراق. ولكن أين؟.. أين؟.. هذه مصيبة.. سيعرف سالم أنها قرأت. ولكن ما أهمية أن يعرف؟ إنها لم تفهم كلامه. يبدو أنها اعترافات ساذجة.. ستفكر فى أمر عود الثقاب بعد أن تفرغ من القراءة) أنهما متشابهان! (من هما المتشابهان؟) ولما رأى إصرارى على الرفض سكت برهة. ووضع يديه على ركبتيه استعدادا للقيام.، وكدت ألوم نفسى. وفكرت فى مساومته لتخفيض الثمن وفوجئت به يسألنى ما الذى أريده بالضبط. فشرحت له غرضى. ووضعت أمامه نقط البحث. أهمية الإرهاب كظاهرة سياسية. وأهمية الإرهاب فى التعرف على الشخصية المصرية. إننا شعب يقول عنه المؤرخون أنه شعب طيب مسالم وأنه يحارب بسلاح السخرية والنكتة وأنه شعب عجوز.. عرف الحضارة منذ آلاف السنين. فما الذى يدفع بعض عناصر شباب هذا الشعب إلى الإرهاب والقتل.. وتحت أى ظروف اندفعوا فى هذا الطريق. هل هناك خصائص للإرهاب المصرى. تميزه عن خصائص حركات الإرهابيين فى شعوب أخرى. ثم حركة الإرهاب التى ظهرت فى روسيا عام ١٩٠٣ وما بعدها. هل كانت

علامة يأس سبقت الثورة البلشيفية عام ١٩١٧ .. وحركة الإرهاب في مصر أثناء الحرب العالمية. هل كانت علامة يأس سبقت الثورة الوطنية عام ١٩٥٢ والثورة الإشتراكية عام ١٩٦١ . هل الإرهاب بطولة . أم مرض نفساني. ولم أذكر له طبعا ذلك الجانب الخاص من تجربة لقائي به.

والذي أعتبره في نفس الأهمية بالنسبة لي على الأقل. استمع لي وفي وجهه ملل ظاهر.. وقال بصوت فيه نفس الملل الذي على وجهه. وما الذي تطلبه مني. فسألته إذا كان لديه مانع في أن أسأله بعض الاسئلة ويجيب عنها.. فتردد.

ولكنه عاد ووافق. وطلب مني أن أسأله. فقلت له أني غير مستعد الآن. وأن قائمة الأسئلة تحتاج لبعض الوقت لإعدادها.

ولكنه وقت قصير. يوم أو يومان. وشكرت له استعداده.. ونسيانه مسألة النقود التي يطالب بها. قال وكأنه لم يسمع حرفا واحدا مما قلت. ما هي الأسئلة التي ستسألها. وصمم في إلحاح على أن يعرف عينة من هذه الأسئلة. وكان واضحا أن الفضول هو الذي يدفعه لمعرفة الأسئلة وشوقه لسماعها.. وأمام إلحاحه القيت عليه بعض الأسئلة حول بعض النقط. أسجلها هنا وأسجل الإجابات عليها في نفس اليوم الذي استمعت فيه إلى الإجابات حتى لا يفوتني شئ كما أسجل مشاعري الخاصة، وأفكاري التي لا أبوح بها لأحد لأعرف بوضوح - فيما بعد - مدى تأثير حياتي الخاصة على ما أصل إليه من معرفة في الشئون الخارجة عن

نفسى. فالشخصية المصرية قد أفهمها بطريقة أخرى لو كانت حياتى الخاصة غير هذه الحياة (ما الذى يعنيه سالم بحياته الخاصة. أتحدث على.. عن زواجنا. كلام غريب يختلف تماما عن الطريقة التى يفكر ويتكلم بها معى. إنه أذكى بكثير مما كنت أتصور.. هذا غريب هذا سالم من نوع آخر لا أعرفه) كم أتمنى لو كان أستاذى لافارج حيا.. لعل روحه تطل علىّ الآن وترى ما أفعله لأفهم وأعرف.. سأدفع الثمن كاملا.

لا مائة جنيه لعمر النجار. ولكنى سأدفع الثمن من جرحى الذى يقطر دما. (ها هو يعود إلى التخريف)..

السؤال الأول..

هل كنت تشعر بالذنب أثناء إرتكاب حوادث القتل؟

الإجابة..

نعم كنت أشعر بالذنب قبل القتل وبعده. ولكن أثناء العملية لم أكن أشعر بشئ. ثم قال بعد مناقشة قصيرة أنه كان يشعر بشيء ما لا يستطيع وصفه. أقرب إلى نشوة أو لذة من نوع خاص، فلما طلبت منه المزيد من التفسير عجز. ثم قال. أشعر بجسدى وصحح الجملة فقال. أشعر بكيانى . ثم عاد وقال. أقصد جسدى. أشعر ساعة الضرب أنى موجود فعلا. وأنى قبل الضرب وبعده غير موجود. وهذا هو كل شيء صممت على أن أعرف معنى موجود وغير موجود، كما يتصور هو. قال وهو يضحك. هذا شيء لا صلة له بالعقل أو العاطفة أو الشعور

عموما. وإنما له صلة بالجسد. وعندما كان يقتل كان يشعر أنه جسد ثم أسرع قائلا كأنه تذكر شيئا. لا ليس جسدا. هذا خطأ. لكنى أشعر أنى يد ومسدس ولا فرق بينهما. وهما معا لا صلة لهما بعقله أو ضميره. ولا يخضعان لشيء بل هو خادم لهما. وقال منفعلا فى سذاجة وعلى شفتيه ابتسامة واسعة وكأنه سعيد بما يقول. إن هذا الكلام يفتح شهيته. سألته شهيتك لأى شيء. وكنت أتوقع أن تكون الإجابة شهيتى للقتل. ولكنه قال متهربا أيام حلوة، ثم تغير وجهه وسكت. وخشيت أن يعدل عن الكلام. فناقشته حول شعوره بالذنب فأكد لى أنه لم ينقطع أبداً عن الشعور بالذنب سوى فى لحظات العمل. (أيعرف سالم هذه الأمور؟ مستحيل) وسألته هل كان يفكر فى مبرر القتل. أجاب بسرعة. لا. ثم سألنى ما الذى أعنيه بالضبط قلت له. أعنى هل كنت تجد تفسيرا مقنعا للذنب الذى ترتكبه. فأجاب بالنفى. وقال أنه سأل نفسه مليون مرة لماذا سيقتل؟ ولماذا يقتل؟ ولماذا قتل؟ ولم يهتد إلى إجابة. وقال لا تظن أن شيئا يخطر على بالك أو على بال أى مخلوق من البشر حول هذا السؤال. ولم أسأله أنا لنفسى. سألت نفسى هل أنا مجنون؟ أهى عقدة نفسية؟ أهو إجرام متأصل؟ بطولة؟ حرب؟ استهتار؟ هروب من الواقع؟ عجز؟ كفر؟ استشهاد؟ شطارة؟ فن؟ ضياع؟ شرف؟ وأضعاف أضعاف هذه الأسئلة وناقشتها لساعات وأيام وأسابيع. كانوا يتهموننى بالصمت. وهم لا يعلمون أني فى معمعة مناقشات لا تنتهى. وحوار لا يهدأ لحظة واحدة . حتى تأتى لحظة العمل. وأهدأ. قلت له. ومصر؟ قال ماذا تعنى. قلت تصرفك كان يحدث دويا فى البلد. الدولة بكل

أجهزتها تتحرك. الشرطة. النيابة. القضاة. الصحافة. الملك يهتم. رئيس الوزراء يقلق. الناس تتكلم. هل من العقل أن تنقلب الدنيا من أجل أنك تتحول إلى جسد ويد. وما شعورك أمام هذا كله.

قال. لم أكن أفكر فيه. قلت له. فهناك سؤال ناقص بعد المليون سؤال التى سألتها لنفسك. فأجاب بسرعة حتى هذا السؤال سألته لنفسى. ولكنى لم أفكر فيه. فرحت لإجابته. هناك شيء ناقص. عمل ناقص أستطيع أن أقوم به. كان فرحى كبيرا فرأيت الحديقة بأشجارها وخضرتها رائعة الجمال.وامتلأت نفسي بالرضا والصفاء وانطلقت أحدث عمر وتدفقت أفكارى. شرحت له أنى أبحث الموضوع على أساس علمى، ولذلك قمت بمراجعة تاريخ الإرهابيين فى العالم.

وذكرت له أسماء كاليابيف وساسوتوف وشفيتزر ودورا وراشل لوتربيه. وقلت له أنى راجعت اعترافاتهم وقرأت رسائلهم وعلمت منها الكثير. فسألنى متعجبا. إذا كانت دورا، وراشل أسماء نساء أم أسماء رجال. وزاد تعجبه لما علم أنها أسماء نساء وهنا خطر لى، لماذا لم توجد امرأة إرهابية فى مصر. ألقيت السؤال على عمر فاحتار. ولم يجب. أعتقد أنى أستطيع كتابة صفحة أو صفحتين فى كتابى لمناقشة هذه النقطة. ما الذى يمنع المرأة المصرية من أن تكون إرهابية. فى رأيى أن (ترك سالم بياضا) هى، كانت تصلح لأن تكون ارهابية من الطراز الأول لولا أنى فى حاجة إلى معرفة تفاصيل حياتها لأتأكد من افتراضى وهل هو صحيح أم لا (من تكون هى؟ أهى التى كانت تأكل البرتقال مع عمر فى حديقة الأورمان. لا إنه شخص آخر غير عمر.

وقلبت زينب الصفحات وبحثت عن الفقرة التى تتكلم عن حادث أكل البرتقال ولم تصل إلى نتيجة. كلام غامض. من تكون هى؟ أيعرف سالم هذه المرأة وما علاقته بها؟) على أى حال مازلت أتوقع حدوث (ثم نقط)لم يذكر سالم شيئا عن هذا الذى يتوقع حدوثه وبعد كلامنا حول الشعور بالذنب . انتقلت إلى النقطة التالية. وأصبحت أنا المتحمس لإلقاء الأسئلة.

السؤال الثانى، أو النقطة الثانية.

هل كنت تشعر أن القتل ضرورى؟

الإجابة. نعم القتل ضرورى. وكرر تأكيده. طبعا ضرورى.

لماذا؟ لأنه ليس هناك حل آخر. ماذا تقصد بقولك حل؟

فأجاب شىء لابد منه فسألته. لابد منه لأى شىء. فأجاب محتدا ولكن فى غير غضب.

ربما كان محتدا فى نفسه أكثر من أن يكون ذلك ضدى. قال الموت لابد منه. هو ضرورى فسألته. ضرورى بيدك؟ سواء يدى أو المرض أو الشيخوخة. وكل هذه أسباب تتعدد للموت. ولكن الموت يظل ضروريا. فسألته. أمازلت تؤمن بهذا الرأى حتى الآن. قال بعد تفكير. نعم وعندئذ سألته. إذا كان القتل ضروريا. لأنه موت. والموت ضرورى. وأنت أحد أسبابه.. أو كنت أحد أسبابه. فلماذا كنت تشعر بالذنب. ورغم أجابته السريعة لم يستقر على رأى. كان يتكلم بسرعة وعصبية. قال أولا. شعر بالذنب لأن القتل خطأ. وازهاق لأرواح ليس

من حق أى إنسان. ثم كرر كلامه الأول بأن القتل ضرورى وأنه شيء لابد منه فالمقتول سيموت حتما.ولو أنه لم يقتله. فليس هناك دليل واحد على أنه كان سيعيش لحظة واحدة زيادة على عمره الذى انتهى. قد يموت فى حادث أو ينتحر، أو يقف قلبه فجأة. أو يموت بألف سبب آخر. ثم رفع رأسه وقال بلهجة خطابية القتل ضرورى حتى تستمر الحياة. لأن هناك ناسا يعرقلون الحياة. ،ولابد من قتلهم فأعدت سؤالى. وأوضحت له أن القتل إذا كان ضروريا بالمعنى الذى فسره لى. فلا داعى للشعور بالذنب. وكلامه الأخير يؤكد هذا. لأنه يبرر القتل. فقال مؤكدا وبنفى قاطع. لا. القتل ليس له تبرير. ولكنه ضرو رى. وأنا واثق أنه خطأ ولا أتهرب من الذنب ولا أستطيع تبريره. ومع ذلك كنت لا أتردد فى القتل لأنه ضرورى. ترى ما رأى هى (كلمة هى بين قوسين) فى هذا الكلام (هنا شعرت زينب بانزعاج شديد. حتى. ارتجفت يدها وشعرت بتعب فى عينيها. كانت تقرأ باهتمام. وتتابع أسئلة سالم وإجابات عمر وهى تشعر كأن الأسئلة والأجوبة قد دارت فى رأسها من قبل. وعندما قالت لنفسها، أنا أفهم عمر وإن كنت لا أعرف بالضبط هذه الأشياء التى يتكلم عنها فى هذه اللحظة قرأت تساؤل سالم، ترى ما رأى هى فى هذا الكلام.

وكان سالم يوجه الكلام إليها وفزعت. دارت رأسها بمخاوف أكبر من أن تعقلها بوضوح) . لو صدقت هذه المخاوف لكان سالم بشرا غير عادى. إله. أو صاحب قدرة خارقة. وهذا مستحيل. لا يوجد فى الدنيا بشر من هذا النوع. هى امرأة أخرى. تتمنى لو تعرف حكايتها وتعرف

صلتها بسالم. طبعا مستحيل أن تكون هى المقصودة فى كلام سالم. مستحيل. ولكن هذا لا يلغى انزعاجها، فرغم وثوقها أن سالم يتحدث عن امرأة أخرى. إلا أن سالم يفهم أشياء كثيرة. كلام عمر عن الإرهاب. أشبه بأفكارها ومشاعرها المبهمة عن حياتها ومغامراتها .. إنها تشبه عمر. سالم يتحدث عن امرأة تشبه عمر. هذا فوق الإحتمال. أتحدث عنها. احتارت زينب. هل تعيد قراءة الأوراق من جديد أم تكملها. كم الساعة الآن؟ الحادية عشرة. مازال هناك وقت ولكن سالم قد يعود فجأة. يضبطها مع الأوراق. سيكون منظرا بشعا. تدعى أنها كانت تنظف المكتبة. إنها واثقة أن هى امرأة غيرها. ولكنها ليست واثقة تماما. لأنها هى. أنا وهى شبيهتان لعمر. وسالم يتقدم فى بحثه. وأسئلته. قطار مندفع لا يمكن إيقافه. قد يفتح سالم الباب فى أية لحظة. تذهب وتوصد الباب من الداخل، سوف يشك سالم. إنها تعلم الآن أنه يستطيع أن يشك. وأن يفهم وأن يرى لا، لا. هذه مبالغة. وانتفضت زينب على دقات جرس التليفون. بقيت برهة مسمرة على المقعد عاجزة عن الحركة. ثم نهضت وسمعت صوت سعيد.

- أهلا حبيبتى.

- أهلا.

- كدت أغلق السماعة. ماذا تصنعين؟

- لا شىء.

- ماذا بك؟

- لا شيء.

- تتكلمين ببرود.

- متعبة..

- ولكنك لا تصنعين شيئا؟

- زهقت.

- تكلمى بصراحة. ماذا حدث؟

- قلت لك لا شيء..

لا شيء.. لا شيء.. أتريدى إنهاء الكلام؟

- إذا شئت؟

- هكذا؟

- نعم هكذا.

- ولكن ماذا فعلت. ما ذنبى. أريد أن أعرف؟

- لا ذنب لك. أنت لم تفعل شيئا.

- ماذا أفهم من كلامك.

- إفهم ما تشاء.

- تريدين قطع علاقتنا؟

- نعم.

ـ ولكن ما السبب؟

ـ مزاج.

ـ لا أسمح لك بمخاطبتي بهذه اللهجة.

(وأغلقت زينب السماعة. هذه العلاقة لا يمكن أن تدوم بدا يضايقني. ولكني خائفة. قطعت علاقتي به لأني خائفة. نعم أنا خائفة من شيء مجهول، من سالم؟ مستحيل. أين هذه الأوراق) وسألني عمر عن أهمية هذه المناقشة في دراسة تاريخ مصر، فأجبته بأني يجب أن أفرق بين السفاح والمجرم الإرهابي والجندي الذي يقتل في الحرب. وشرحت له أن السفاح هو الذي يقتل بالجملة. وبلا شعور بالذنب مثل هتلر.. الذي تسبب في سفك دماء الملايين وهو ينادي بضرورة القتل أو الحرب بلا أدنى شعور بالذنب. بالعكس كان يفخر ويتباهى بالسوبرمان الألماني الذي يشبه الحيوانات العليا المفترسة. فلسفة نيتشه.. والمجرم يشعر بالذنب ولكنه يبرره. قتلت لأصون عرضي، لأنتقم لشرفي. لأثأر لكرامتي. قتلت لأني جائع. قتلت لأغسل الإهانة.. هناك دائما التبرير الذي يقوله المحامي في الدفاع عن المجرم أمام القضاء. وهو تبرير فردي. خاص بالمجرم وحده ولا يؤيده المجتمع. هذا على عكس الجندي تماما. فهو يقتل بتبرير يقدمه له المجتمع. في صورة رسالة مقدسة ومهمة وطنية. وشرف أمته وإذا رفض الجندي هذا التبرير. اعتبره المجتمع خائنا وأمر بإعدامه فهو مشلول الإرادة الفردية. لأنه يمثل إرادة المجموع. وإذا رفض الجندي القتال بتبرير فردي فهو

يتحدى المجتمع ويصبح مثل المجرم تماما. كلاهما يبحث عن تبرير خاص به. بقى الإرهابى وليس لديه تبرير للقتل. وهو يشعر بالذنب، ويتألم. ويعانى، ومع ذلك فهو يقتل، وداخل نفسه صراع لا يهدأ أبدا. شعور بالذنب وشعور بضرورة القتل. كان ينظر إلىّ بإمعان وسألنى وهو يتخذ مظهر غير المقتنع: من أين أتيت بهذه التفرقة، فقلت له من الكتب. قال فى استخفاف إذا كان كل شئ من الكتب فلماذا تهتم بسؤالى، أنت لا تستطيع فهم الإرهابى إلا إذا كنت إرهابيا. قلت له وأنا واثق أن كلامى سيفاجئه وربما يزعجه. حتى هذا الكلام الذى تقوله موجود فى الكتب. وذكرت له مقالا كتبه البير كامى عام ١٩٤٩ نشرته مجلة ورلد ريفيو. وقد بدأ المقال بنفس التساؤل. بل بنصه. هل يستطيع أحد أن يتكلم عن العمل الإرهابى دون أن يشترك فيه؟ فضحك فى ضيق وسألنى إذا كنت اشتركت فى عمليات إرهاب. قلت طبعا لا. فواصل ضحكه قائلا إذن كيف تكتب عن الإرهاب واندفع يؤكد لى استحالة المشروع. بدعوى أن هنا أشياء غامضة فى النفس لا تقال. وإذا حاول أحد أن يعبر عنها، أو يفصح عنها عجز عجزا تاما. قلت له. لكنك تستطيع أن تقول كلمة أو جملة أو ربما حركة باليد أو لمحة على الوجه قد تساعدنى على تفهم هذا الشعور الغامض. وأعتقد أنه حاول بعد ذلك مخلصا أن يساعدنى. بدا عليه أنه يفكر تفكيرا عميقا. ثم قال هناك شعور بأنه انتهى. فسألته ما الذى انتهى؟ قال وهو يصوب إصبعه إلى صدره. أنا. أنا انتهيت. (قالت زينب: أنا انتهيت) ترى ما رأى هى تلفتت زينب حولها مذعورة. كأن سالم يرقبها يختبىء فى مكان فى

الحجرة. كأنه يكتب الكلمات الآن. يده تمتد غير منظورة من مكان مجهول وتكتب السطور التى نقرؤها. عندما يعود سالم. كيف أواجهه. وستكون الأوراق مخبأة فى مكانها ولكنها ستكون فى عينى وفى ملامح وجهى. وإشارات يدى. إنه يفهم لغة هذه الأشياء إنه يحاصر. يضيق الخناق علىَّ. يكتم أنفاسى. عندما يعود سأكون مريضة فى فراشى. سألزم الحجرة ولن أسمح له بالدخول قلت له هذا ما كنت تكرره لى منذ إلتقيت بك لأول مرة وهو أنك تشعر أن كل شئ قد انتهى. ومع ذلك فقد غضبت بعد حادث كلوت بك. عندما قلت لك وأنت تصرح بعزمك على قتل الشبان. إن زمان هذا التصرف قد فات. استمع إلى غاضبا. وقال بحدة أنى لم أفهمه. وأنه لا يعنى إنه إنتهى الآن. ولا يعنى أن الزمن قد فات، وأنه يريد أن يقول أنه انتهى فى ذلك الوقت الذى كان يمارس فيه عمليات الإرهاب، واعترفت له بأنى لا أفهمه، فقال هذا هو الشعور الغامض الذى حدثتك عنه. إنه غير مفهوم ولا يمكن التعبير عنه. ثم قال أريد أن تعرف هذا. وأنا أقتل كنت أقتل نفسى. ثم عاد وقال. ولكنى ذكرت لك من قبل أن ساعة الضرب هى الساعة التى أشعر فيها بكيانى. ولم يقل يدى. ولم أراجعه. وتركته يسترسل فى شرحه. فقال. أى أشعر بوجودى. بأنى حى. أى أنى أحيا وفى نفس اللحظة أقتل نفسى. وابتسم حائرا. وقال كلام مضحك كما ترى. ولكنه حقيقى. وهو طبعا غير مفهوم. ولكنه حقيقى. كان يتحدث بلهجة اليائس من فهمى. فقلت له بالعكس كلامك مفهوم. وهو يثير نقطة خطيرة. قد تنتهى بإثبات أن نفسية الإرهابى تكاد تكون نفسية واحدة

فى كل أنحاء العالم. لأن الإرهابى الروسى بوكوتيلوف كان يقول: أنه حتى لو كان الإرهابى يؤمن بالعمل الإرهابى إلا أنه لا يكف أبدا عن الشعور بأن هذا العمل يدمر نفسه. فبدا على عمر ضيق شديد. كأنه يريد أن يقول لى. كل شئ عندك فى الكتاب.

وهذا الضبط هو ما كنت أريد أن يستشعره. أريده أن يفهم أنه لا يستطيع أن يخدعنى. لقد وصلت إلى مرحلة من عمرى ومرحلة من المصارحة مع نفسى، لا تتيح الفرصة لأحد أن يخدعنى. ربما كنت أخدع نفسى. ولكن الآخرين لن يخدعونى (لم تقف زينب عند هذه الكلمات، فقد اعتادت عليها. أو أصبحت تتوقعها ولكن اضطرابها العقلى كان يتزايد. وانفعالاتها تقل. كانت جالسة. خاملة الجسد. مرهقة العينين عقلها يفكر بلا أفكار) قال عمر فى أسى واستسلام. كلام هذا الروسى صحيح. ثم تغير صوته. ورفض استسلامه. فقال بلهجة إصرار: ولكنه ليس كل شئ قلت له طبعا أنه ليس كل شئ. وهذا هو ما أريد أن أناقشه معه فقال: أريد أن أرى هذه الكتب التى تتحدث عنها. أيقنت أنه مازال لا يصدق. وخطر لى أنى لو أعطيته أى شئ يقرؤه عن الإرهاب فقد يؤثر على أفكاره أو يحصرها فى نطاق ما يقرؤه. وخشيت أن أرفض طلبه. فتكلمت وأنا لا أدرى بماذا أجيب (ودق جرس التليفون) فقامت زينب تلبى النداء. دون أن تنتبه إلى أنها قامت. وأنها امسكت بسماعة التليفون حتى أفاقت على صوت سعيد.

- زينب..

- من؟

كلمها مئات المرات. وهى تعرف صوته فى كل مرة. فهى تجيد تمييز الأصوات. خاصة فى التليفون. ولكنها لم تعرف صوته، كأنها نسيته، وسمعته يقول لها فى عصبية ومرارة:

- أنا سعيد..

- ماذا تريد؟

- أعتذر لك..

- عن أى شئ؟

- أريد مصالحتك..

وتذكرت زينب، فقالت بصوت بارد لأنها لا تملك غيره الآن..

- لا فائدة..

- اسمعى.. سأتركك يومين.. ثم أتكلم

- لا فائدة مع الكلام..

- لو كنت تذكرين لى سببا واحدا.

- ليس هناك أسباب..

- وأنا يا حبيبتى؟

- أنا مشغولة..

ـ مشغولة أم تتهربين؟

ـ زوجي سيعود..

ـ منذ متى تهتمين بهذا..

فقالت زينب بحدة:

ـ دائما..

ـ قولي كلاما آخر.. قول لي أنه ذلك المجنون..

ـ إفهم ما تشاء..

ـ على أي حال لن أناقشك الآن.

ـ أرجوك.. أنا مشغولة..

ـ حاضر..

وعادت زينب إلى الأوراق (ذكرت له حادث كالياييف يوم ٢ فبراير عام ١٩٠٣ . كانت الساعة الخامسة. درجة الحرارة تحت الصفر. والساعة الخامسة والظلام أقبل. وأمسك كالياييف بقنبلة يدوية ليلقيها على الغراندوق. وكانوا يعملون بدقة وأمانة. لا يتورعون عن القتل. ولكنهم يقتلون بالمسطرة. هل يقتل الإرهابي المصري بهذة الدقة. لا يزهق أرواحا بالصدفة. لا يعرض أبرياء للخطر. انتظرت من عمر الجواب.

ولكنه عاد يسألني عن الكتاب الذى قرأت فيه هذا الكلام، وعرفت أنه يريد أن يناقش نفسه من خلال قراءاته في هذه الكتب، قبل أن يتكلم

معى. وهذا يفسد كل شئ. وأخيرا اهتديت إلى حل، فصارحته. قلت له. أنه من الأفضل تأجيل قراءة الكتب حتى لا يتأثر بها. وحتى أتأكد أن كلامه ليس منقولا من كتاب، وليساعدنى على المقارنة بين ما يقوله هو وما قرأته من اعترافات لإرهابيين أجانب، فقبل على الفور. ولعله شم فى طلبى رائحة تحد.. لأنه قال وهو يبذل جهدا كبيرا ليبتسم. أنا أقبل التحدى ولا أرفضه. شعرت ساعتها بخوف. فقد يعنى التحدى أشياء أخرى. ورأيت مستقبل التجربة التى أقوم بها يتكشف أمامى. رأيت عمر وهو (ترك سالم بياضا) أعوذ بالله. هذا شئ بشع. رغم كل شئ إنه إنتقام رهيب منها. لولا أنى لا أفكر فيه على أنه إنتقام. إن الجانب الشخصى من الموضوع يتبخر وهى وعمر يتحولان إلى مجرد مواد كيميائية أخلطها. حتى ولو أدى هذا الإختلاط إلى إنفجار مميت (كانت زينب تقرأ ببلادة تامة).

وسألت عمر وهو ينصرف متى سأراه ثانية. فقال.. سأتصل بك. قلت له. أخشى أن تفكر فى الزوغان. فلاحت الإبتسامة الصعبة على وجهه وقال: قلت لك أنى لا أرفض التحدى.

والمشكلة الآن هى أن كلام عمر يصلح مادة لطبيب نفسانى. وقد يفرح به زميلنا الأستاذ منصور.

(تذكرت زينب وجه منصور.. وجه طفل مركب فى جسد عجوز. زرته ليعالجنى. فاقتنعت بأنه فى حاجة هو إلى العلاج) أما بالنسبة لى كمؤرخ، فينتابنى الشك فى جدوى هذا الكلام. وأحيانا أشعر بتفاهة

الموضوع كله.. لولا أن هذه التفاهة تتحول إلى أحداث عامة تؤثر فى السياسة وتحركها.

وهذا الشاب الوقح. المتبلد الإحساس القاتل. كان ظاهرة فى مجتمع البلد. ما الضمان إلى أنى أسير على النهج الصحيح، ثم هناك مشكلة الكتب. فقد يكون تفكيرى كله متأثرا فعلا بما قرأته. وربما كان عمر على حق ولكنها هى الضمان الموثوق به. قد يكون ما أعرفه منقولا من الكتب. ولكن تبقى هى. موقفى منها هو الذى سيحدد مقدار صدقى. فأنا أبحث المشكلة العامة. وأراها فى نفس الوقت تتفاعل مع حياتى الخاصة. نعم هذا هو الضمان الأكيد..

***

١٣

١٨ مايو عام ١٩٦٢

استيقظ سالم فى الصباح المبكر كعادته. وأسرع إلى المكتبة كانت زينب لا تزال نائمة ورفع سالم الكتب التى يخفى خلفها الأوراق، كان قلبه يخفق، لقد وضع تحت هذه الأوراق عود ثقاب. وضعه تحت علامة رسمها بالمداد الأحمر على ظهر الورقة الأخيرة، وببطء شديد، رفع سالم الأوراق، واكتشف أن عود الثقاب قد تحرك من مكانه. إذن فقد قرأت زينب الأوراق. وشعر بفرح وندم. شعور متناقض. مثل ذلك الشعور الذى دفعه إلى إخفاء الأوراق عن زينب. وهو ينتظر فى نفس الوقت أن تبحث عنها وتقرأها. كان بالأمس يتساءل، هل قرأت زينب الأوراق، كان وجهها جامدا لا يعبر عن شئ. أما الآن، فقد تأكد له أنها قرأتها. لابد أنها سألت نفسها أسئلة كثيرة. كل ما يمكن الآن، هو الإنتظار. والترقب، لقد بدأت التجربة..

كان سالم يتصفح جرائد الصباح وأمامه فنجان قهوة. وجاءت زينب وجلست أمامه لم يرها. بينه وبينها صحيفة منشورة. ألقت زينب نظرة

لا معنى لها على قماش سترته. لونه رمادى. سالم غارق فى قراءة مقال طويل. نسى قهوته. عيناه مجهدتان بياضهما فيه حمرة. سوادهما مترب. رموشه مقصوفة. شعره الأبيض أكثر من شعره الأسود. أذناه صغيرتان.

كانت زينب تتفحصه، وكأنها تتعرف عليه من جديد. وكانت لا تدرى أنها تتفحصه وأنها تتعرف عليه. وجهه ملئ بالتجاعيد. تجاعيد تجاعيد. يداه نظيفتان. كان يقص أظافره بالأمس. ذقنه حليق. رباط عنقه أزرق. عجوز. عجوز. عجوز..

خفضت زينب بصرها. لا تريد أن ترى أكثر من هذا. لماذا أجلس أمامه؟ قهوة باردة. ومقال طويل. وصمت. وانتظار. كل شئ ينتهى إلى ملل كبير. لم يعد هناك شئ يقال. قهوتك يا سالم. بردت . الكلمات لا تريد أن تخرج من فمى! كيف أتكلم..

مفرش المائدة أبيض. المائدة مستطيلة. الكراسى مصفوفة على الجانبين. وراء سالم لوحة فيها عنب وتفاح. أعوذ بالله يا سالم كيف تشتريها؟ إنها نسخة من أصل لرسام فرنسى يا حبيبتى. اسمه . سالم يحفظ هذه الأسماء. يحفظ كل الأسماء. يوم اشترى اللوحة. كنت مازلت.. أوه، لا أريد أن أذكر شيئا، كنا نتشاجر لأتفه سبب. وكان هناك أمل. لا. لا أظن أنه كان هناك أمل! ما الذى يجلسنى هنا. أمامه. لماذا لا أتحرك. أتحرك إلى أين؟

رفع سالم عينيه عن الصحيفة ورأى زينب. إلتقت عيونهما جامدة. لم يكن لقاء عيون. صدام عيون. عيون ترفض أن تعبر أو تفصح أو تلتقى!!

- أنت هنا؟..

- قهوتك بردت

- آه نسيت..

ابتسم سالم، ومد يدا مرتبكة إلى فنجان القهوة. لماذا تجلس أمامى. ترى ما الذى يدور فى رأسها. ليتها لم تقرأ هذه الأوراق..

قالت زينب..

- أصنع لك غيرها..

كان سالم يرشف القهوة.. فتمتم..

- لا .. أشكرك..

ماهذا الحنان المفاجئ. إنه يربكنى. يفسد مشاعرى. حنان مصنوع بلا شك خطة جديدة. ستار من الحنان حتى تفهم ماذا تعنيه الأوراق التى قرأتها. لن أدع هذا الحنان يؤثر فى تجربتى. إنها خائفة. تستر خوفها بالحنان..

- سوف تخرج؟

- طبعا..

- تذهب إلى الجامعة؟

- عندى المحاضرة الأولى..

- أعرف .. اليوم السبت..

- أتعرفين مواعيد محاضراتى..

- طبعا..

- كنت أظن..

وسكت سالم. فشل فى اختيار اللهجة التى يكمل بها جملته. كنت أظن أنك لا تعرفين ويبتسم ساخرا أو كنت أظن أنك لا تعرفين ويتجهم، أو كنت أظن أنك لا تعرفين وكأنه يشكو أو يلوم أو كنت أظن أنك لا تهتمين. الأفضل أن يسكت وعاود القراءة، ولكنه لم يقرأ. هذا الإهتمام بى يثير إشكالا جديدا. فرغم علمى بأنه مصنوع. رغم وثوقى أنه كاذب إلا أنى فى حاجة إليه. إنه يضعفنى. لماذا لا أستسلم لها، وأوقف التجربة كلها، وأركع أمام قدميها وأبكى.

يجب أن أقاوم حتى تظل زينب كفأر المعامل. أجرى عليها أبحاثى. ليس بينى وبينها عواطف من أى نوع. لا عواطف كاذبة، ولا عواطف صادقة. لا إهتمام ولا كراهية. لا استسلام ولا ضعف.. لم تعد حياتى الزوجية هى هدفى. هدفى أكبر بكثير. أريد أن أعرف.. أعرف. أعرف. ونهض سالم وسمع صوتها، حلوا، دافئا حنونا.

- تخرج الآن..

ـ نعم..

ـ ستعود للغداء..

ـ طبعا..

كانت زينب تدرك أن أسئلتها غريبة فهى منذ سنوات لم تسأله إذا كان يعود للغداء أم لا يعود ولكنها تريد أن تتكلم، تقول وتقول. فقط تقول. دون أن تقول..

عندما خرج سالم، ذهبت إلى المرآة. ووقفت أمامها. شعرى كارثة. سأحدد موعدا مع الحلاق. يوم جاء عمر لأول مرة كنت على موعد مع الحلاق. أظافرى فى حاجة إلى طلاء أستحم أولا. عيناى متعبتان. كانت زينب تتفحص وجهها وكأنها تتعرف عليه من جديد. وكانت لا تدرى أنها تتفحص وجهها. وتتعرف عليه. لو أدركت زينب أنها تريد تغيير ملامح وجهها، تريد تغيير شكلها. لفهمت سر هذا الملل الطاغية الذى يسيطر عليها. كانت لا تزال تتأمل وجهها وقوامها فى المرآة عندما ألح عليها سؤال. ترى ما هى المقالة التى كان يقرؤها سالم. أذهب وأنظر فى الصحيفة؟

وتعجبت. كيف تخطر لها مثل هذه الأسئلة الغريبة. أجننت حتى أهتم بهذا؟ ولكن ما الذى كان يقرؤه باهتمام حتى بردت القهوة. أريد أن أقرأ كل ما يقرؤه، وأقرأ كل ما يكتبه، وفزعت زينب فجأة من المرآة. ابتعدت عنها نافرة. وهرولت خارج الحجرة. كأن يدا تدفعها، أو تجذبها. وهمست فى رأسها كلمات لسعيد. انشق صوته فى أذنها.

صوت بارد، كسول متلكيء. قطعة لادن يخرجها من فمه ويمطها فى خيط طويل. الخيط يلتف حول وجهها. كلمات لزجة تلتصق بخدها. بأنفها، برموش عينيها. تملأ أذنيها. اللادن يملأ أذنيها وفمها. اللادن فى عينيها. فى أصابعها. فى شعرها..

ارتطمت زينب بباب، ودهليز، ومقعد، ارتطمت دون أن يلمسها شئ. وارتطمت زينب بالمائدة. وارتطمت عيناها بالصحيفة. وقرأت عنوان المقال «معنى التطور فى المجتمع الإشتراكى»: منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، حدثت هزة عنيفة أشبه بزلزال جامح، أحدث تغيرات أساسية فى المجتمع العربى. والنظرة التاريخية تساعدنا على فهم مدى التطور الثورى الذى حدث، والذى لم يدركه تماما البعض وإن كانوا.. كلمات. كلمات. سطور حتى نهاية الصحيفة. لن أستطيع المضى فى القراءة. ها هو فنجان القهوة، كانت تنظر إليه بحنان. مازالت فيه بقية. قبضت يدها على الفنجان. كان باردا، ويدها دافئة. وشربت منه، سرى مذاق القهوة فى لسانها. وحلقها، وجوفها، لماذا شربت قهوة، لماذا؟.. ومرة أخرى اندفعت، وكأن يدا تدفعها أو تجذبها. ودخلت المكتبة. وجاءت بمقعد وصعدت عليه، باحثة عن الأوراق، ربما كتب سالم وأنا نائمة. ورفعت الكتابين الضخمين. ولم تجد الأوراق. ولم تجد عود الثقاب الذى كان تحتها. سالم أخذ الأوراق. وتحول مكان الأوراق إلى فجوة أو فراغ مخيف.. أمست وكأنها ترتطم بفراغ. وأخذت يدها تبحث بين الكتب. وتبحث فى أدراج المكتب. وتبحث تحت السجاجيد. وتبحث فى الدولاب. كان بحثا شاقا مرهقا.

ولم تعثر على الأوراق. كانت عيناها تبحثان فى فضاء حجرة النوم، وفى الجدران، وفى الستائر، عندما دق جرس التليفون. جرت إليه وكأنها ستعثر على الأوراق فى بوق التليفون. ولكنها سمعت صوت سالم..

- سالم؟

- نعم أنا..

أين أنت ؟

- أين الأوراق.. لابد أن تعيدها إلى..

- فى الجامعة.. اسمعى..

- أنا خائفة..

- ماذا حدث..

- لا شئ ولكنى خائفة..

- اطمئنى.. لاحظت هذا الصباح أنك فى حالة غير عادية..

- هذا صحيح..

- اسمعى.. عندى هذا المساء ضيف من ألمانيا.. استقبله فى البيت أو أدعوه للعشاء فى الخارج..؟

المساء .. العشاء.. قالت زينب فى لهفة..

- فى البيت..

ـ عظيم..

ـ قالت زينب فجأة..

ـ أنا شربت قهوتك ..

شئ ما دفع الكلمات أو جذبها من فمها..

ـ ماذا..

قالت وهى فى دهشة من نفسها..

ـ شربت قهوتك الباردة..

سمعته يقهقه..

ـ ستحضر للغداء؟

ـ طبعا..

ـ احضر بسرعة لا تتأخر.

وضع سالم السماعة، وقد غلبه التأثر. لو كان الإهتمام حقيقيا. لأصبحت أسعد رجل فى العالم ولكن زمن البحث عن السعادة قد فات. عندى ما هو أهم. المعرفة أهم من السعادة.

قالت زينب وهى ترتمى على فراشها. ماذا أفعل الآن. بينى وبين سالم أوراق هو كتبها ويعلم أنى قرأتها، وأنا قرأتها وأعلم أنه كتبها، ومع ذلك فهو يخفيها عنى. وأنا أتجاهل وجودها. حياتى مع سالم كانت دائما على هذا النحو، أعلم أنه يشك فى تصرفاتى وأتجاهل، ويعلم أنى

لا أخلص له ويخفى. ولكن هذه الأوراق رغم غموضها تكاد تفضحني.. سالم لا يشك. إنه على يقين. وهو يفكر في علاقتنا. أنا واثقة من هذا. وخائفة. وأشعر أن حياتى كلها تنتهى إلى فراغ.

وقامت زينب متجهة إلى الحمام وتجردت من ملابسها، وتأملت جسدها العريان وتدفق الماء يغسلها.

وعاد سالم ساعة الغداء. فقال له الخادم أنها خرجت. انقبض صدره. تألم. ولكنه شعر بالراحة تسرى في أفكاره. كل شئ مازال كما كان.. التجربة تسير في مجراها الطبيعي. تخلت زينب عن مناوراتها. لم يعد في حاجة إلى مقاومة حنانها الكاذب. واهتمامها المصطنع لن يقاوم وهم السعادة. كل ما حدث في الصباح كان مجرد حلم. وهم. وتناول غداءه وحده ونام.

كانت زينب قد خرجت من البيت كالمنومة. وبها رغبة جامحة للعثور على مغامرة جديدة عاشق جديد. أى رجل. أى شاب في الطريق. أول ابتسامة وأول إشارة سوف أتبعها: هذا هو مهربى الوحيد. أملى الوحيد. لا يهمنى ما يكتبه سالم سأتحداه، سأكثر من خروجى وأكثر من عشاقى، سأتحول إلى إمرأة طريق. أنا إمرأة طريق. هذه الدنيا غير مفهومة. ولا تستحق أن أحاول فهمها. جسدى هو الذى يتكلم ويحيا. جسدى هو الذى ينجينى من دوامات الأفكار.. كانت تسير في شارع قصر النيل. هذا الرجل أو ذاك الرجل. تقدم.أنظر إلىّ. أنا لك. ياغبى. ما الذى يربكك. لا تتردد. أتنتظر أن أنادى عليك؟ أجرى

وراءك؟ أليس فى هذا الطريق رجل واحد يتقدم لإنقاذى. أتتركوننى لسالم يطاردنى. لن أعود إلى البيت. أنا على استعداد للمبيت فى أى شقة، على استعداد للضحك والرقص والغناء والنسيان. من يريد أن ينسى معى..

ودخلت دكان الحلاق. ولم تهدأ حتى رأت فوق رأسها تسريحة جديدة. وعندئذ تذكرت عمر النجار. كانت تطرده من ذاكرتها وهى لا تدرى. وهمست لنفسها فى تصميم. سيكون عمر عشيقى وتلفتت حولها. وهى تتوقع أن تراه جالسا بين السيدات فى دكان الحلاق. سأكلمه فى التليفون. وسأحترق معه فى مغامرة..

وعادت زينب إلى البيت بالتسريحة الجديدة، روجه جديد، الحماس يملأ قلبها والنشاط يدب فى جسدها، والقناع الجامد يفصلها عن سالم..

وقال سالم لنفسه وهو يراها تتجاهله. التجربة تسير بنجاح تام. وظن أنها خرجت لتستقبل عمر. كان مجرد ظن. فهو مازال فى انتظار اللحظة التى يعرف فيها كل التفاصيل كيف يعرف هذه التفاصيل؟ أيتجسس عليها ويراقبها فى انتظار اليوم الكبير، يوم يضبطهما متلبسين؟ كيف يراقبها، أيعمل كبوليس سرى؟ إنه لا يصلح لهذه المهمة. ومع ذلك فلابد من القيام بها. عليه أن يبذل بعض النشاط. كنت أقول لتلاميذى، معرفة التاريخ تحتاج إلى سفر وزيارات، تحتاج إلى صحة بدن، قبل صحة عقل، لابد أن أفكر فى طريقة للعمل. انتهت مرحلة الاعداد والتدبير، ودخلنا مرحلة العمل والتنفيذ. سأفكر فى هدوء تام. مازال أمامى الوقت الكافى. حتى تتفاعل التجربة..

ورفضت زينب استقبال الضيف الألمانى ولزمت غرفتها. هذا الصباح كنت على وشك أن أعقد صلحا مع سالم. ولكنى الآن أدرك أن هذا مستحيل. طريقى الوحيد هو عمر النجار.

١٤

١٩ مايو عام١٩٦٢

فوجئ عمر بالصوت النسائى يكلمه فى تليفون الوزارة..

- من حضرتك؟

ضحك الصوت..

- لن أقول لك..

قال عمر فى حدة:

- إذا لم أعرف من أنت سأغلق السماعة..

قال الصوت الضاحك بسرعة..

- أنا زينب..

هتف عمر فى انفعال..

- من؟

ـ زينب.. مدام سالم.. ألا تعرفنى..

رفع عمر صوته متحديا إرتباكه..

ـ أهلا وسهلا..

ـ أريد أن أراك..،

لم يفهم عمر.. فأجاب بصوت آلى ..

ـ أنا تحت أمرك يا أفندم..

وسمعها تهمس..

ـ ولكن ليس فى البيت..

ـ أين؟

ـ فى أى مكان تختاره..

احتار عمر. وقال..

ـ فى جروبى..

ـ لا.. ألا تعرف مكانا بعيدا عن الناس..

قال كأنه يخاطب نفسه..

ـ مكان مثل ماذا..

وفوجئ بصوتها يقول..

ـ لا أريد أن يعرف سالم أننا التقينا..

كان انفعال عمر أقرب إلى الغضب. إنه لا يفهم شيئا على الإطلاق. ما هذا الغموض.

وفكر فى أن يرفض لقاءها.. ليرتاح. وفكر فى أنها ليست زينب وسمعها تسأله..

- أفاهم أنت..

- نعم..

- هل تستطيع الخروج الآن من الوزارة..

قال بغير تفكير..

- نعم..

- انتظرنى عند الباب الخارجى. سأمر عليك فى سيارة. بعد نصف ساعة. كم ساعتك الآن؟

- الحادية عشرة وخمس دقائق ..

- سأضبط ساعتى. بعد نصف ساعة. أجدك عند الباب. أعرف مكانا نستطيع الذهاب إليه.. فكر عمر فى ألف إحتمال. أرسلها سالم؟ ولكن لماذا يرسلها. ولماذا لا تريد أن يعرف سالم أهى مجنونة. أوقع حادث لسالم. أتقترض نقودا؟

لا فائدة من التفكير. وكان عمر فى حقيقته لا يفكر. كان يتساءل فقط. وهو يستعد للقائها. استأذن فى الخروج، رتب الملفات. وراجع ما

معه من نقود. وهو لا يكف عن النظر فى ساعته. الإحتمال الوحيد الذى لم يفكر فيه، هو أنها قادمة لمغامرة..

وجاءت زينب فى الموعد الذى حددته فستان أصفر ووردة حمراء. وصدر مكشوف. وعطر يملأ السيارة، وابتسامة غامضة على وجهها. ابتسامة مرحة..

وأمرت زينب السائق أن يواصل سيره إلى محل على شاطئ النيل. سمع عمر اسم المحل فدهش اسم مشهور للقاء العشاق..

قالت زينب وهى ترقب الناس فى الطريق..

لا أظن أن سالم يرانا.. إنه فى الجامعة..

كانت تتكلم وكأنها لا تكترث لو رآها سالم. كأنها تقول شيئا يبرر الإبتسامة والمرح الذى ينسكب من عينيها. ورغم حيرة عمر وقلقه. لاحظ أنها أكثر جمالا وأصغر سنا وأشد حيوية من أى مناسبة سابقة للقائهما. ليست وقحة كما كنت أظن. أتوقع أن تفاجئنى بوجود سالم فى المكان الذى نذهب إليه ولكن هذا غير معقول. لا أظن أن سالما يعرف شيئا عن مثل هذا المكان..

كانت زينب تضحك بعد تعليق ساخر أطلقته على إعلان صابون فى الطريق. لم يسمع عمر ماذا قالت. وانتبه على ضحكها. فقال وابتسامة قلقة تشاركه السؤال..

ـ مالذى حدث..

- إصبر..

- على الأقل أفهم..

قالت زينب بصوت حلو..

- هذه عملية اختطاف..

- لماذا..

- قلت لك إصبر.. أعطنى سيجارة. وجذبت زينب الدخان، وأخرجته من فمها بقوة، واستسلم عمر لثرثرتها.

اختارت زينب خميلة منعزلة. وجلسا تحتها. وأمرت الخادم بإحضار زجاجة بيرة كانت تتصرف فى ثقة واطمئنان. وكان عمر ينتظر قلقا كلامها الهام الذى يفسر له موقفه الغريب، وكانت تعرف أنه قلق. ولكنها صممت على أن تجيبه على أسئلته عندما تريد هى. وفى اللحظة التى تختارها. أما قبل هذا، فهى تريد التمتع بالجلسة. والثرثرة والبيرة، والسيجارة. ونظرة سريعة إلى النيل. ونظرة سريعة إلى مرآة حقيبتها. كل هذا أهم بكثير من ذلك الشئ الخطير الذى من أجله طلبت مقابلته سرا حتى لا يعلم سالم..

كانت زينب تتحدث عن فيلم رأته فى السينما. تذكرتك وأنا أشاهده.. قلت أن البطل يشبهك. بصراحة هو أجمل منك. ولكنك أيضا جميل. هو جماله أنيق. أما جمالك أنت. هه. لا تغضب منى. ولكنه بلدى. وضحكت دمها خفيف. الشئ الخطير الذى انتظره هو أنه ليس هناك شئ خطير. الشئ الخطير هو أننا جئنا إلى هذا المكان فى لقاء لا

معنى له. ماذا تريد هذه المرأة بالضبط؟ يجب أن تحدد موقفها. أو أحدد أنا موقفي أتريد مجرد الكلام..

حتى هذه اللحظة، لم يخطر ببال عمر أنها قادمة له. وكان مرح زينب أشبه بمرح الأطفال فساعد على تضليل عمر..

وفجأة تجهمت زينب. كانت قد قررت أن تبدأ أول خطواتها العملية. فاتخذت مظهرا جادا. وهو مظهر من النادر أن تتخذه إلا في مثل هذه المواقف. عندما تشعر بأنها تقوم بعمل، عمل حيوى وضرورى بالنسبة لهما. وهي لم تشعر أبدا أنها تقوم بعمل هام إلا عندما تأتي اللحظة التي يشرع فيها الرجل في اتخاذ أول خطوة. أو تشرع هي في الإستسلام له. عندئذ لابد أن يقول الرجل كلاما. وتقول هي كلاما. طقوس تؤدى بإتقان. طقوس تصنع الوهم، وتبرر ما هو غير حقيقى.. يقول لها أحبك.. وتقول له يا حبيبي.. صوتهما ملىء بالحرارة. عاطفتهما مشبوبة كأنهما يصدقان ما يقولان. رغم أنهما في قرارة نفسيهما. يسخران من الحب والعاطفة وكل ما هو حقيقى، كلما قلت لواحد منهم أحبك، شعرت أنى أحيا. وشعرت أني أموت.. شعرت أنى أصدق إنسانة في العالم. وشعرت أنى أكبر كاذبة في العالم ويصبح الفهم لا معنى له. الوهم يقتل الحقيقة. والحقيقة كأنها وهم .. يصبح لا وهم هناك ولا حقيقة ولا يبقى إلا التصرف لا تبقى إلا حركة الجسد.

قالت زينب بصوت جاد:

ـ أريد نصيحتك..

كان القلق قد تحول إلى بلادة فى عينى عمر..

قالت زينب:

ـ حياتى مع سالم لا تطاق.. أكثر من عشر سنوات بلا أولاد بلا بيت. بلا إهتمام كثيراً ما أسأل نفسى لماذا أعيش. ما فائدة وجودى فى الدنيا. هل أعيش للمال. أعيش كلبة فى إنتظار سيدها. ولو عاد السيد.. لم يفكر فى الإهتمام بى.. ودخل حجرة مكتبه ليقرأ أو يكتب.. فارق السن بيننا كبير. كنت أظن أول الأمر أنى سأحتمله، لأنى يتيمة وفى حاجة إلى حنان رجل كبير. رجل يعوضنى موت أبى. ولكنه حرمنى حتى من الأبوة .. أيزعجك هذا الكلام..

أجاب عمر بصوت بارد:

ـ أبدا..

قالت وهى تتصنع الأسى:

ـ وكما ترى، ليست لى صديقات، ولا أب أو أم. صلتى بأشقائى تكاد تكون مقطوعة: أنا وحدى.

وصمتت زينب . بدأت تصدق عينيها. هذا الكلام الذى أقوله حقيقى، وأحست أن دمعة تترقرق فى نفسها.. نعم أنا وحيدة. أريد من ينقذنى. من يخلصنى. لماذا لا يتكلم عمر.. هل من الضرورى أن أبكى.. يئست زينب من سماع صوته. فعادت تقول.

ـ فكرت فى الإنتحار.. وفكرت فى الطلاق.. ولكن ماذا يكون مصيرى.. أحيانا أخرج إلى الشارع كالمجنونة أمشى وأمشى..أكلم

نفسى.. من يرانى يظن أنى خارجة من مستشفى المجاذيب.. سالم طيب.. إنه طفل.. طفل كبير لايؤذى أحداً ولكنه أخطأ بالزواج.. وأنا أرثى له.. ولكنى أرثى لنفسى أيضا .. تصور أنه منذ أسبوع لم يكلمنى كلمة واحدة.. مشغول بك على ما أظن..

ضحك عمر. وانتظرت زينب أن يقول شيئا.. ولكنه لم يقل.. وبدا وكأنه مستريح.. لا شئ يقلقه. أفقد هذا الرجل كل إحساس. . كان المفروض أن يتأثر أن يتجهم. أن يتظاهر بالتفكير.. أن يقول كلمة حنونة. على الأقل يعتدل فى جلسته.

وبكت زينب. انهمرت دموعها. دموع متقنة. دموع حقيقية. يجب الآن أن يتحرك هذا الصنم.

قال عمر بصوت وقور:

ـ لا داعى للبكاء..

ـ لا أريد أن أبكى..

واستمرت فى البكاء.. راقبها عمر بعض الوقت، ثم نهض فجأة وابتعد. ذهب عمر، كيف يتركنى هكذا.. يتركنى وحدى.. لابد أنه مجنون.. وكفت عن البكاء. وأخرجت مرآة حقيبتها لتصلح ما أفسدته الدموع.. تصرفاته غير مفهومة.

هذه وقاحة. مستحيل أن يكون قد ذهب.. لماذا لم يستأذن.. ذهب فى صمت. ذهب وأنا أبكى.. لا يريد أن يتفاهم.. هذه أول مرة تفشل فيها دموعى.. يجب أن أذهب.. أو لعل رجلا آخر يأتى.

قبل أن تنادى الخادم .. رأت عمر يعود .. قابلته بصمت.

قال عمر وهو يتفحص وجهها:

ـ هذا أحسن..

صوته بارد كالثلج .. لوح من خشب..

قالت غاضبة:

ـ سأذهب الآن..

ـ لم تقولى ماذا تريدين..

هتفت:

ـ لقد أخطأت بالمجيء..

قال عمر باسما:

ـ أظن أنها أزمة نفسية مؤقتة..

قالت فى تحد:

ـ أظن..

وقفت زينب، ووقف عمر. قالت:

ـ سأذهب وحدى..

ـ أذهب معك حتى الباب..

ـ لا .. إنتظر هنا..

وإذعن عمر لرغبتها.. ومشت بضع خطوات، ثم التفتت اليه..

ـ هل تساعدني في إحضار سيارة.. أسرع إليها عمر. وخرجا معا.. ووقفت السيارة

قالت زينب بلهجة آمرة غاضبة:

ـ إركب معي..

وركب معها..

كانت زينب قد قررت أن تخضعه لها.. وفي الحال.. لن أتركه حتى لو مات.. سأحاصره أضيق عليه الخناق.. أنا أنفر منه، ولا أحتمله.. آخر شئ أتمناه أن أكون عشيقة له. ولكني لن أسمح له بالهرب. سأشركه قسرا في ضيقي ومللي وكل ما هو سخيف في حياتي. سأشركه بلا طقوس.. بلا مقدمات. سوف أخضعه، سوف أحصل على استسلامه..

وقفت السيارة عند بيت زينب..

قالت لعمر:

ـ تعال..

صوتها مازال آمرا غاضبا..

وتبعها عمر. ودخلا المصعد. . وأغلقا بابه.. وما كاد يرتفع بهما.. حتى نظرت اليه، حزينة لاهثة.. واندفعت أليه.. يد مجهولة تدفعها أو تجذبها، وطوقته بذراعيها. وقبلته.

١٥

٤ أغسطس ١٩٣٣

قطار مصر- الإسكندرية، السريع يندفع في طريقه بين بنها وطنطا، الشمس قوية، حقول القطن تمتد حتى نهاية الأفق خالية من الفلاحين الذين ذهبوا لأداء صلاة الجمعة. المدرس سالم عبيد يجلس بإحدى عربات الدرجة الثانية في القطار. نظراته موزعة بين الحقول ورواية «سارة» للأستاذ العقاد. إحساس بالقلق يملأ نفسه.. قلق خامل.. لو عرفت أمي إني قريب منها لحزنت لأني لم أزرها.. ولكني في حاجة إلى راحة طويلة في الإسكندرية .. حمام السيدات في سان استفانو.. يقولون في المجلات أن الفتيات الجميلات هجرن سان استفانو إلى ستانلي وسيدي بشر. سأتفرج وأحتفظ بوقاري.. مسابقات للجمال.. مسابقات للبيجامات.. ستكون الإسكندرية مسلية.. سأحتفظ بوقاري.. ولكني سأتمتع.. لن أستريح مع أمي.. ربما زرتها وأنا عائد من المصيف.. أخبارهم محزنة. الأزمة طحنتهم كل يوم إعلانات قضائية

فى الصحف باعوا كل شئ، الحصير.. والدجاج والغلة والمواشى والبيوت.. لو زرت قريتى فسأخرج منها بلا نقود.. حزين القلب..

ومع ذلك كان سالم عبيد يشعر بحنين لأمه وقريته.. ولقد فاجأه هذا الحنين بعد نظرة كسول طويلة عبر نافذة القطار إلى مقابر وسط الحقول، ولما حاول أن يفر بعينيه إلى السماء، رأى طيورا بيضاء تحوم.. وأحس بالحنين ولكنه حنين خامل..

حول سالم بصره عن النافذة، ليواصل القراءة..

«مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا..

أولا: لأننا فى الغالب لا نعرف ما هى الحقيقة..

ثانيا: لأننا فى الغالب لا نحب أن نعرفها إلا مضطرين.. حين نيأس من قدرتنا على جهلها. ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الأمر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها..

ثالثا: لأننا إذا عرفناها ففى الغالب - أيضا - أنها تجعلنا نغير عادة من العادات. وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت. فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعودناه. وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة»

توقف سالم عن القراءة. وعاود النظر إلى الحقول. لم ير أشجار القطن ولا الطريق الزراعى، ولا الأفق البعيد. ولا الطيور البيضاء تحوم فى السماء. كان يرى أمه. بطرحتها السوداء وملسها المنسكب على

الأرض ووجهها الأسمر الطيب العجوز. ماذا لو ماتت أمي؟ انقطعت عنها منذ زمن بعيد، ولكني سأحزن لفراقها، حنينها يأتي إليَّ عبر الحقول، إنها دائما معي. في كل ما أشعر به من حنان. وحزن. وضعف يجب أن أزورها عند عودتي من الإسكندرية.. يداها ممدودتان، مشيتها سريعة متعثرة مقبلة عليَّ. وأنا مقبل عليها. يداي تطوقانها بين أحضانها.. دموعها وفرحها شفتاي على خدها. شفتاها تتمتمان بالدعوات. السرور في عينيها. عمري في عينيها. تنحني لتقبل يدي. أجزع وأسحب يدي وأقبل يدها. ندمي وفرحي. طرحتها السوداء. أنفاسها .. رائحة الطعام.. بيتنا وقريتنا. وجوههم باسمة مهللة.

حرارة اللقاء. العتاب. الشيخ برعي قادم يتوكأ على عصاه غاضبا مسرورا. قاسيا رحيما. نسيت أهلك يا سالم. أمي بينهم فرحة شامخة. أريد أن أزغرد يا أولاد. زغردي يا بنت. ها هو سالم يعود إليك.. الدار نورت. البلد نورت. ابتسمي وافرحي يا أم سالم. ولكن الأزمة تطحنهم. باعوا القراريط.. أواني النحاس. باعوا العرق.. باعوا أنفاس الحياة.. انفصلت عنهم.. باريس.. مسيو لافارج. نصف الحقيقة تحيا ياعزيزي، الحقيقة كلها والسجن. نصف الحقيقة في قطار مسافر إلى الإسكندرية. ونصف الحقيقة عند أمي، وأهلي، وقريتي. نصف الحقيقة في كتاب «السخرة والكرباج» والفصل من الجامعة. أنا رجل علم يا باشا. لا صلة لي بالسياسة، نصف الحقيقة إهداء إلى مولانا الملك المعظم فؤاد الأول. وعودة إلى الجامعة.. هذه الحقول لا تتحرك. لا تتغير. حقول فرعونية. حقول كالتماثيل .. متى تتزوج يا بني. متى نفرح بك يا سالم أفندي.

كل البنات تحت أمرك. أشر بإصبعك إلى أحسن بنت ونأتى بها إليك. عروسة لك.. ليس هذا وقت الزواج يا جماعة. أتزوجها ليفصلونى من الجامعة وأتسول معها فى الطرقات. ما هذا الكلام يا سالم أفندى .. لقد انصلح الحال.. عدت إلى الجامعة.. مركزك كبير.. مرتبك مضمون. ألف من تتمناك، إتزوج بنتا طيبة. بنت حلال. الأفضل أن يكون عندها بعض المال. سأعيش وأموت ولا أعرف امرأة مثل كونشيتا.. ضاعت أيام باريس بلا مغامرات.. قلبى لم يعرف العشق.. ربما عثرت على العشق فى الإسكندرية.. لا .. هذا لا يتفق مع وقار الجامعة. الطرد بفضيحة خلقية.. أعوذ بالله.. أصبحت جبانا.. أو عاقلا.. كل شيء لم يتحدد بعد. العقاد رجل عظيم، يكتب عن علاقة غير شرعية. يتحدى مشاعر الناس. ولكنه ليس موظفا.. الوظيفة عبء ومسئوليات.. لو عشت مع كونشيتا؟ مع سارة؟ مستحيل .. يوما ما سأتزوج امرأة عاقلة وأستقر فى بيت.. وأفكر فى هدوء .. وأكتب فى هدوء.. وتكون لى أسرتى الهادئة السعيدة. وتكون لى كتبى المليئة بالحقائق.

تململ سالم فى جلسته.. أحس بضيق مفاجيء.. أحس أنه عاجز عن القيام بشيء ما.. الذى يضايقه ويثير ملله أنه لا يعرف ما هو هذا الشيء.. واستنجد سالم برواية سارة.. أعاد قراءة الفقرات التى قرأها من قبل.. حدق فى السطور .. واندفعت يده إلى جيبه وأخرجت قلما ورسمت به علامة، وكتب على هامش الفقرات «لابد من مواجهة الحقيقة كاملة لإحداث تغيير .. وهذا هو دور المؤرخ. فهو يكشف الحقيقة أمام الناس. فيضطرون إلى تغيير عاداتهم» .

أعاد سالم القلم إلى جيبه وحاول أن يواصل القراءة.. ولكنه شعر بإرهاق.. فوضع الكتاب على حجره. واستسلم للنوم. فى الليل بحث سالم عن رواية سارة فى حجرته بالفندق واكتشف أنه نسيها فى القطار..

١٦

٢٩ مايو سنة ١٩٦٢

أطل عمر النجار من النافذة فى إنتظار زينب. بعد لحظات تأتى هذه المرأة الملعونة. وأتصرف كما ينبغى أن أتصرف. أتصرف كرجل. وأقضى على كل هذه الأفكار التى شغلت رأسى.. عشرة أيام وأنا مجنون. عشرة أيام وأنا أجرى وراءهم.

منذ عشرة أيام ألقت زينب بجسدها ليعانق جسد عمر وقبلته. كان يجب أن يفعل شيئا. يقبلها أو يصدها. يستسلم لها. أو يهرب منها.. ولكنه عجز عن أى تصرف. ربما كان التصرف الوحيد الذى يستطيع أن يقدم عليه فى تلك اللحظة، هو أن يخرج مسدسه ويضغط على الزناد.. ولكن مسدسه لم يكن معه. وتصرفه الوحيد لم يكن معه. أحس عمر بقبلة زينب وكأنها صفعة على وجهه. ودارت رأسه بأوهام كثيرة.. أوهام يعلم أنها أوهام.. أوهام لا يؤمن بها.. يخجل؟ يتظاهر بالرغبة، يتظاهر بالأدب، يمتلكها بين ذراعيه كمغازل وفاتن للنساء ؟

كلها تصرفات غير حقيقية.. وابتسم عمر حائرا. ـ ابتسم معتذرا. وظنت زينب أنه يبتسم راضيا.. ولما خرجا من المصعد.. همست زينب وهى تدير المفتاح فى الباب:

ـ أدخل..

كان الباب مفتوحا، وعيناها مفتوحتان.

وشعر عمر أنه لا يستطيع أن يتقدم.. قال بصوت حاد:

ـ لا..

قالت زينب فى دلال:

ـ لا تغضبنى..

زمجر عمر:

ـ لا يهمنى غضبك..

وتركها، وكأنه يسير فى فراغ.. ربما عدت لها ومعى مسدسى. المجرمة.. المسدس هو رجولتى .. شر هذه المرأة فوق كل إحتمال.

أما زينب فقد شعرت بضياع كبير.. ودهشة حزينة..

لماذا يقتل السرور؟ لماذا يقضى على المتعة؟ لماذا يرفض الحياة؟ كيف أعيش فى هذه الدنيا وهى مليئة بأمثاله الحمقى. نكد وهموم. هذا هو ما يريده.. مغفل آخر مثل سالم. غدا أنساه.. لن أهتم به..

حاولت زينب أن تفكر فى سعيد.. لو تكلم الآن فسأخرج معه. ولكن سعيد لم يعد يمنحنى السرور.. لن أعود إلى سعيد .. ما أريده أكبر

وأعظم.. سعيد بقايا فرح صغير.. أنا أعظم من سعيد. أعظم من سالم. أعظم من عمر. أنا جديرة بالدنيا كلها.. رجال الدنيا.. كلها.. كانت زينب تشعر بالبكاء. فتتوالد فى جسدها طاقات كبيرة من الفرح.. من الرغبة في الفرح.. وكانت تنكر فى تعاسة عمر. إنه مسكين.. لا يفهم معنى الحياة.. إنه من النوع الحقير من البشر الذى لا يستطيع أن يعيش إلا مع سخافة الأحزان .. وحقارة الأفكار.. من الذى يفهمنى.. من الذى يشاركنى الحياة الكبيرة.. من الذى يستطيع أن يرتفع فوق تفاهات الأدب والأخلاق والدين. تفاهات البشر.. ويصحبنى فى عالم الفرح الكبير. حيث لا حدود ولا قيود.. حيث لا ملل ولا هزيمة.. كلهم يضعفون.. كلهم يتراجعون.. كلهم يتحولون إلى بلهاء تتسلط عليهم البلادة، وتفوح منهم رائحة الناس العاديين.. كلهم يفسدون الفرح.. يشوهون المتعة.. يفسدون اللذة بمخاوفهم، بنفوسهم الضعيفة، أفكارهم الغبية. عندما تطلب زينب الفرح يجب أن يعلم الرجال.. كل الرجال.. أن هذه هى فرصتهم الوحيدة كى يرتفعوا إلى مستوى الآلهة.. من الذى يعاقبنى بوجود أمثال سالم وعمر فى هذه الدنيا.. سأتحداهم واحدا واحدا..

وعاد عمر إلى بيته. أفكاره مضطربة.. لا يكاد يعرف نفسه. . واجهت الموت .. كنت الموت.. ازهقت الأرواح. ملكت الحياة فى يدى. ولكن هذا كله يهون أمام امرأة مثلها.. انها أخطر من الموت.. إنها فساد كبير.. فساد يلوث الحياة ويلوث الموت. تريد أن تلقى بى فى شيء غير واضح.. كيف أقابل سالم بعد الآن سأنهى صلتى به. لن

أتجاهله.. سأتجاهل أنه موجود فى الدنيا. المؤرخ الكبير؟ لا يعرف حقيقة زوجته.. كيف يفهم حقيقتى.

ولكن عمر النجار لم يستطع أن يتجاهل التفكير فى سالم، وزينب. كأن مرضا أصابه. حمى لا تفارقه. كان يتقلب مؤرقا فى فراشه عندما خطر له أن يذهب إلى سالم ويصارحه بأمر زوجته.. إذا كان يريد منى إعترافا، فهذا هو الإعتراف الوحيد والذى أستطيع أن أقدمه له. زوجتك تخونك أيها المفكر العظيم .. سأذله .. سأنقذه. أنا أكبر من هذه الوشاية .. عمر النجار لا يتكلم.. الخلاص الوحيد فى قتلها. عندما أواجه سالم بالإعتراف.. أواجهه بأنى القاتل.. أنا الذى قتلتها.. أتبلغ الشرطة؟ إفعل ما تريد.. ولكنك لا تعلم أنى أنقذتك. أعدت لك شرفك.. صنت كرامتك.. ألا تصدقنى.. ها هى الأدلة.

وانصرف تفكير عمر إلى ضرورة البحث عن أدلة تؤكد لسالم فساد زوجته.. وفكر طويلا.. ثم اهتدى إلى فكرة راقت له. سيراقب زينب. سيدرس كل حركاتها. سيعرف كل تصرفاتها.. سيكشف عن عشاقها.

واستيقظ فى عمر إحساس عميق بالحياة تدب فى عروقه.. إحساس لم يعرفه منذ زمن بعيد. كأن أيام زمان تعود، واستولت عليه رجفة. أحقا تعود أيام زمان؟ وفكر فى قهمى.. وابراهيم جاب الله، ومرسى، وخضيرى. أين هم؟ لو استطاع الإجتماع بهم؟ نعود إلى العمل.. نعود إلى الضرب نعود أسيادا.. غدا أبدا.. أحصل على إجازة من الوزارة وابدأ. لن يكون اعترافا يا أستاذ.. سيكون عملا.. ستعود الأعياد..

وتطلق الزغاريد ويدوى الرصاص وتعمل الأيدى العاطلة.. ستسقط الجثث.. سندمر الدمار.. سندمر الدمار..

ونام عمر وهو يطلق الرصاص فتتساقط أجساد زينب.. ترسم أشكالا تبهره.

فى الصباح ذهب عمر إلى الوزارة وطلب إجازة.. كان هادئا باسما. على وجهه ابتسامة وديعة.. وخرج من الوزارة ليبحث عن فهمى.. المدينة لها لون جديد.. لون بنفسجي.. المدينة ترصد حركاته.. العيون .. النوافذ.. الميادين. المنعطفات كلها تنتظره.. ملهوفة عليه.. هامسة.. عاد عمر. عاد القاتل عاد المسدس الذى ينطلق، سأعثر على فهمى هادئا كعادته.. كلمة أو كلمتان ونبدأ العمل..

- تلك المرأة يا فهمى..

- ماذا..

- نقتلها..

- هيا نقتلها..

- ونقتل أمثالها..

- ونقتل أمثالها..

- ونقتل عشاقها..

- ونقتل عشاقها..

ـ ونقتل.. ونقتل..

ـ ونقتل.. ونقتل..

ـ كأننا فى عيد..

ـ كأننا فى عيد..

ـ كل شيء قد عاد..

ـ كل شيء قد عاد..

ـ أشعر بنشوة..

ـ أشعر بنشوة..

ـ تردد كلامى..

ـ أردد كلامك..

ـ وأردد كلامك..

ـ وتردد كلامى..

ـ أنا أنت..

ـ وأنت أنا..

ـ وأنت أنا..

ـ وأنا أنت..

صديقى فهمى.. حبيبى فهمى.. يدى فهمى.. سأبحث حتى أعثر عليك.. سأفتش كل بيت.. كل حجر.. كل قصر..

سأفتش الريف والصحراء .. سأنقب عنك.. صابرا.. صابرا! حتى أجدك.. كيف ضاع كل هذا الوقت. نوم طويل .. ستنفض النوم. سأمزق ملفات الأرشيف .. سأعود إلى الموت والحياة.. عندما خرج فهمى من السجن.. ذهبت إليه.. جلسنا صامتين.. تكلمنا ولكن الكلام المهم قلناه صامتين.

قال فهمى!

- غدا أسافر إلى الإسكندرية..

أتسافر فى مشروع كبير.. رصاص وقنابل وديناميت.. لا أظن يا فهمى.. وإلاّ قلت غدا نسافر.. أسافر يا فهمى؟

وحدك يا فهمى؟

- متى تعود؟

- لن أعود..

فهمت.. ستذهب إلى أرشيف هناك.. نهايتى نهايتك..

- وجدت عملا؟

- فى شركة تصدير أقطان..

- مبروك..

قلتها واجما.. كأنى أواسيه.. سألنى!

- كم مرتبك فى الوزارة؟

- أحد عشر جنيها..

همس ضجرا:

- مرتبي خمسة وعشرون..

- هذه فرصة لا تعوض..

- أيعجبك العمل في الأرشيف؟

- نعم؟

أتسميه عملا؟ قال مخاطبا نفسه.

- لابد أن نعمل..

شعرت ليلتها أن هذا هو آخر لقاء بيننا. فهمي القديم مات.. عمر القديم مات.. جثث تعيش خطأ..

ودفنت نفسي في أرشيف. ودفن فهمي نفسه في أرشيف. الموتى لا يتكلمون ولا يتبادلون الزيارات. الموتى لهم كرامتهم. الحياة إهانة للجسد الميت. عمر الإرهابي مات. إنه شخص آخر غيري. لا أعرفه. لا أفهمه. لا صلة لي به..

كان عمر مقبلا على ميدان التحرير. بعد خطوات سيتسع المكان. وسيمتد أفق البصر. وأسرعت خطواته. الموتى يبعثون. هناك في المقهى الصغير بالميدان يتم اللقاء ويتم البعث..

كان عمر قد إلتقى بفهمى منذ شهور فى ذلك المقهى.. إلتقى به صدفة وهو يمر فى الطريق. وتبادلا حديثا قصيرا جافا. تحيات تحرك بها اللسان أسئلة فاترة عن الصحة والحال. لا شىء عن الماضى. لا تذكر الماضى. قال فهمى بلهجة تقليدية وهو يشير إلى داخل المقهى..

- تفضل..

- عندى موعد..

- أنا هنا دائما.. أو فى القناطر..

كان يتكلم بصوت واجم. وسمع عمر كلمة القناطر فأحس بضيق غير مفهوم. وتمتم..

- والشغل؟

- تركته..

- وماذا تعمل الآن..

- أزرع الأرض..

سأل عمر..

- عندك أرض..

قال فهمى..

- فى القناطر..

وشعر عمر أنه على وشك أن يتذكر شيئا. يشعر بشىء ولكنه لم يتذكر، ولم يشعر وإلتقت أيديهما وافترقا..

وصل عمر إلى المقهى. وجال ببصره فى الحاضرين. فهمى غير موجود. وغضب. هجم على الخادم. وسأله منفعلا..

- أين الأستاذ فهمى..

- لم يحضر منذ أيام.

- متى يجىء..

- لا أعرف..

قال عمر محتدا..

- لابد أن أراه..

هز الرجل كتفه. وقال:

- أسأل عنه فى البيت..

لا أعرف عنوان بيته. فهمى لا يستطيع أن يتخلى عنى فى هذه اللحظة. أنا واثق أنه يشعر بنفس ما أشعر به. سيأتى حتما فى أية لحظة. لابد أن يأتى . الدنيا كلها تنتظر. الحياة تنتظر. والموت ينتظر..

جلس عمر يشرب القهوة، ويرقب الطريق. فهمى قادم. هذا الرجل. أو ذاك الرجل أيها الأغبياء. أليس بينكم فهمى . كلكم متنكرون. كلكم غافلون.

ومضت الساعات، ولم يحضر فهمى وشعر عمر برغبة فى البكاء. ولكنه لم ييأس أبدا من مجىء فهمى..

من الصباح حتى المساء . ومن المساء حتى الصباح. وعمر يجوب الشوارع. ويمر على البيوت القديمة. ويسأل عن فهمى. وعلم أثناء هذا الكثير. والدة فهمى ماتت. زوجها فى الكويت. فهمى يتردد على بار فى المساء بشارع الألفى. قال له صاحب البار أنه لم يره منذ عام أو أكثر. وكان عمر يعبر الطريق بعد زيارته للبار. عندما قفز إلى رأسه اسم القناطر، كيف غاب عنى أنه فى القناطر. هو الذى قال لى. أنه ينتظرنى هناك. ربما يظن أنى فى حاجة إلى إعادة التدريب. إنه على حق.

يدى معطلة منذ زمن بعيد. سنبدأ منذ البداية. يدك يا عمر. يدك قبل عقلك يا عمر. غدا أذهب إليه فى القناطر. واستراح عمر لهذا القرار. ونام مطمئنا، واستيقظ فى الصباح ليجد زينب مسيطرة على خياله. حاول أن يسيطر على أفكاره. سيرتدى ملابسه ويذهب إلى المحطة ويركب القطار ويذهب للقاء زينب. لا، للقاء فهمى، سيبدأ التدريب فى القناطر على حب زينب. لا، تدريب القناطر للرصاص. للقتل. أعصابى مضطربة وهذا أمر سيىء. عندما أذهب إلى زينب. لا. عندما أذهب إلى فهمى. إلى زينب. إلى فهمى. إلى زينب. إلى فهمى..

فى الطريق. وقف عمر عند دكان بقال. وامتدت يده إلى قرص التليفون وأدار بإصبعه رقم زينب..

ـ أنا عمر..

- أهلا..

- كيف حالك..

قالت ببرود

- تسأل عن سالم؟ إنه فى الجامعة.

- لا . أنا سألك عنك.

- الحمد لله..

- أنا آسف.. آسف جدا..

قالت محتدة..

- قلت لك سالم فى الجامعة ..

اسمعى .. أريد أن أراك ..

- لماذا...

- لابد أن أراك..

قالت غاضبة آمرة..

- يجب أن تفهم أ ن ما حدث لم يكن مقصودا به شيء. وأرجو أن تظل علاقتك بسالم بعيدا عنى وعن البيت..

- اسمعى. لن أستطيع الكلام فى التليفون. أنا فى أشد الحاجة لرؤيتك. لن أسمح لك بالإعتذار..

- قل ما تريد الآن

- مستحيل. إنه أخطر مما تتصورين.. بسببك كدت أفقد عملى وحياتى وعقلى ..

ضحكت زينب غير مصدقة. وقالت:

- أنت تبالغ..

- هل أستطيع رؤيتك الآن..

- لا..

- متى..

- ربما غدا..

- سأنتظرك . فى نفس المكان ..

- لا.. لن أدخله مرة أخرى فى حياتى..

- سأنتظرك فى البيت..

سألته زينب..

- أين..

لم تطل وقفة عمر عند النافذة. إذ رأى سيارة تتقدم بطيئة فى الطريق. ثم تقف أمام بيته. وأطلت منها رأس امرأة. إنها زينب. نعم زينب. هبطت من السيارة. ودفعت للسائق أجرته. ورفعت رأسها. ابتسم لها. وخيل إليه أنها رأته وابتسمت له. ورآها تندفع ناحية الباب.

١٧

٢ مارس سنة ١٩١١

ألقت زكية بنظرة طويلة إلى شمس الصباح ترتفع فوق الأفق. ثم أدارت بصرها بين الحقول. وأدارت بصرها فى السماء، وامتدت يدها تتحسس بطنها وهمست: يجب أن أعيش . ويعيش ابنى. ويعيش حبى. وإذا كان أحد فى القرية لا يعلم سرى إلا أن الشمس تعرف. والحقول تعرف، والسماء تعرف. وهم يحفظون السر كما أحفظه. وينتظرون معى يوم الخلاص. يوم يطلقنى زوجى منصور، ويتزوجنى أبو الجنين الذى فى بطنى السيد. الرجل الذى أحبه. الرجل الذى جاء لى بولد.

كانت زكية تقف خارج الدار القائمة وسط الحقول. وهناك بعيدا. عند الساقية، يتحرك شبح منصور. وبالقرب من الساقية يمتد طريق يفضى إلى القرية. قبل أن يدخل الطريق القرية يقوم جسر فوق قناة. فإذا عبرت زكية الجسر وسارت بحذاء أشجار السرو. وحديقة البرتقال. وصلت إلى سراى عبد الراضى. أسوارها عالية لها بوابة مفتاحها مع

السيد. فإذا فتح السيد البوابة، سارا تحت كرمه وعبرا ممرا ضيقا. يفضى إلى حوش. ويصلان إلى باب مغلق. مفتاحه مع السيد فإذا فتح السيد الباب بالمفتاح دخلا إلى حجرة بها أرائك مصفوفة على الجانبين وعلى الأرض بساط أخضر، وباب مغلق مفتاحه مع السيد. يفتحه السيد فيدخلان إلى فسحة بها سلم حجرى يرتفع إلى الطابق العلوى، ويصعدان السلم، ويدوران مع السلم حتى يصلا إلى فسحة، وباب مغلق. يفتحه السيد. ويدخلان قاعة كبيرة، بها أرائك كبيرة، ومناضد كبيرة. وصور كبيرة معلقة على الجدران. وأبواب مغلقة. مفاتيحها مع السيد. فإذا فتح السيد الباب الأول، دخلا حجرة نوم بها سرير طرى. مفتاح حبى مع السيد.

السيد لايخشى أسياده الغائبين عن القصر، إنهم لا يأتون إلا فى المواسم يا زكية، القصر قصرنا. قصرك يا زكية. الأبواب أبوابنا. تفتح لك يا زكية. الحياة لنا. العشق لنا. الفرح لنا . الدنيا تحت أمرك يا زكية.

كان منصور فى القرية. ذهب ليهنىء على ختان سالم. ابن أخى عبيد. استعدوا له بالفرح والشربات.. والزغاريد. وأنا مع السيد. نحيا. نحب. نخصب الكون.. فى قلبينا الفرح و «الشربات» والزغاريد. وكان الجنين.

قالت زكية لنفسها وهى ترقب شمس الصباح ترتفع مزهوة واثقة. هذا الحال لن يدوم فإما أن يطلقنى منصور أو أهجر السيد. وأنا واثقة أن

بينى وبين هذه الدنيا عمارا. فهى لن تخذلنى .. ولقد سترتنى عن الفضيحة.. وما أسهل أن أقول لنفسى .. هذا الصباح هو أول يوم لك فى الحياة. وكل ما فى رأسك يا زكية خرافات وأوهام. فلم ترتكبى إثماً ولا ذنبا. أنت بريئة طاهرة. وهذا الجنين الذى فى بطنك جاء من السماء. جاءكما يخرج القمح من بطن الأرض. وكما تتدفق المياه من جوف البئر.. وكما تورق الأشجار. وتطلع الشمس وتهب الريح. ويأتى الحر. ويسقط المطر. جاء هذا الجنين، ونما فى بطنى. كما ينمو شعرى. وتستطيل أظافرى. إنه امتداد طبيعى لى.

وإذا كان منصور يظن أنه أبوه. فليظن كما شاء. . ما الضرر.. الأبوة وهم فاللحم من عندى، والدم من عندى . والعظام من عندى. وعندما يولد فهو يخرج من بطنى إذا أراد منصور أن يكون أباه فليكن أبا له. وإذا أراد السيد أن يكون أباه فليكن أبا له. وإذا أراد كل رجل فى الدنيا أن يكون أباه فليكونوا جميعا آباء له.

الأرض تنبت الزرع ولا يهمها من الذى يرزعها، الأبوة ليست حقيقية. أمومتى وحدها هى الحقيقة. إذاً فلن أجزع. ولن أخاف، كل شىء على ما يرام. المرأة التى تحب وتلد لا تخطىء إنها أقوى من الخطأ والإثم، والعقاب الذى يتحدثون عنه لن يصيبنى، لأنه لن يصيب ولدى. وعندما أصعد إلى السماء ويأتى يوم الحساب. ويرسلون بى إلى النار. سأكون مع ولدى فى الجنة.

زكية امرأة طويلة القامة خدها وردى. وعيناها واسعتان لهما زرقة بحر. شفتاها ممتلئتان. وجهها الصبوح تكسوه براءة طفلة. ولكن التفاتة

برأسها أو نظرة فى عينيها، أو إنفراجه من شفتيها. جديرة بأن تحول وجه الطفلة البريئة. إلى وجه امرأة ناضجة. امرأة فاتنة. قادرة على الإغراء. امرأة تريد.

كانت زكية تتوقع قدوم السيد كعادته كل صباح. مارا بالساقية ومنصور ملقيا التحية. ملتفتا إليها من بعيد. لتراه ويراها. ثم يمضى فى طريقه. ولكن السيد تأخر هذا الصباح فتململت فى وقفتها. ثم غضبت. كل شىء فى مكانه. والشمس طلعت فى موعدها، والسماء فوق الأرض. والطريق يفضى إلى القرية، والجنين فى بطنى. فلماذا يتأخر السيد. سأعاقبه وأدخل الدار.

ودخلت زكية الدار. وانصرفت إلى عملها. هذه الدار مثل كل دار. سجن طوال عمرى وأنا أكره الحياة بين الجدران حتى جدران القصر أكرهها.

عندما كانت زكية فى الثانية عشرة من عمرها. كانت تقطع الطريق بين دار أبيها فى القرية. والحقل. عشرات المرات كل يوم. تروح وتجىء وكأنها تمشى فوق الدنيا. كأنها تسير فوق منصة عالية لترقبها عيون كل الرجال ولتلهث وراءها الصدور ، وتندلع الرغبات. ومنذ صباها المبكر وهى تردد لنفسها، ما أجمل أن أكون امرأة، وهو قول مازالت تردده حتى بعد أن استقر فى بطنها الجنين. ولكنها كانت تردده فيما مضى بحماس وعاطفة غامضة، أما الآن فهى تردده عن اقتناع وبعد تفكير واضح يزيده وضوحا ذلك الشىء الذى تتحسسه بيدها وهى تمسح بها على بطنها.

كان أبوها الحاج إبراهيم عبيد يراقبها فزعا منذ طفولتها، ولم يكن يستطيع أن يوضح لنفسه سر فزعه، كان يشعر أن شيئا ما، شيئا يثير الخجل، أو يخدش الحياء، يلازم هذه البنت، رغم أنه لا يستطيع أن يحدد موضع هذا الشيء من تصرفاتها أو حركاتها أو مظهرها. وكان يستعيذ بالله ويستغفره وهو يقاوم رغبة جامحة فى أن يهجم عليها ويضربها ويعذبها ويلقى بها فى مكان منزو حتى تموت، وكم سأل نفسه، أهو يكره الأطفال أهو يكره البنات ثم يقرر وقد تملكه العجب، أنه يحب الأطفال، ويحب البنات، ولكن شيئا ما فى هذه البنت بالذات يستفزه ويحرك غضبه، ولما كبرت زكية، قال الحاج عبيد هذه الصبية فيها شر الفتنة، والشيطان يتقمصها، ولو غفلت عينى عنها، فستجلب العار لى ولأهلى، وكان أحيانا يهجم عليها بلا مناسبة ويضربها. يضربها بعصا أو يركلها بقدمه أو يهوى عليها بكفه، وكانت زكية تصرخ وتبكى، وتنهمر الدموع من عينيها، ويرتجف جسدها، وترقد مكومة على الأرض، يصدر عنها أنين حزين.. ومع ذلك يشعر الحاج عبيد أن هذا الجسد الذى يئن ويرتجف، إنما هو جسد قوى، كأنه ألف جسد، يشعر أن هذه الأنات فيها دعوة محرمة، فيها فجور أنثى، فيها ما يتحدى تدينه وتقواه وحجه إلى بيت الله وقبر الرسول. وكانت زكية ترفع رأسها المحنى تواجهه بنظرة سريعة، فيمتلىء قلبه هلعا ويكاد يغمض عينيه ويفر هاربا من الأنثى الصغيرة التى تقمصها الشيطان.

أحيانا ينسى الحاج عبيد كل مخاوفه فيتهلل وجهه لمرأى زكية. وتراه فيتهلل وجهها، وتنسى كل تجاربها المحزنة معه، فترتمى فى

أحضانه، ويقبلها وتقبله، ويمسح بيده على شعرها، وتداعب أصابعها لحيته، ويضحك الحاج عبيد، وتضحك زكية وتضحك الدار كلها. ولكن زكية لا تكتفى بهذه الضحكات، عندما تبدأ فى الضحك فهى تريد أن تضحك للدنيا كلها، فكانت تختفى فجأة من الدار، وتخرج إلى الحقول ترقص فى مشيتها، على شفتيها بسمة. وفى عينيها نظرة، وكأنها تدعو الدنيا كلها لكى تشاركها فرحها الكبير.

وكان لابد أن يقع صبية القرية صرعى حبها، كان بينها وبينهم حديث صامت. بالنظرات. بتثنيات القوام. وبالمواعيد التى حافظت عليها زكية، وهى تمر أمامهم واحدا بعد الآخر كل يوم، كل يوم.

كانت زكية تمشى بين الحقول. وهى واثقة أنها ستجد عند رأس كل حقل من يقف مبهورا، عند كل ساقية من يرغب فيها، تحت كل شجرة من يريدها. وكانت زكية تحب الحقول الكثيرة الممتدة حتى نهاية الأفق. هذه الحقول بلا حدود، الحياة بلا حدود، وأنا بلا حدود.

وقالت زكية لأمها:

- متى أتزوج يا أمى.

ضحكت الأم ولكنها قطعت ضحكتها وهى تسمع زكية تسألها:

- كل رجل أستطيع أن أتزوجه يا أمى.

دقت الأم بيدها على صدرها، ونهرت زكية، وحذرتها بألا تردد مثل هذا الكلام حتى لا يسمعه رجال البيت، فيفتكوا بها. ولم تفهم زكية

لماذا جزعت أمها، ولماذا حذرتها وتساءلت عن سر المخاوف التى يرددونها من حولها لأن ما تشعر به كأمر طبيعى، يظنه الآخرون غير طبيعى. أهى بلهاء، أم هم البلهاء. ولكنها لن تفكر طويلا فى هذه المخاوف ستتركهم وشأنهم لمخاوفهم وتخفى فرحتها بالحياة فى جسدها، ولكن جسدها كان يفضح فرحتها بالحياة وهو ما يلاحظه الحاج عبيد فيكاد يجن فلم يهدأ له بال حتى زوجها وهى فى الرابعة عشرة من عمرها للرجل الطيب منصور، صاحب الأرض، وصاحب الزوجات، الذى حرمه الله من الأولاد. زكية هى التى تأتيك بالولد يا منصور.

انطلقت الزغاريد، ودوت طلقات الرصاص، وتجمع أهل القرية داخل الدار وخارجها، يتضاحكون، ويتسامرون، وزكية فى ملابس العرس واجمة قلقة، لا تفيق من ذهولها، منذ هجموا عليها وأغرقوها فى الدم، وهم يطلقون الصيحات، والزغاريد، ويبتهجون ويهللون، إذن فأنا مقبلة على الحياة، على الحب، على الأمومة. إذن فقد جاءوا يعلنون حقى فى أن يكون لى جسد يثمر، منذ هذه اللحظة سأملأ الحياة حياة، يكون لى حقل وبيت وأولاد، ستكون لى دنيا أمشى فيها بطولها وعرضها، سيكون لى رجل أحكمه ويحكمنى، سيمتلىء بيتى بالأولاد، وأولادى ينتشرون فى الأرض، والأرض بلا حدود، والحياة بلا حدود، وأنا بلا حدود.

سعل منصور، وشق أنينه الليل، وتململت زكية فى فراشها، وتساءلت أنتهى الليل، أتشرق الشمس، أيأتى الصباح.

فى صباح يوم ذهبت زكية إلى حسنية الغجرية، وسألتها النصيحة، وطلبت منها نبوءة. قالت حسنية الغجرية كلاما منمقا، والقت نبوءة، أن زكية ستملأ الأرض أولادا وستحيا سعيدة. أخرجت زكية قرشا أعطته لها، ومضت إلى دار أمها، وهى لا تصدق ما سمعته. الحياة ليست كلاما منمقا، الحياة ليست نبوءة من فم غجرية. الحياة فى جسدى والنبوءة فى جسدى، وجسدى عاطل، وسعال منصور لا ينقطع، يسعل بالليل وينشط بالنهار، يموت فى الدار ويحيا فى الحقل، يميته جسدى، وتحييه عيون الناس، منصور زوج بين الناس رجل بين الناس، قادر بين الناس، والناس عيون تتوهم، أما جسدى فلا يتوهم أنه يعرف الحقيقة قالت زكية لأمها.

- طلقينى يا أمى.

قالت أمها:

- يقتلنا الحاج.

قالت زكية فى هدوء.

- أو أقتل نفسى.

ولما وثقت أن أمها لن تتراجع صرخت

- أريد أن أعيش، أريد أن أعرف طعم الرجل، لن اقتل نفسى، سأترككم تقتلوننى، سأخرج الآن من الدار وأصرخ فى الرجال، ليأتوا لنجدتى، ليذوقوا الحب المعطل فى جسدى.

صرخت الأم:

ـ يا مجنونة..

وصرخت زكية..

ـ أنتم المجانين ليس فيكم واحد قادر على أن يعطل حياتى. أنا أقوى منكم جميعا.

ولما وثقت الأم من جنونها، ذهبت إلى الحاج، وهى تعرف أنها مقبلة على شر كبير، وقالت له..

ـ ابنتك تريد الطلاق. الرجل ليس رجلا. الزوج ليس زوجا.

وهاجت رأس الحاج بمخاوفه القديمة ورأى شر الفتنة الذى ظن أنه أخمده يعود إلى الظهور، الشيطان يتكلم بلسان زكية.

قال الحاج عبيد لزكية بلهجة آمرة:

ـ عودى إلى رجلك وبيتك يا ملعونة.

صرخت زكية..

ـ لن أعود..

زمجر الحاج متوعدا.

ـ أخرجى من هنا.. هذا ليس بيتك، ولن يكون بيتك.

قالت زكية متحدية..

- سأخرج من هذا البيت، ولن أعود إلى ذلك البيت..

أطلق الحاج صيحته الكبرى.

- ستخرجين في كفنك..

حدقت زكية طويلا في وجهه، كانت تقرر بينها وبين نفسها في تلك اللحظة أن ما بينها وبين أهل هذه الدار مجرد كلام، وهي لا تبحث عن الكلام، لا فرق بين نبوءة الغجرية التي لم تصدقها ولم تقتنع بها، وبين مجيئها إلى أمها وأبيها لتسمعهما يتوعدان ويصرخان ويعطلان حياتها بالكلام الذي لا تصدقه ولا تقتنع به.

وسكتت زكية.

ظنوا أنها أذعنت، واستسلمت وأن الشيطان الذي يتقمصها قد استكان وارتاح الأب لسكوتها، فاسترسل في الكلام. ذكر أشياء عن الدين، والفضيلة، وردد مواعظ وحكما وقال كلاما عن الجنة والنار، والعقاب الذي ينزل بغير القانعين.

وغادرت زكية الدار التي عاشت فيها صباه، وهي لا تذكر شيئا مما سمعته ماعدا تلك الكلمات الغامضة التي ذكرها أبوها عن العقاب، أهو عقاب الله أم عقابهم.

وسألت زكية الشمس والسماء والحقول.. هل تعاقبونني فأجابتها نحن لا نعاقب الحياة.

وسألتهم زكية أيعاقبكم الله، أيعاقبك الله أيتها الشمس لأنك تضيئين طريق الصالح والطالح، وفاعل الخير، وفاعل الشر، وتبثين الدفء في

أجسادهم جميعا، أيعاقبك الله أيتها الأرض لأنك تنبتين الزرع للتقى الورع والكافر الطامع أيعاقبك الله أيتها السماء لأنك تظلين المجانين والعقلاء والأبرياء والمذنبين.

وسمعتهم زكية يجيبون. الله لا يعاقبنا.. الله لا يعاقبنا.. إذن فهو عقاب البشر، عقاب الضعفاء الجبناء، عقاب الخائفين الهلعين.

ولم تعد زكية تفكر فى العقاب.

ولكنها بعد أن رأت السيد، ووجدت نفسها مشغوفة به فكرت فى الذنب.

كان السيد وسيما بين شبان قريته ماله أكثر، ونفوذه أكبر. كان رجال القرية يستمدون نفوذهم من دائرة الأمير، ويحصلون على مالهم من دائرة الأمير، أما السيد فكان يستمد نفوذه وماله من عائلة عبد الراضى، التى كانت تقاوم أطماع الأمير فى الحصول على أرضها مستعينة بلياقة السيد ومقدرته على التفاهم، واكتساب القلوب، وإقناع العقول. كان السيد يمشى بين الحقول، ينثر المرح، وينتزع البسمات، ويشيع الطمأنينة والمحبة. الرجال يرحبون به، والأولاد يلتفون حوله، والنساء يرقبنه فى حب كبير. ولما ماتت زوجته. حزنت القرية كلها وبكت النساء الزواج السعيد الذى انقضى. وسمعت زكية نساء القرية يثرثرن من تكون السعيدة الحظ التى تتزوج السيد بعد موت زوجته ووجدت زكية نفسها تهمس. السيد لى. الزواج السعيد لى. لن أدعه يفلت منى.

وحينئذ فكرت زكية فى الذنب.

الذنب هو أن أريد ولا أستطيع أن أحقق ما أريد. الذنب هو أن أظل أكتم الرغبة فى نفسى. الذنب هو أن أرى الحياة مجسدة أمامى ولا افتح ذراعى للحياة.

ولكنهم يفهمون الذنب بطريقة أخرى. الذنب هو أن أخرج على ما يريدون. لو يفهمنى أبى. أقول له. يا أبى يا حاج. يا من تعرف الدين. يا من زرت قبر الرسول أليس لى حق فى الحياة. فى البهجة. فى الفرح. بالأمس مر بحقلك السيد. وألقى بتحيته فاحمر وجهى. وسألنى عن منصور. لم تكن يعنينى سؤاله ولكن صوته الرخيم الحزين أسرنى. لم يكن يعنينى إجابتى. صوتى الخجول المرتجف أحيانى صوت ذكر وصوت أنثى. وطالت نظرته إلى وجهى. نظرة مؤدبة. ولكنى أعرف أعماقها. أنه لا يعرف أعماق نظرته. يجهل أنه لو ظل ينظر إلى، سيفتن بى وسيهيم بحبى، لو جاء يسأل عن منصور مرة ثانية وثالثة ورابعة سينتبه فجأة إلى أنه يجئ ليسمعنى صوته، ولأسمعه صوتى. لماذا لا نترك الحقائق تتكشف. لماذا نسترها ونخمدها. صوت منصور يستك بأذنى. صوت صخرى. مجدب. أتفهم يا أبى. لو قال أبى. نعم أفهم يا زكية، وسار فى موكبه المهيب إلى منصور وطلقنى. وجاء السيد فى موكبه المهيب وتزوجنى وأطلقت القرية زغاريدها، زغاريدها الحقيقية. ودوت طلقات الرصاص دوت كما ينبغى أن تدوى.. ورقصوا وغنوا... والله كنت أول من ترقص بينهم.. ويرقص السيد.. ويرقص فرس السيد.. ونرقص جميعا حتى نهاية العمر.. الذنب ألا يحدث هذا. ولكن الذنب عندكم أن يحدث هذا.

قالت زكية لمنصور.

- طلقنى..

هوى بكفه على صدغها. صرخت. خرجت مولولة بين الحقول.. وعبرت الساقية إلى الطريق. وجرت مولولة لاطمة مقتحمة القرية. وقف الرجال.. وخرجت النساء من الدور.. وهلل الأطفال.. وقبل أن تصل إلى دار أبيها.. كانت القرية تقول بلسان واحد.. زكية جنت.

قال الحاج متوسلا لمنصور.

- هذا قضاء الله. أسترها يا منصور.

قال منصور بإيمان كبير..

- هذا قضاء الله... وأنا راض بقضائه...

وسحبوا المجنونة إلى الدار القائمة وسط الحقول.

ما أروع الجنون. سلطان آمر.. لا يرده أحد. باسمه أهيم فى الحقول.. بأمره أخرج وأعود. قوية قادرة.. أتحدى عقولهم.. أرتفع فوق قيودهم باسم الجنون.. عبرت زكية الجسر فوق القناة.. وسارت بحذاء أشجار السرو، وحديقة البرتقال.. واعترضت طريق السيد.. خاف منها أول الأمر.. ولكن سرعان ما استسلم لجنونها. وفتح البوابة الكبيرة. وفتح كل الأبواب ودخلا الحجرة التى بها السرير الطرى.

قال السيد:

- أنا مجنون بك يا زكية.

قالت زكية:

- وأنا مجنونة بك يا سيد.

قال السيد:

- لو أتزوجك يا زكية.

قالت زكية:

- أنت زوجى يا سيد.

قال السيد:

- ومنصور يا زكية..

قالت زكية ضاحكة

- لا تذكره لأننا مجانين يا سيد..

وفى لقاء آخر، سألها السيد..

ونهايتنا يا زكية..

قالت زكية:

- ليست لنا نهاية يا سيد..

قال السيد:

- ألا نموت ونلقى ربنا يا زكية.

قالت زكية.

ـ أنا وأنت لا نموت. هم الذين يموتون ياسيد.

آمنت زكية.. أن حبها دائم.. كالشمس والأرض والسماء. باق ما بقيت الدنيا. أما القرية وأهلها فستنهدم على من فيها.. سيموت أهلها.. وتنفض الجدران.. وتبقى هى والسيد.

وجاء الجنين..

ووقفت زكية تنتظر مجيء السيد كعادته كل صباح.. فلما تأخر.. غضبت.. ودخلت الدار.. منذ جاء الجنين وهى تغضب.. وتستسلم أحيانا للعقل. وتلاطف أحيانا منصور وتتركه يتوهم أنه الأب.. وتسمح له بتدليلها، ثم تفزع من نفسها.. وتقلق.. شيء غامض بدا يتسرب إليها.. ويتلصص داخلها.. وهى لا تدرى ما هو.. لو عرفته لقاومته.. ولكنها تستشعر هذا الشيء يجرفها إلى عالم الذين يموتون ويبعدها عن عالم الذين لا يموتون.. تتناوبها الآن لحظات جنون ولحظات عقل. لم تعد تطيق الجنون وحده ولا العقل وحده. عليها أن تختار.

وقالت للسيد.

ـ يجب أن يطلقنى منصور.

قال السيد:

ـ أو أقتله.

قالت زكية.

ـ أو أهجرك.

قال السيد:

ـ وأقتلك.

ـ قالت زكية:

ـ اقتله أنا.

قال السيد:

ـ وتذهبين إلى السجن.

قالت زكية.

ـ إنتظرنى...

قال السيد..

ـ ولو ذهبت أنا تنتظرين يا زكية.

وتعاهدا لو فرقت بينهما الأيام. أن ينتظرا انقطاع الفراق.

كانت زكية تطحن.. وهى غاضبة.. لو تأخر يوما آخر فسأهجره.. وسمعت صوت أقدام.. ودخل منصور مضطربا .. وسمعت فى نفس الوقت صراخ نسوة آتية من بعيد..

هتف منصور لاهثا..

ـ السلطة تأخذ الرجال يا زكية.

كان خائفا يرتعد. رغم كبر سنه وهجمت زكية عليه، تبعده عن طريقها وخرجت تعبر الحقول.. جرت بكل جنونها .. حتى وصلت إلى

الطريق.. ورأتهم، النسوة خلفهم يبكين .. والأطفال يبكون.. مساقون يلتف بهم الجند، شاهرى البنادق ملوحين بالسياط.. وبين الرجال يمشى السيد.

ما أروع الجنون.. باسمه انطلقت زكية غير هيابة أحدا، هجمت على صفوف الرجال.. تريد اقتحامهم لإنتزاع السيد من بينهم. فاعترضتها الأجساد.. وألقت بها الأيدى على الأرض.. فنهضت شاهرة أظافرها.. مطلقة صرخاتها.. فصكتها البنادق.. وألقت بها على الارض.. وارتفع عويل النسوة. وبكى الأطفال.. أما رجال القرية فكانوا مختبئين فى البيوت.. ونهضت زكية فاتحة فمها، لتنهش بأسنانها.. لتأكل من يعترضها.. وانهالت عليها السياط وألقت بها على الأرض. ابتدأ الدم يسيل من كفها، والتراب يملأ فمها وأنفها، والعويل يمزق أذنيها ونهضت لتهجم بحياتها.

المجنونة.

ولدك الذى فى بطنك يا زكية.

تكاثر النسوة عليها.. وأسرع الجنود فارين، يسوقون أمامهم غنيمة الرجال.

لم تسمعهم زكية.. ولم تسمع صراخهم.. ولم تسمع صراخها.. ولم ترهم.. رأت وهجا أحمر.. ضبابا أحمر.. من خلاله يبدو وجه السيد يتألم لو ذهبت أنا تنتظرين يا زكية..

لم يفهم أحد سر صراخها. سأنتظرك.. سأنتظرك.

قالوا لها مجنونة .. واختفى وجه السيد.

ساعة الغروب.. كان منصور يجلس مع أصحابه خارج الدار، يتحدثون في أمر الرجال الذين استولت عليهم السخرة .. إنهم لا يعودون.. لا يعودون.. لا يعود إلا القليل منهم.. قضاء الله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. مسكين السيد.. مثله لا تأخذه السخرة.. هذا من تدبير رجال الأمير.. بعد الآن لن يجرؤ أحد على خدمة عائلة عبد الراضى. الأمير وحده قادر على حماية رجاله.

ونهض منصور ليدخل الدار في قضاء حاجة. فرأى زكية جالسة القرفصاء وسط القاعة لا تتحرك ولا تتكلم.. كأنها صنم. نظر إليها متعجبا، رغم توقعه لشذوذها. وهمس متوسلا.

- انهضى يا زكية. وارقدى فى فراشك. ولدنا لا يحتمل هذا يا زكية.

لم تتحرك. ولم تنبس بكلمة.. وظلت فى جلستها الخرساء حتى الصباح.

١٨

٩ يوليو سنة ١٩١٢

جاء المأذون فى الصباح الى دار الحاج إبراهيم عبيد.. وتم طلاق زكية.. وقال منصور للحاج ..

ـ يعلم الله أنى ما أردت هذه النهاية.. وما بينى وبينكم لم ينقطع.. وأنا أترك ولدى محمود فى رعايتك يا حاج.. فأنت مسئول عنه، حتى يأتى اليوم الذى يعود فيه ولدى إلىّ .. ولن أفرط فيه.. فهو من صلبى.. أنا الذى زرعته وسقيته .. ولكنى لن أحصده الآن من أمه.. بيننا الشرع. وبيننا المعروف . ولقد صنت ابنتك من الهلاك.. وحميتها من الجنون. فصن لى ولدى.. واحمه من جنون أمه، واذا أرادت يوما أن تعود الى دارى، فأهلا وسهلا.أطرق الحاج برهة، ثم رفع رأسه.. وجهه محتقن، عيناه مبتهلتان يائستان وقال..

ـ غفر الله لنا جميعا يا منصور.. هذه مصيبتى. وما علينا إلاّ أن نتقبل أمر الله. وسأفعل كل ما تريد وأكثر.. وأقسم لك أنك أقرب الى

قلبى من هذه المجنونة.. ولولا خشية الله الذى أعبده لتمنيت موتها. ولكنه امتحان من الله. وعلينا أن نصبر، وأن ندعو ليرفق بنا. فالرجل منا يتعامل مع أهله وعشيرته بما أمر الله ورسوله. وبما رسم لنا آباؤنا وأجدادنا من أصول وحدود.. الرجل منا يعرف ما هو الخطأ وما هو الصواب.. ويعرف ما هو المعروف ويعرف ما هو العيب. ويعرف ما يقال ومالا يقال. الموت أهون عندنا من فعل مالا يرضاه الله. ومن ارتكاب ما يحرك عظام موتانا فى قبورهم.. والقرية كلها تعرف ما هو بيت عبيد، والأمير نفسه يعرف ما هو بيت عبيد. وعندما منع رجاله الماء عن أرضنا فى الحوض القبلى. سافرت إلى الإسكندرية وشكوت له.. وقلت لرجاله أن جدودنا لم ينقطع عنهم الماء، وآباؤنا لم ينقطع عنهم الماء. وأن هذا حكم الله لا ينقضه أمير ولا ملك.. وقبل أن يأتى الليل عاد الماء إلى الأرض. نحن لا نقطع عادة.. ولا نخرج عن حد.. والبنت التى تخرج من بيتنا إلى بيت زوجها لا تعود.. والبنت التى تخرج من بيت أهلها وتأتى الى بيتنا لا تعود .. ولكن ما حيلتنا أمام الجنون..

وقطع الحاج كلامه.. وقد تولاه الهلع.. كان يسمع زغاريد..

صرخ الحاج مهرولا الى مصدر الصوت:

من التى تفضحنا وتجلب النجاسة الى بيتنا.

ورأى زكية تحمل طفلها، وتطلق الزغاريد. فهجم عليها، يصفعها ويركلها. فتكومت على الأرض، طفلها فى حمايتها. غير مكترثة بآلامها.. تطلق الزغاريد..

ما كادت زكية تعلم بوقوع الطلاق.. حتى انتفض جسدها بالفرح.. فرح كبير لا يقاوم. ها هى تنتصر على كل القيود. انفتح طريق الحياة، وتحسست صدرها المحروق. ما أجمل هذه الحروق. ستكشفها للسيد. ليتحسسها ويقبلها. هذه علامات النصر. النصر عليهم جميعا. هذه الحروق حرقتهم.. حرقت أوامرهم.. حرقت آباءهم وأجدادهم. هدمت دنياهم..

منذ شهرين قالت زكية لمنصور:

ـ اذا لم تطلقنى سأحرق نفسى.. سأحرق ولدى..

قال منصور متوسلا:

ـ كيف أطلقك.. وأنت أم ولدى.. ولدى الذى ليس لى غيره فى هذه الدنيا.. ارجعى إلى عقلك يا زكية.. لك كل ما تريدين.. سأخضع لمشيئتك.. سأعيش خادما لك.. ولكن لا تحرمينى ولدى.

صاحت زكية..

ـ هذا ليس ولدك..

قال منصور معاتبا..

ـ إنه ولدنا يا زكية..

صرخت زكية..

ـ إنه ولدى أنا.. وليس ولدك.

قال منصور محاولا إقناعها..

- ولكنى أبوه يا زكية ..

ارتفع صراخها..

- لست أباه.. أبوه رجل آخر.

وقال منصور لنفسه، عادت إلى جنونها.. وابتعد مهموما .. كان يخشى كلماتها المجنونة.. إنها تلوث أبوته.. وهو الذى عاش طوال هذه السنين فى انتظار الولد.. وتزوج فى انتظار الولد.. سيبتعد عنها حتى تهدأ.. وحتى تكف عن الكلام..

كان يقف مترددا عند باب الدار.. عندما سمع صراخها الحاد.. كانت قد أشعلت النار فى ملابسها..

حملوها إلى بيت أبيها الحاج. وتألمت كثيرا قبل أن تلتئم حروقها. وكانت لا تكف عن طلب الطلاق.. كلمة الطلاق هى البلسم المريح الذى يخفف حدة آلامها..

ولم تندم زكية على فعلتها حتى وهى تعانى من شدة الألم.. كانت تشعر أن هذه الآلام ضرورة.. إنها تخلصنى من زكية إبنة الحاج. تخلصنى من زكية بنت القرية.. تخلصنى من زكية زوجة منصور.. إنها تخلصنى من زكية التى ترتكب الذنب.. وتستحق العقاب.. آلامى عاقبتها.. شوهت بدنى.. أكلته النار.. سأشوه لكم كل ما تريدون من زكية التى تعرفونها.. زكية التى تحيا كالشمس والأرض والسماء.

غادر منصور دار الحاج، والزغاريد تخرق أذنه .. ورثى للحاج.. وكان غاضبا من نفسه. هذا الجنون أشبه بالعار.. النساء لا يزغردن يوم طلاقهن.. المرأة لا تقول لزوجها لست أبا لولدك. جنون أشبه بالفضيحة.. الى متى نصبر عليه.. إلى متى نقول أنه إمتحان من الله.

كان الصبى سالم عبيد يلعب مع صديقه عبدالعزيز بسيونى عند حافة الحقول..

وقال عبدالعزيز..

- عمتك زكية مجنونة..

- قال سالم.. أبى عبيد سيقتلها

- قال عبدالعزيز ضاحكا..

- أطلقت الزغاريد وعم منصور يطلقها..

قال سالم وهو يرى تهاويلها تملأ خياله..

- ضربها أبى عبيد..

وقال عبدالعزيز:

- أبى بسيونى قال أنها لابد أن تموت..

قال سالم ببساطة وهو يبتسم :

- نعم.. سوف تموت..

١٩

٢٩ مايو سنة ١٩٦٢

زينب التى دخلت شقة عمر كانت امرأة طيبة، خجولة، هكذا أختارت أن تبدو له. وكانت واثقة من نفسها. هذه المرة لست فى حاجة الى بذل أى مجهود، أو تأليف كلام. عمر هو الذى سيبذل الجهود، وهو الذى سيتكلم.

بسببك كدت أفقد عملى وحياتى وعقلى. كلام لا بأس به، مبالغ فيه، ولكنه على أية حال بداية طيبة للعلاقة التى ستقوم بيننا.

ألقت زينب نظرة فاحصة على المكان. شقة عازب. رأيت أسوا منها. لن تفاجئنى قذارة الحمام، والصراصير فى المطبخ. ولكنها مريحة. بيت حقيقى اختارت زينب مقعداً وجلست عليه، وجلس عمر أمامها. يبدو أنه مرتبك. وهذا أفضل بكثير من جموده السابق. ارتباكه مقدمة ضرورية لكل ما سيكون بيننا سأستنزف كل كلامه الرومانتيكى سأجعله يبكى. وسيتقلص وجهه عذاباً ورغبة. سيتوسل إلىّ. سيهجم

عليّ وأقاومه.. سألقنه درسا. عندما ندخل حجرة النوم، سيكون منهزما يائسا. وسأكون منتصرة قادرة.

تمتم عمر بكلمات التحية المعتادة. كأنه فى مقابلة رسمية. يقوم بالدور التقليدى للضيف..

- قهوة؟ شاى؟ آسف. ليس عندى خادم. حياة عازب كما ترين. ولكنى أحب هذا البيت.

قالت زينب باسمة..

- لا أستطيع أن أشرب شيئا الآن.. لابد أن ينتهى ارتباكه سريعا، لو طال هذا الموقف فسيصبح مملا. لعل ابتسامتى تشجعه ..

قال عمر:

- آسف لأنى أزعجتك..

قالت زينب وهى تصوب عينيها الى وجهه، وقد تخلت فجأة عن خجلها..

- قلت أن عندك كلاما خطيرا..

قال عمر منفعلا..

- نعم..

قالت عينا زينب. هيا تكلم. أنا منصتة إليك. أمامك نصف ساعة للكلام ونصف ساعة لتعبر المسافة بين مقعدك ومقعدى. ونصف ساعة تتذلل فيها أمامى..

قال عمر:

ـ منذ ذلك الذى حدث بيننا وأنا أفكر فيك..

قاطعته زينب. ليست هذه البداية التي نتوقعها. أين كلمات. روحى وقلبى وعقلى..

ـ ما الذى فكرت فيه..

ـ أنت..

ـ وماذا فكرت..

قالتها غاضبة. أنها لا تحتمل فى مثل هذا الموقف، كلمات أفكر، وتفكير، وأفكار، ما الذى يعنيه؟ أفكر فى أنها امرأة مستهترة. أفكر فى أنه أضاع فرصة سنحت له. أيريد أن يتفلسف ويقول رأيه فيها، أو يصدر أحكاما عليها، أو يحللها نفسيا ..

قال عمر :

ـ حقيقة أنا فى حيرة..

قالت بصوت واضح قاطع..

ـ قلت لك فى التليفون. إن ما حدث بيننا لم يكن مقصودا به شيء. لعلى كنت فى أزمة نفسية. مضطربة. أشعر بوطأة وحدة ثقيلة مؤلمة. شبه مجنونة. وكنت فى حاجة إلى من يواسينى. وأنا امرأة. قد لا تسعفنى الكلمات. فأتصرف أحيانا بغريزتى، وهذا هو ما دفعنى الى

تقبيلك. قبلة لا أريد أن تفهم منها شيئا غير مقصود. لأنك تخطئ كثيرا لو ظننت أني أمرأة مستهترة. هذا إتهام لن أقبله منك ولا من غيرك..

فتح عمر فمه ليقول كلاما. ولكن زينب اندفعت تقول..

- لا تنكر أن هذا هو ما تصورته عنى. ولكنك مخطئ. لقد شعرت أنى أشكو لك همومى. وأن تكون بيننا صداقة. أنا فى حاجة إليها. وربما أنت أيضا فى حاجة إليها. ولكننا سنخسر كل شئ لو تصرفت كرجل عادى، يفكر تفكيرا عاديا. يظن أنى امرأة مستهترة تريد إصطياد رجل. أو تترك الرجال يصطادونها. ما الذى فكرت فيه وأنت تتركنى عند الباب. أظننت أنى سأذهب بك الى فراش زوجى أنا لا أفعل هذا. لعلك تظن أنى جئت إليك لنفس السبب. ستندم على هذا الظن.

رفع عمر صوته هاتفا:

- مستحيل أن أفكر على هذا النحو. أنت لا تعرفيننى. بل أظن أنك تعرفيننى لأنى أصدق كل ما تقولينه. أصدقه بغير كلام منك..

أنا فى حاجة إليك.. فى أشد الحاجة إليك. قلت لك فى التليفون أن بسببك كدت أفقدِ عملى وحياتى وعقلى. وأنى مصمم على مقابلتك. الأمر أخطر بكثير مما تتصورين. قد لا أستطيع أن أحدد لك الآن ما الذى أريده بالضبط، ولكنى على يقين أنى فى حاجة إليك. ولو شرحت لك ما مر بى خلال العشرة أيام الماضية لظننت أنى مجنون. أنا لا أدرى ماذا بى. ولكنى واثق أن شيئاً خطيرا يتحرك داخلى. ولم أكن

حتى الأمس أعرف ما الذى يجب أن أفعله. كنت أتعذب. عذابا لا يحتمله بشر. وكنت مترددا بين أن أكلمك وأرجوك أن تأتى إلىّ، وبين أن أذهب إلى صديق قديم يعيش فى القناطر، فكرت فيك مثلما فكرت فى هذا الصديق. وارتديت ملابسى وخرجت من هنا قاصدا المحطة. وفى الطريق اتصلت بك.

وأطرق عمر برأسه، وكف عن الكلام وسألت زينب نفسها، أهو جاد فيما يقول. أكل ما يبغيه هو استشارتى. أيريد مناقشة حياته معى. ألا يفكر فى مغامرة بيننا. ألن تكون بينى وبينه معركة. وصد ومقاومة. لو كان هذا صحيحا فلن يضايقنى. وسأحاول مخلصة أن أساعده، ليتنى أستطيع مساعدته أستطيع.

ليتنى أستطيع.

قالت زينب بصوتها الطيب..

- ماذا بك يا عمر؟

قال عمر ببطء :

- لا أجد الكلمات التى تعبر عما بى. أنا لا أجيد الكلام وأخشاه.

قالت وهى تبالغ فى طيبتها..

- حاول أن تشرح لى..

- نعم سأحاول ..

ونظر فى عينيها. فى عينيه ألم كبير وقال:

ـ أشعر أنك قريبة منى. وأنك قادرة على فهمى. والذى يربكنى أنك امرأة. لم أكن أتصور أنى سأحتاج فى يوم من الأيام إلى امرأة. المرأة جانب من حياتى أهملته تماما. فأنا لم أعرف من النساء إلا أمى. وعلاقتى بها لم تخرج عن حدود العلاقة بين أم وابنها وكنت أتحاشاها. وعندما بكت وأنا خلف القضبان فى المحكمة، حولت بصرى بعيدا عنها. وكرهت دموعها. قلت أنها دعوة إلى الجبن والضعف، وقلت أنها مجرد شىء خرجت منه إلى هذه الدنيا. أما بقية النساء فعرفتهن من الطريق.. أقضى مع الواحدة منهن ساعة، ساعة لا أكثر، وأعطيها نقودها ثم لا أراها، ولا يدور بيننا كلام. مجرد إرضاء رغبة فى جسدى. لم أعرف عاطفة الحب. الحب يضعف أمثالنا. يجعلنا نتمسك بالحياة. وهذا خطر علينا. كنت أحب زملائى. أحببت صديقى الذى فى القناطر. وهو حب من نوع آخر ليس كالحب بين الرجل والمرأة، حب أقوى منه بكثير. كانت بيننا أسرار، وعمل، وكان الواحد منا يفنى فى الآخر. وحتى هذا الحب انتهى من حياتى. وعشت سنواتى الأخيرة وأنا أشعر أنى عاطل. أعيش على هامش الحياة. بين ملفات الأرشيف فى الوزارة، وحجرات هذا البيت. وجاء الأستاذ سالم وأراد أن ينبش حياتى أراد أن يستعيد أيام الماضى. ولا أظن أنه قادر على الوصول الى شئ. تكلمت معه كثيرا، وحاولت، ولم أفلح كنت أشعر بإرهاق وغثيان بعد كل مقابلة بينى وبينه. وأتساءل لماذا أقابله، وما الذى يضطرنى الى إضاعة وقتى فى بيتكم. ما علاقتى بكم. قلت له أن عمر الذى

يبحث عنه قد إنتهى. وأنى عمر آخر. ولكنه يصر ويلح. إنه يريد أن يعرف، ويسأل أسئلة، ويفكر ويقرأ كتبا. وهذا كله لا صلة له بحياتى الماضية. لم نكن نسأل أنفسنا، ولا نفكر، ولا نقرأ. ورغم سخافة الموضوع. احتملته، كما أحتمل حياتى وسخافتها. ولكن كل شئ قد تغير منذ تقابلنا وحدنا.. إتصالك المفاجئ بى. حضورك الى الوزارة. ذهابنا إلى شاطئ النيل. كلامك عن الوحدة، رغبتك فى أن تجعلى منى صديقا لك. تقبيلك لى ونحن فى المصعد، كل هذا أشعرنى فيما بعد أنك فى أزمة. وأنك تريدين مواجهة الأزمة بتصرف أو بعقل. لم أدرك هذا إلا بعد أن تركتك وأنا أفكر ببطء. ولقد أدركته بوضوح.. أنه هو نفس الشئ الذى أنا فى حاجة إليه. أنا فى أزمة، وفى حاجة إلى أن أتصرف، أفعل، لأواجه الأزمة. التصرف الوحيد الذى عرفته، وآمنت به..

وحدق عمر فى وجه زينب وسألها :

ـ أتعرفين ما هو ؟

قالت زينب فى جزع..

ـ لا ..

كان فى رأسها خاطر مزعج غامض لا تستطيع أن تحدده..

قال عمر وهو يصوب كفه نحو زينب.

ـ القتل..

فى هذه اللحظة تذكرت زينب أنها فى بيت قاتل..

كيف غابت عنها هذه الحقيقة. والمسدس؟ المسدس الذى رأته معه. الذى أخرجه تلك الليلة وهما فى العربة وألقى به فى حجرها. إنه موجود فى هذا البيت. فى مكان ما فى هذا البيت.. يختبئ مسدسه..

ورأت زينب بخيالها عمر النجار وهو يصوب مسدسه إليها. وجهه جامد.. لا رحمة ولا حب فيه. سأقتلك.

يطلق الرصاص. فيخترق جسدها. ينزف الدم منها. ينزف من جثتها. تموت. أنا أواجه خطرا كبيرا. أفضل أن اعتذر بأى سبب، وأفر من هنا. أخطأت بالمجئ.. لا شك أنى مجنونة أندفع دائما وبلا تفكير.. خاطرت مع الغرباء. خاطرت مع الذى قد يضربنى ويهيننى أو يفضحنى. كنت أبدد مخاوف وأخاطر. وأنجح. ولكنى الآن أخاطر مع الذى قد يقتلنى. تصرفى الوحيد هو المغامرة. هو البحث عن لحظة سعادة أو متعة. سلاحى هو الفرح، هو اللذة، به انتصرت دائما. به جرفتهم جميعا. ولكن كيف أجرف الموت. تصرفه الوحيد هو الموت. القتل. البحث عن جسد يصرعه. سأضحك وأرقص وأغنى. ولكنه لن يهتز. سيطلق الرصاص ويقتلنى. أيكون قد أتى بى الى هنا ليقتلنى..

سمعت عمر يقول:

- خلال العشرة أيام الماضية، وأنا أفكر كالمجانين. أفكر فى أشياء غريبة. أتعرفين ما هى؟

ـ ما هى..

قالتها هامسة..

ـ أفكر فى عودة أيام الماضى. أفكر..

وسكت عمر. تذكر أنه فكر فى قتل زينب. وأنه ما أراد لقاء فهمى. إلا ليقتل معه زينب. ها هى أمامى. فلماذا أعقد الأمور، وأبحث عن كلام، وأتوهم مشاعر غامضة، وعجزا في القدرة على التعبير. الأمر أبسط من هذا بكثير. المسدس فى الدولاب. أقبض عليه، وأدعه يفكر ويتكلم. ويعود عمر النجار. وتعود أيام الماضى. وأجيب على أسئلة سالم..

بحثت زينب عن كلمة إعتذار تقولها، وتفر. ورأت نفسها وهى تخرج من الباب، كأنه حلم. تفر هاربة من هذا القاتل إلى بعيد. تنجو بحياتها. تنجو إلى أين؟ أحست أن ما تفكر فيه ليس هو ما تريده. إنها تريد البقاء هنا، الى جانب عمر.

وجها لوجه مع عمر. سأستمع اليه، وسأساعده، وسأواجهه حتى ولو تعرضت للخطر. سأبقى. لن أفر. حتى لو شهر مسدسه فى وجهى لست خائفة منه.. ربما كنت مجنونة. ربما كانت هذه نهايتى. ربما كان عقابى على يد عمر. كنت أسخر من فكرة العقاب. أظنها وهما يصنعه الناس. ولكن حتى لو كان عمر هو عقابى. فسأبقى. وسأواجه العقاب. ليكن ما يكون. لابد أن تنشب بينى وبينه المعركة. وسأهزمه، وسأنتصر. سأتحدى الخطر. لو نجحت مع عمر، لو استطعت ترويضه.

لو جعلته يحبنى هذا هو النصر الحقيقى. أقتل القتل. أقتل الموت. سيكون حبى الأخير. سأنجب منه ولدا. ها هو الذى كنت تبحث عنه يا سالم. سألت عمر. وكتبت الأوراق. ولكنك لن تعرف الحقيقة بهذه الأوراق أردت أن تعيد عمر القاتل وسأخترع لك عمر الأب. أكمل حكايتك يا سالم..

ولكنى أكملها..

نفد صبرى يا سالم.. عندى كلام أريد أن أقوله..

قولى يا حبيبتى..

أشعر بالحرج. ولكنى سأقول.. أتعرف يا سالم لماذ ن الأب ابن عمتك. أتعرف يا سالم. لأن الأب يعلم أن الولد ليس إبنه.

مستحيل..

هذه هى الحقيقة..

الفلاحون أشرف من هذا..

هه إنهم بشر..

لن أتراجع. لن أفر. لو فررت فسأظل فريسة الملل..

لن أجد فى فرارى إلا أمثال سعيد. وستبقى نفسى صغيرة.

سأواجهكم بالزغاريد مثل عمتك المجنونة يا سالم كل هذه السنوات ضاعت عبثا وأنتم تتكاثرون فى غباء يا آل عبيد..

أنتم الذين خلقتم عمر. أنتم الذين خلقتم الموت..

قالت زينب في ثقة تقطع الصمت..

- تفكر في القتل..

- نعم..

- قتل من؟

أطال عمر النظر إليها. قالت ضاحكة..

- في قتلى؟

- نعم..

- أدعوتنىِ الى بيتك لهذا..

- لا ..

- أليس هذا هو الشئ الخطير..

- لا ..

- إذن ما هو..

- لا أدرى..

قالت زينب بسرعة..

- أتفكر في قتل سالم..

ردد عمر في دهشة..

ـ سالم؟

قالت وبسمة على شفتيها..

ـ ظننت..

همس عمر مقاطعا..

ـ لم يخطر ببالي..

تنهدت زينب، أو تصنعت أنها تتنهد..

ـ الحمد لله..

قال عمر باسما..

ـ إنه يستحق القتل..

قالت في دلال..

ـ أتقتله من أجلي..

ـ ومن أجلي أنا أيضا..

قالت فجأة بصوت رزين..

ـ لا أظن أنك تفعل هذا..

وضحكت. وضحك عمر. كانت زينب راضية عن نفسها، استطاعت أن تتغلب بسهولة على كل خوف أو قلق. تحول القتل إلى دعابة. وها هو وجه عمر يشرق، من قال أنه قاتل. هذه أكذوبة كبيرة. لو عرفني في تلك الأيام لما فكر في المسدس، لأصابه الذعر من رؤيته.

وفجأة تذكرت زينب محمود..

كان وجهه الضاحك يحنو عليها. فاغرا فمه، تدس فيه فص برتقال. أين كان هذا. فى حديقة الأورمان. سالم كتب هذا فى أوراقه..

إنه يعلم..

كيف عرف؟

سالم يعرف كل شئ. هذا جنون.. مستحيل، حبيبى محمود. مات. من الذى قتله. كيف يجسر سالم. لماذا يعيش معى. إنه يعرف أننى هنا..

نهضت زينب، وسألها عمر..

- تريدين شيئا..

كانت تتلفت حولها كالمختنقة.

وهمست..

- أين الحمام..

قادها إليه. وأغلقت الباب. ووقفت تنظر الى وجهها فى مرآة يعلوها الصدأ. سالم يعلم كل شئ. لن أعود اليه. سأحتمى بعمر. إذا جاء ورائى فسأطلب من عمر أن يقتله. لابد أن يحمينى. أخرج الآن قبل أن يأتى سالم ويهاجم البيت. ما الذى يريده سالم. ماذا كتب فى تلك الأوراق. ليتنى احتفظت بها. سأحاول استعادة كل ما قرأت. إنهما متشابهان أنا

وعمر متشابهان. ها أنذا بعد كل السنين أعود إلى نفس المكان. لأُسلمها له. يريد أن يسلمنى لعمر. يريد أن يعيدنى إلى محمود. هذا فوق كل تصور، فوق كل إحتمال. أنا لم أقرأ هذه الأُوراق. إنها وهم، حلم حلمت به. عندما بحثت عنها لم أجدها. لا فائدة من خداع نفسى. ماذا أفعل الآن..كانت تشعر بمغص. وكانت تجلس على المرحاض. وكان العرق يتصبب منها. لابد أن أنصرف. أو أجن لن ينقذنى سوى عمر. ولكن سالم يعرف كل شئ عن عمر. سأخرج من هنا وألقى بنفسى فى أحضان عمر. سأكون له. سأنسى معه نفسى. أفكارى.. سأتوه معه. سأفر معه. ولكن سالم يعلم كل هذا. أهو سالم أم عقلى. كان بلاط الحمام أزرق. قذرا سأنظف هذا البلاط. وسارتب البيت. وسأكون عشيقة له. لن يفعل سالم شيئا. سوف أطلب الطلاق. كل شئ يختل. كأن عيون العالم كله تراقبنى فى هذا الحمام. لا أريد الخروج من هنا. سأحبس نفسى إلى الأبد، حتى أموت. لماذا لا يقتلنى عمر. ويخلصنى لماذا لا يقتل سالم ويخلصنى. لماذا لا يقتل الدنيا كلها ويخلصنى. أأكون مجنونة. وأنا لا أدرى. أهذه مستشفى المجاذيب، منذ متى وهو يعلم؟ قبل الزواج؟ قبل موت محمود؟ كان يرقبنا، ويتربص بنا، هو الذى قتله. وتقدم ليحصل على مكانه. رجل حقير. كم أتمنى لو يموت. لو يقتله عمر. لا أريد عمر العاشق. أريد عمر القاتل. إنه ضرورى. ضرورى. الى متى أبقى هنا. سأخرج لعمر.

قالت زينب لعمر..

- أنا متعبة..

- وجهك شاحب. أتشعرين بشئ.

- برد هنا.

وأشارت الى بطنها..

- أحضر لك أسبرين..

قالت بصوت جاد وهى تجلس على أريكة..

- لا .. تعال وأجلس بجانبى..

جلس بجوارها. فهمست..

- ضع ذراعيك حولى..

فوضع ذراعيه حولها. وسألها..

- أتشعرين الآن بدفء..

- نعم..

واقتربت بوجهها نحوه. وقالت بصوتها الجاد..

- ألا تقبلنى..

والتقت شفاهما. وسألته..

- أتحبنى..

- نعم أحبك..

- أعرف أنك تحبنى..

- أنا مجنون بك..

- أنت لم تطلب مجيئى إلا لهذا..

- نعم..

- هذا هو الشيء الخطير الذى تريده.

- نعم. هذا هو الشيء الخطير..

- أكنت حقا تفقد عملك وعقلك لو لم أجئ..

- كنت سأذهب إلى فهمى..

- من هو فهمى..

- صديقى فى القناطر..

- قاتل مثلك..

- مقاتل.. أستاذى..

- أما زال أستاذك..

- لا ..

- أنا أستاذتك..

- أنت معبودتى..

- ستنفذ أوامرى..

- كل أوامرك..

- حتى لو طلبت منك أن تقتل..

- يكفى أن تشيرى بإصبعك..

- أنت قاتل لذيذ..

- مقاتل..

- المهم أنك لذيذ..

وقبلها وقبلته. انتزعت شفتيها من بين شفتيه. وهمست

- لندخل.

وجذبته من يده الى حجرة النوم. وشرعتِ فى خلع ملابسها بسرعة، حتى تجردت فقفزت إلى السرير وغطت جسدها بملاءة. كانت ترقد على بطنها. وجهها مدفون فى الوسادة. انتظرت، وقد ساد الغرفة سكون. ورفعت رأسها. فرأته واقفا ينظر إليها. وهو مازال فى ملابسه.. كان عمر لا يراها. كان يرى فتاة لها شعر أكرت وأنف مقلطح. وساقان خشنتان. سأرتكب المستحيل يا فهمي. هذا هو امتحان الأعصاب. لا تصرخي. جاردن سيتى. نامى. نامى هنا. وألقى بالجنيه على جسدها. أرتدى ملابسك وأخرجى..

صرخ عمر فى زينب..

- ارتدى ملابسك وأخرجى..

ـ أخرج؟

ـ نعم أخرجي.. بسرعة..

صرخت زينب غاضبة..

ـ أجننت..

قال عمر محتدا..

ـ قلت لك ارتدى ملابسك واخرجي:

قاطعته زينب:

ـ إذن فلست رجلا..

قال عمر في هـدوء مفاجئ..

ـ لا فائدة من هذا الكلام. أرتدى ملابسك وأخرجي..

صرخت فيه..

ـ أخرج.. لأرتدى ملابسي..

كانت تشعر بدمار في نفسها.. الإهانة تنهشها. كأنها لم تعد أنثى كأنها ماتت. ورغم ذلك فكل ما حدث كان متوقعا. كأنه كان لابد أن يقع. عمر هو عقابي، هو نهايتي. لا مفر من عمر. هو الشيخوخة. البشرة المتهدلة. الجلد المكرمش. الشعر الساقط. هو الإرهاق بعد السهر الطويل. الفضيحة التي لابد أن تقع. الخطأ الذي لابد أن يحدث. الفساد

الذى لابد أن يشوه المتعة. الملل الذى يقضى على كل لذة. عمر ضرورى. ضرورى لى. ولسالم. عمر هو موتنا.

خرجت زينب الى عمر مرتدية ملابسها وقالت بصوتها الطيب. وعلى وجهها خجل..

- مازلت تريد خروجى؟

همس عمر فى ألم..

- لا..

- لأنى ارتديت ملابسى ؟

- لأنى لا أفهم ماذا أريد، أنا أتعذب..

قالت زينب فى هدوء.

- سامحتك.. هل سامحتنى..

تمتم عمر فى دهشة..

- أنا أسامحك؟

قالت وهى تمد يدها لتربت بها على كتفه..

- سنظل أصدقاء..

- نعم.. سنظل أصدقاء.

- عندى كلام كثير أريد أن أقوله لك.

نظر إليها عمر يدعوها إلى الكلام، فقالت..

ـ لولا أني متعبة.. سأحضر إليك غدا..

ـ سأكون في انتظارك..

ـ لن تختفي ؟

ـ لا ..

ـ لن تذهب الى فهمي ؟

ـ ولن تتصل بسالم ؟

ـ من المؤكد أني لن اتصل به..

ـ ولو جاء يبحث عنك؟

ـ سأعلنه بقراري. هذه نهاية أي صلة بيني وبينه..

قالت زينب كالمخاطبة نفسها..

ـ لست واثقة..

ولم يفلح عمر في إقناعها بالكلام. خرجت وهي تردد.

انتظرني. سأحضر إليك غدا، في عينيها قلق. وعلى شفتيها ابتسامة..

٢٥

١٠ يونيو ١٩٦٢

اتصل سالم بعمر فى الوزارة فعلم أنه قام بالإجازة، قال له الصوت إسأل عنه فى بيته، وسأل الصوت عن المتكلم فأغلق سالم السماعة، واتصل ببيته فسمع صوت الخادم، وأغلق السماعة.

وبعد قليل اتصل ببيته، وسمع صوت الخادم، فأغلق السماعة.. إذن فزينب قد خرجت، وكان على يقين أنها الآن فى بيت عمر..

جاء الوقت المناسب للحركة، لأشرع فى تنفيذ الخطة، لقد بدأت فعلا بهذه الإتصالات، كم هو مهين أن أخفى نفسى عن خادم بيتى.. كم هو رائع أن اصنع كما يصنع عشاقها. يسمعون صوتى فيغلقون السماعة. الآن أنا الذى يغلقها الآن أنا الرجل الخفى الغامض أنا المجهول الذى يتكلم فى التليفون. تصرف مهين، عبث أطفال ليس هذا ما يفعله سالم عبيد المعرفة لا تأتى عن طريق تصرفات على هذا النحو. أنا عاجز تماما عن المضى فى هذا الطريق. لا أظن أنى قادر

على هذه الأساليب نفسى تأباها، ولكنى أريد أن أعرف..

نهض سالم ودار فى حجرته بالكلية، يدوس بأقدامه نفسه يتحرك بين جدران نفسه، أسرع إلى النافذة وأطل منها، فرأى بناء المكتبة وكأنه نسى ما هو فيه. ولم يعد يتذكر سوى أسماء الكتب التى طلبها وغادر حجرته مسرعا الى المكتبة كان يتحرك بسرعة ونشاط، يكاد يقفز هابطا درجات السلم، وأحنى رأسه لزميل، ورفع يده محييا بعض الطلبة، وابتسم للساعى العجوز وهتف على غير عادته بصوت مرح.

ـ كيف حالك يا سلامة..

ـ بخير يا سعادة البيه البركة فيكم.

ـ كيف حال أولادك.. ومضى سالم مبتسما، ابتسم للفضاء ولساعة الجامعة. الثانية عشرة إلا ربعا، بعد لحظة سوف تدق وعلقت ابتسامته بوجهه نسيها على شفتيه سعيدا بشىء ما لا يذكره ودخل المكتبة. وصعد السلم.. وسأل عن الكتب. لم تأت بعد قال محتجا..

ـ هذا التأخير لا مبرر له..

قالها وهو يبتسم. أراد أن يغضب ولكنه ابتسم، ودخل حجرة أمين المكتبة أراد أن يقتحمها، ولكنه دخل كضيف. وشرب القهوة، ونسى الكتب، وثرثر بكلام عادى سأسافر الى الإسكندرية ربما سافرت الى جنيف وأمر على باريس. أجمل الإجازات هى التى قضيتها فى القرية. أنا فلاح من عائلة فلاحين اليوم الجميع ينتسبون الى الفلاحين والعمال.

ظاهرة جديرة بالتسجيل والله الفلاح غلبان، لكنه شهم. كان جدى رحمة الله رجلا بمعنى الكلمة كان تفكيرهم محدودا يتحركون بالتقاليد والأصول. تقاليدهم طبعا. ولكنهم كانوا رجالا. هذا الجيل يفهم أكثر. نعم يجب أن نعترف بالحقيقة. ولكنه جيل ضعيف مهتز أعصابه تالفة. السبب الحرب والتغيرات الإجتماعية.

كان من يراه وهو يتكلم يظن أنه فى حالة نفسية حسنة وأنه راض تماما عن نفسه. وعندما اعترض طريقه طالب وهو يهم بمغادرة المكتبة وقف، واستمع مرحبا بكل كلمة قالها الطالب. وألقى محاضرة طويلة عن عصر المأمون. كان مرحه ونشاطه يتزايدان. ولما سأله الطالب عن الإمتحان وهل يقسو فى تصحيحه. قال ضاحكا..

ـ طبعا سترسبون جميعا..

قالها وهو يقهقه. فاطمأن الطالب. وعندما أراد الإنصراف، وجد صعوبة كبيرة فى التخلص من الأستاذ العظيم سالم عبيد الذى قال له..

ـ ما سبب عجلتك.. سر معى إلى الكلية..

وسار معه الطالب وسالم لا يكف عن ثرثرته.. من أى بلد أنت؟ قاهرى.. من شبرا؟ وتذكر سالم زينب.. تذكرها للحظة خاطفة، وقال بسرعة..

ـ أولاد القاهرة لا يصلحون للدراسات الإنسانية. ولا لكلية الآداب. هذه ظاهرة لمستها خلال سنوات طويلة. لا تنزعج ربما كنت أنت

الإستثناء الذى يثبت القاعدة. أتهتم بالرياضة؟ طبعا هذا ما توقعته أى لعبة؟ الكرة الطائرة. لا أعرفها. التجديف رياضة لا بأس بها فى الصيف ولكن حذار. إنها رياضة خطرة.

وعاد سالم الى حجرته واتصل من جديد ببيته. زينب لم تعد بعد. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر والعمل بالكلية قد انتهى وليس هناك مبرر لبقائه. أثاث الحجرة يسأله الأوراق والكتب فوق المكتب تسأله. ماذا يبقيك هنا.. من الطبيعى أن أعود الى بيتى حتى وأنا أعلم أن زينب غائبة عنه حدث هذا مئات المرات.

ليست هذه أول مسابقة أستطيع أن أستمر. عمر لا يختلف عن الآخرين لم يحدث جديد. إنها تخوننى . نعم تخوننى وهذا عمل قبيح إجرامى حقير ولكنى أشعر لأمر ما أنه لا يلوثنى يجب ألا أخدع نفسى أنا عاجز عن الإنتقام. لا أريد أن أعود الى البيت لأن الحركة الوحيدة التى أتمناها هى أن أركب عربتى وأذهب الى بيت عمر. لن أقدم على هذه الحركة ولن أقدم على أى حركة أخرى. الأفضل أن أبقى هنا حتى أصل الى قرار. بعد كل ما حدث مازلت مترددا فى اتخاذ قرار.

وسخر سالم من ذلك الخاطر الذى ألح عليه. بأن يجعل من نفسه مخبرا سريا يتتبع الجريمة ويضبطها لو فعلت هذا لما كنت سالم. لما كنت المؤرخ. لانقطعت كل صلة بينى وبين حياتى الماضية. كأنى اجتث نفسى من أرضى.. أقف عند ناصية الشارع أتلصص؟ أدق جرس الباب وأقتحم البيت. أزعق. أضحك. أقتل. أطلق. أبكى. أصفح.

أسخر. ليست هذه تصرفات سالم. الآن فقط أتبين بوضوح أنها ليست تصرفاتى. ماذا يفعل سالم عبيد عندما يتأكد من خيانة زوجته، لابد أنى قادر على فعل شيء. لابد أن هناك تصرفا ما فى مقدورى أن أقدم عليه. ما هو؟ فكرة المخبر السرى مضحكة تصرف طائش سأرتبك حتما.. كل ما تخيلته عن ضطبهما متلبسين كان وهما. أحلاما لا تتحقق. أحلم بها لأنى لن أحققها. ولا أريد أن أحققها ولكن لابد أن أفعل شيئا. لن أبقى جالسا أمام مكتبى الى الأبد.

ارتفع صوت سالم فى الحجرة..

- لا إله إلا الله..

ودق جرس التليفون. خشى أن يمد يده. فيسمع صوت زينب..

وسمع صوت عامل التليفون.

- الأستاذ زكى. زكى..

شعر بنفور، لماذا يختار زكى هذه اللحظة بالذات ليتصل به. هذا اللعين زكى يسخر منى منذ أربعين عاما. ورحب سالم بصديقه القديم. نعم سأحضر الى المقهى. ماذا تفعل الآن. ما رأيك فى غداء بالحسين. موافق؟ عظيم. بعد ساعة. ساعة ونصف. أمامى عمل كثير سأمر عليك فى طريقى..

لن أعود إلى البيت حتى أتخذ قرارى. أما أن أرضى بما أنا فيه، أو لن أتحول الى مخبر. عمر سيعاقبها نيابة عنى. هو الذى يملك العقاب.

ربما حكم عليها بالإعدام لا أستطيع أن أطلقها. ما أسهل هذا. وينتهى كل شيء. وتطلق الزغاريد مثل عمتى زكية؟ ما أبشع هذا. ستكون نهايتى. لا حياة لى بعدها سينتهى محمود وسينتهى عمر. وسيذهب العشاق. ستضيع الدنيا. ولا تبقى إلا هذه الكتب والأوراق. وبيت مهجور، وجسد مهجور. قبر. أصبح قبرا. ربما كان هذا أفضل. كان جدى يقول. منصور إنتهى بعد طلاق زكية. كان ذاهلا وباع أرضه واتخذ هيئة شحاذ حتى مات، انتقامى هو أن أبقيها. قوتى هى أن أبقيها. لا يمكن أن ينفصم ما بيننا، الموت وحده هو الذى يفرق بيننا. موتها أو موتى، لو أحبتنى كمحمود. لو حدثت المعجزة. وأحبتنى كمحمود سأرفض حبها. سأتعالى عليه، سأسخر منه، سوف أعذبها. قد تأتى بولد. ولد ـ أبوه عمر لن أتراجع أنا الذى يتحمل. أنا الذى يتعذب. سأتحداها وأثبت لها أنى قادر على العذاب. ضحيت بالسعادة وتحملت الألم الكبير، تألمت لأنى أعرف، وسأواصل رحلة المعرفة والألم بثبات. أنا ند لمهالك الرحلة. أنا شهيدها. سأبتلع الحقيقة كاملة. سأرحب بالألم المدمر. أنا الذى دعوته. هذا هو طريقى الذى لن يمشى فيه سواى.

أطرق سالم برأسه. كان يشعر بصداع. وامتدت يده الى كتاب. فتحه مقلبا صفحاته. وهو يقرأ سطرا أو سطرين من كل صفحة.

(سعود الطحاوى كان الشيخ العربى الوحيد الذى خان عرابى عن تدبير ومقدرة. وكان الخديوى يموله. كان يتقاضى على تجسسه فى معسكر عرابى خمسة آلاف كرون نمساوى).

«كان الضغط عليه قاسيا. فقد علمت اللجنة - على ما أذكر - من رياض باشا أنهم خدعوا في هذه النقطة. وكان خائفا من ظهور الحقيقة».

«ولنعد الى زيارة الوداع لعرابى: فى هذه المناسبة تكلمنا عن جميع المسائل التي كان يناقشها الوطنيون، وخططهم فى الإصلاح.. آمالهم ومخاوفهم فى الداخل والخارج».

«قابلنا رجال الطلبية الطيبون بتقاليد وكرم الفلاحين».

«الفلاحون في ذلك الوقت كانوا فى حال رهيب من الضيق والفقر، المجاعة على الأبواب. وكان من النادر أن ترى فلاحا فى الحقل وعلى رأسه عمامة، وعلى جسده اكثر من خرقة تغطى ظهره».

«اشترينا حليهم، واستمعنا الى قصصهم واشتركنا معهم فى لعن حكومة تتركهم عرايا».

لماذا كان كل هذا العناء. لماذا سمحت لتلك الافكار أن تعبث برأسى. لماذا دبرت الخطط. لماذا قلت أريد أن أعرف.

حاول سالم أن يعود الى القراءة. أن يقوم بعمل ما. ينهض ويدور فى الحجرة يطل من النافذة. لم تفلح محاولاته. شعر بكسل وفتور يسريان فى جسده. بل أن الفتور بدأ يسرى فى عقله. أفكار تخمد. يريد ألا يفكر وألا يتحرك. يكفى أنه ينعم الآن بهدوء الحجرة وبإختفاء ضجة الطلبة. وبأن الكلية تكاد تتحول الى متحف مهجور. وهو أحد تماثيل

هذا المتحف كم قلت أن معرفة التاريخ تحتاج الى صحة بدن تحتاج الى حركة ونشاط كان يجب أن أنهض منذ ساعة. منذ ساعتين. وأقتحم ذلك البيت. عمل ضرورى. مرحلة أولى للمعرفة. خطوة أُقدم عليها لأواجه نفسى قبل أن أواجه تاريخ بلادى. موقف أصنعه ليتم اللقاء بينى وبين زينب الحقيقية. وجها لوجه. يقع الصدام. صدام يجب أن يقع. وأعرف نتائجه.

ولكن سالم عبيد لم يتحرك. كأن الحركة شيء مهين. كأن التصرف مخجل. وسأل نفسه. إذن كيف أعرف ما أريد أن أعرفه. كيف أستزيد العذاب. وكيف أمتحن التحمل. وكيف أرفع نفسى الى مرتبة الإستشهاد.. لا أظن أنه استشهاد. هذا انتحار. تدمير للنفس قضاء على تلك البقية الباقية من آل عبيد. تقبل المصير المحتوم لكل ما صنعهم وصنعنى. لا لست خائفا. من المؤكد أن الخوف لا يعرفنى ولا أعرفه ولن يؤلمنى ما قد أراه. لأنى أعرف أنى سأراه. لن تفجعنى خيانة زينب. لانى أعلم أنها تخوننى. الخيانة تمت. الفجيعة تمت. منذ البداية وأنا أعرف هذا. لم يبق إلاَّ الألم. تلك الإبر التى تخزنى وتدمينى، التفاصيل التى تجرحنى، كم أمقت نفسى، أمقت جسدى. أمقت ضوء النهار. والشوارع التى تكتظ بالأحياء. هذه الحياة من حولى تلوثنى. تلوث أفكارى. ولكنها كل ما بقى لى من الحياة.

وارتفع صوت سالم فى الحجرة..

لا إله الا الله..

سمع صوته الخانق اليائس المبتهل. وشعر براحة، الله لا يتحرك.. العقل الكبير لا يتحرك. يدرك كل شئ ولا يتحرك. يعرف كل التفاصيل دون أن يتحرك. يعرف الماضى والحاضر والمستقبل ولا يتحرك.الله يتسع لى ولزينب ولعمر. الله يشملنا جميعا. يحيينا ويميتنا. سأصلى العصر فى الحسين أنا أعرف أحداث التاريخ دون أن أتحرك. ما أسخف التاريخ. لو كان يقع اليوم لو جاءنى من يقول أن خوفو يبنى هرمه الكبير الآن. وأن كيلوباترة بين أحضان مارك أنطونى فى هذه اللحظة، وأن عرابى يحارب فى التل الكبير اليوم. وأن نابليون سينصب مدافعه بعد دقائق عند إمبابة. لما تحركت. لما تمنيت أن أرى وأسمع. ولكننى أتمنى أن أعرف. زينب الآن بين أحضان عمر. أعرف عنوان البيت أركب السيارة وأصل اليها بعد عشر دقائق فقط ويتغير سالم عبيد. رحلة قصيرة مريحة. راكبًا اختراعا حديثا لا أريد. لا أريد، فقط أريد أن أعرف.

كيف أعرف..

يجب أن أراجع كل أفكارى عن التاريخ قبل هذه اللحظة، كنت أتمنى لو عشت مع أحداثه. هذا خطأ هذا مستحيل. الحياة تلوث المعرفة. الحياة تفسد الألم. مستحيل..

همست نفس سالم بكلمة مستحيل. وهو يرى صورة واضحة لقريته. يرى أباه ويرى جده. وأشقاءه. الشيخ سليمان المجذوب. وحامد القاتل. وجميع الناس من حولهم. سمع أصواتهم، يتكلمون ولا يتبين الكلمات.

ورأى إشارات أيديهم. وانفعالاتهم. إنهم لا يتحركون. الذى يحركهم هو الله. والله لا يتحرك. إنهم لا يعرفون. الذى يعرف هو الله.

فقط يحيون.

أحس سالم بضيق. وكان ذكرى القرى تضغط على صدره. وتكتم أنفاسه، عندما حبست نفسى فى باريس أردت أن أفكر وأعرف. وشعرت بعجز حقيقى. رأيت مسيو لا فارج يعيش مع عشيقته الأسبانية. يرتكب الذنب يحطم التقاليد. ومع ذلك كان قادرا على التفكير. أستاذ جامعى عظيم. كان أستاذى. كان يعرف بلا ألم. يعرف ليحيا.يحيا ويعرف. مزيج غريب من الله والإنسان من القدرة على الحركة والقدرة على الفهم. غازل تلك الأسبانية وأحضرها الى بيته. وظل قادرا على اتهامى بالعجز عن التفكير. أهناك رجلان اسمهما لافارج يعيشان فى جسد واحد لافارج العاشق المذنب ولا فارج العالم الجليل.

لا فارج الذى يحيا ولا فارج الذى يفكر. ليس فى جسدى سوى سالم عبيد واحد، سالم الفلاح الطفل. هو سالم باريس والسوربون وسان ميشيل هو سالم الذى حلم بالحب. هو سالم الذى يجلس الآن فى هذه الحجرة. لحن واحد رتيب يتردد بلا انقطاع حتى يتحول الى عذاب كان أبى لا يفكر. وجدى لا يفكر وانا لا أفكر. أفكارى الوحيدة هى آلامى، هنا يفكر لنا الله. الله. وحده هو القادر على التفكير. هو القادر على المعرفة. محاولة التفكير خارج الله تؤدى الى شقاء. هذا الشقاء لن

أفرط فيه. أصبح كياني. كتبت السخرة والكرباج صادروا كتابي فصلوني من الجامعة. كنت أظن أن الكتاب لن يسيء الى أحد. كنت أظن أن الفكر مشروع. وأن حق المعرفة مشروع. تحولت محاولة الفكر الى محاولة شقاء. ليس ذنب الحكومة. أنها أيضا غير قادرة على التفكير. وليس ذنب الظروف كما ادعى لا فارج. إنه أمر أخطر بكثير من الحكومة وظروف لافارج. الحياة نفسها هي التي تعترض الحياة هي التي تصطدم. بالعقل. أنا أعظم من لا فارج. إنه يبحث عن الفهم الرخيص. الفهم الأنيق رجل منحل عقله يصالح حياته. أفكاره تستسلم لألد أعدائها. مثلي أعظم من أن يصالح الحياة أو يخضع لأحكامها. مثلي يقتل الحياة ويحيي المعرفة. لا سلوك ولا أخلاق ولا تصرفات. لا حركة ولا تعامل فقط معرفة. معرفة تأكل الحياة وتلتهمها. أنا قادر على قتل زينب بمعرفتي. بعد مصادرة الكتاب أدركت أني ارتكبت أثما. قلت أن المعرفة فوق الإثم. ولكني لم أتمسك بقولي. استسلمت للحياة. أردت أن أعيش. أغضبت الأسرة المالكة. أزعجت أهلي الذين يتباهون بي. صرخ أبي. ابني سالم لا يفعل هذا. ذهبوا باكين مستغفرين عند رجال الأمير. شعرت بالمهانة. ولم أستطع مواجهتهم بأني أفكر. كانوا أقوياء في نظري لا يعرفون الخوف حتى وهم يبكون. أتخافون الأمير؟ قالوا بصوت واحد. نحن لا نخافه وذكروا بلسان واحد تلك القصة التي مازالوا يتناقلونها عن جدي وكيف غضب وثار يوم انقطعت المياه عن الأرض . ولا نرتكب الأمر. ولا نسيء إلى أحد ولا نسمح لاحد أن يسيء الينا. ولا نرتكب العيب في حق أحد ولا نرضى

لأحد أن يرتكب العيب في حقنا. نحن رجال من صلب رجال اذهب واستغفر الأمير واطلب منه الرحمة والشفاعة. فقد أذنبت. اذهب وقابل الباشوات. وأعترف لهم بالخطأ فتزول الغمة. عندما عدت الى الجامعة انطلقت الزغاريد. ودوت طلقات الرصاص، وعاد البشر الى وجوههم انتصروا عليّ. انتصرت الحياة. تألمت وكنت يائسا وفكرت فى الانتحار. آلامى الآن تضاعفت ولكن لا أفكر فى الإنتحار. زينب تخوننى، العار يلطخنى شرفى ملوث. ولكنى لن أتورط مرة أُخرى فى حياتهم. وسأظل فوق الحياة. أعرف وأتألم..

انتبه سالم الى وجه سلامة يطل من خلف الباب.

ـ سيادتك تريد شيئا..

ـ لا يا سلامة.

أدرك سالم أن الساعى قلق، وأنه يريد الإنصراف. نظر الى ساعته.. كانت الثانية والنصف فهمس..

ـ أنا ذاهب الآن..

وأفسح له سلامة الطريق. ومشى وراءه حاملا حقيبته حتى وصل الى سيارته..

قال سالم فجأة..

ـ أتعود الى الحجرة يا سلامة..

ـ نعم. لأنظفها..

- إذا سأل عنى أحد. فأنا أتناول غذائى فى الخارج..

- تقصد سيادتك البيت.

أجاب سالم باقتضاب..

- نعم..

لن تسأل.. ولن تهتم. هذه هى دنياكم. ليست دنياى. من المؤكد أنها ليست دنياى. واندفعت السيارة خارج الجامعة. إذهبوا جميعا. أهل ولا فارج. والعقاد، وزينب وعمر تحولوا الى غرباء. لا أريد أن أتعامل معكم. إذهبوا. ورأى سالم وجه عمته زكية المحبوبة. وارتجفت يده. وفكر فى ايقاف العربة. وفكر فى أن يعود الى حجرته بالكلية ولا يغادرها. أهلى كلهم شرفاء وارتجف سالم من جديد. كان يسمع صوت زينب وهى تقول ساخرة. هه. إنهم بشر. عمتك جاءت بالولد من رجل غير زوجها. الذى قتل محمود هو أبوه الذى ليس أباه. كيف عرفت زينب الحقيقة أصغر منى بسبع سنوات. كان جميلا رأسه حليق إلاّ من خصلة شعر شقراء تتدلى على جبهته. وجهه بيضاوى. أبيض. عيناه حالمتان. أذكرهما كعيني نبى. كان مرحا ذكيا. يتعلم الحساب بسرعة. ويكتب بإصبعه فى التراب ويرسم ويتدلل على أمه. وتناديه ويلبى النداء. كان يقضى معظم وقته بين أحضانها. تمنيت لو كانت زكية أمى وأنا بين أحضانها. تمنيت لو كان السيد أبى. تمنيت لو كنت جميلا مثل محمود. لم ينادوها أبدا بأم محمود. دائما زكية المجنونة. زكية المجنونة. كنت أعلم أن صدرها مشوه. وأعجب كيف رضع محمود من

ثديها المحروق. كنت أخشاها وأحبها. أراها فلا أدعها تفلت من عيني. ولكني لم أذهب أبدا الى بيتهم. ساعة العصر جاءت تنادي محمود. تركني وهو يقفز على قدم واحدة. في المساء وجدوا جثته في البئر. خيل إليّ أنه ظل يقفز حتى تعثر في البئر وسقط. كان صوتها حادا أليما. واجتمع الرجال غاضبين.

أوقف سالم العربة فجأة. كاد يصطدم بسيدة وطفل. وأطرق برأسه يريد أن يختفي عن الأنظار وقرر أنه في حالة غير طبيعية. عاد السير ببطء. كان شقيقة حامد يقول لأبيه... المجنونة بنت المجنونة ذهبت الى العمدة. واتهمت منصور.

قالت إنه ليس أبا الولد.

قال الأب عبيد..

- مجنونة. أمرالله..

هتف حامد..

- الجنون لا يمحو العار. ولا الفضيحة سأقتلها.

قال الأب ساهما.

- فات الأوان..

احتج حامد..

- القرية كلها تعلم..

اعترض الأب رافعا صوته..

ـ تعلم أنها مجنونة..

وصرخ الأب فجأة فى سالم الذى كان منزويا فى ركن متظاهرا باستذكار دروسه.

ـ أخرج يا ولد..

وانتفض سالم خارجا..

رأيتها تسير متحدية القرية. صارخة بأعلى صوتها. منصور قتل إبنى. يعلم أنه ليس أباه. من قال أن منصور قادر على الإنجاب. أقتلونى أو أقتلوه. أقتلونى أو اقتلوه.

ووقفت زكية على الجسر. وامتد بصرها الى القرية.

وصاحت..

ـ متى يأتى الذى يقتلكم. يدمركم، متى يرسل الله من يحمل الهلاك فى يده.

ورفعت يديها الى السماء. وابتهلت.

ـ أخسف بنا الأرض. ولا تترك أثرا لواحد منا.

إمتلأ قلبى بالذعر. وكنت حزينا على موت محمود. وسرت وحدى بين الحقول، يارب ما الذى حدث. أريد أن أعرف، كيف مات محمود. أقتله أبوه. أتقول زكية الصدق. أهى مجنونة. أيخفى أهلى الحقيقة التى

يعرفونها شعرت بإحتقار كبير لهم جميعا. دم محمود يلوثهم. جنون عمتي يلوثهم. الشيء الذي يخفونه يلوثهم صوت أبي وهو يأمرني بمغادرة الحجرة، يلوثهم، لابد أن أعرف لو عرفت فسألتقي بمحمود. لابد أن أعرف.

قال زكي لسالم وهما يلتهمان الكباب:

ـ ما الذي أبعدك عن البيت..

قال سالم ضاحكا وفمه مكتظ بالطعام.

تغيير. النظام يكاد يقتلني لا بأس من أن نتمتع بقليل من الحياة.

٢١

١٧ يونيو ١٩٦٢

سألها عمر..

ـ هل فرحت يوما ما..

أجابت زينب بغير تفكير..

ـ طبعا.. فرحت كثيرا..

كانا يجلسان فى ذلك المكان المعد لإستقبال العشاق على شاطئ النيل. عادا إليه، بعد أن رفضت زينب أن تزوره مرة أخرى فى بيته، يكفى أننى جئت إليك مرتين، وفى المرتين سمحت لك أن تحاول، وفى المرتين فشلت، أنا لا أحب هذه الإمتحانات، وصدقنى لم أعد فى علاقة معك، ولكنى متمسكة بصداقتك، وضحكت زينب وهى تقول: صداقة بريئة بالرغم منا.

كان عمر يكلمها فى التليفون، يتوسل إليها أن تزوره فى بيته، للمرة الأخيرة يا زينب، للمرة الأخيرة، قالت له، أفضل أن نلتقى فى مكان

آخر. أنا أعرف ما الذى يضايقك. تريد أن تثبت لى أنك رجل، ولكنى واثقة من هذا، ألم تقل لى أنك عرفت بنات كثيرات، ربما تعودت على صنف معين. المرأة التى لا تناقشك وتتقاضى منك الثمن، أنت تشك فى أنى أصدقك. ولكنى واثقة أننا سنفشل مرة أخرى. وسيدفعنى هذا الى النفور منك، وأنا لا أريد أن أنفر منك، لا يسرنى طبعا منظرك وأنت واقف لا تتحرك والعرق يتصبب من جبينك. تصرخ كالمجنون، لا فائدة، ارتدى ملابسك، أول مرة شعرت بالإهانة، واتهمت نفسى، حتى فى المرة الثانية، ورغم توقعى لما حدث، شعرت بالإهانة، واتهمت نفسى. دعنا ننسى كل شىء. ولنخدع أنفسنا. نعم لنخدع أنفسنا، سأقول أنى رجل مثلك، صديق لك، قاطعها عمر ضاحكا فى مرارة، أو تقولين أنى بنت، صديقة لك، هتفت زينب معتذرة، لا، لم أقل هذا، ثق أنه يوما ما سنصل الى ما نريد، لكن بعد أن ننسى، بعد أن نتقابل كأصدقاء، قال عمر فى ضيق لست أدرى ماذا بى، لقد أحببتك وأنا واثق أنى أريدك، ما من شك فى هذا، أفكر فيك كل لحظة أيكون سالم هو السبب؟ صاحت زينب، لا أظن، قال عمر منفعلا: إذن ما السبب قالت زينب، لا تسأل نفسك كثيرا، مناقشة هذه الأمور هى التى تفسدها، سأقابلك فى المكان الذى ذهبنا إليه أول مرة.

كان تيار النيل سريعا، تعترضه دوامات كثيرة، ووسط النهر تندفع مركب شاهرة الشراع، وأصوات خافتة مختلطة تصل من الشاطئ الآخر، كأن ضجة ما تحدث بعيدا، وحدق عمر فى وجه زينب.. وقال:

ـ أنا لم أعرف الفرح أبدا..

وحرك رأسه فى هزة كأنه يطرد خاطرا مزعجا، وقال:

- ولكنى أضحك..

قالت زينب وفى عينيها لمعة فاتنة..

- أحيانا لا أستطيع فهم كلامك..

ضحك عمر وقال :

- ولا أنا..

- ألا تفهمنى؟

سألته فى دهشة، فأجاب..

- لا.. أعنى.. لا أفهم نفسى.. وضحك، وقالت زينب.

- أتعرف ..

- ماذا ..

- أنا مسرورة لأنىِ عرفتك، كنت تسألنى عن الفرح، وهانذا أعترف لك أنى فرحانة بصداقتنا..

قال معترضا..

- رغم خيبة أملك..

صاحت محتجة..

- أبدا، قلت لك لا تفكر فى هذا، صدقنى، أنا أشعر معك، كأنى.. كأنى..

ولم تجد الكلمة التى تعبر بها عن شعورها، كان عمر يتفرسها وكأنه لن يصدق ما سوف تقول، ووجدت زينب الكلمة، هتفت.

ـ شيء جديد..

ـ ما هو..

ـ فرح جديد..

قال وهو يتألم..

ـ أتتسلين بى..

صاحت فى غيظ..

ـ لماذ لا تريد أن تفهمنى، قلت لك أنى فرحانة معك، وهذا يكفى.. لا تفسد كل شيء بشكوكك..

ـ حذرتك من قبل، أنا لا أجيد الكلام..

ـ إذن ماذا تجيد؟

وأدركت بعد فوات الأوان. أن سؤالها ضايقه، وسمعته يقول حزينا.

ـ كما ترين، لا أجيد شيئا على الإطلاق..

قالت مشجعة..

ـ هذا غير صحيح..

قال واجما..

- لا داعى لتشجيعى، أنا أعرف من أنا، ولا أنتظر عطفا من أحد.

هتفت..

- عمر لو تكلمت بهذه الطريقة سوف أقوم..

- قال بصوت خفيض فاتر.

- إذهبى.

وساد بينهما صمت، قطعته زينب قائلة ببراءة طفلة، طفلة عنيدة..

- لن أذهب.

- لماذا..

- لأنى أحبك..

- هيا معى الى البيت..

- الآن؟

- نعم الآن..

كان يصدر أوامر حاسمة، فقالت فى خضوع..

- سأنفذ كل ما تريد، سأذهب معك الى البيت..

قال منفعلا..

- أتتحملين فشلا آخر..

همست..

ـ سوف أتحمل..

قال بقوة :

ـ أنا أرفض..

أطرقت برأسها مستسلمة لغضبه، راضية بأى شيء يصدر عنه، وأحست أنها بالغت كثيرا عندما قالت له، أنها فرحت كثيرا، فهى تشعر الآن أنها لم تفرح أبداً، ونظرت الى النيل، كانت ترى أسوان والصخور السوداء، ومحمود كان حبيبى، الآن أشعر أنى لم أعرف إلاّ لحظات فرح قليلة جدا، وماتت هذه اللحظات..

وفاجأها عمر بسؤاله..

ـ أما زلت فرحانة بوجودك معى..

أجابت بابتسامة حزينة، وهمست..

ـ نعم..

ـ أهو فرح حقيقى؟..

شعرت أن أفكارها تتعقد، ماذا يعنى بالفرح الحقيقى..

ـ ماذا تعنى..

لم يجب عمر..

قالت زينب بسرعة لتتخلص من التفكير. كانت على يقين أن التفكير لن يفيدها.

ـ الدنيا مليئة بالفرح الحقيقى.

وحولت بصرها عن وجهه، وأغرقته فى مياه النيل..

سألها متحديا..

ـ إيه..

أجابت وابتسامة تحاول الوثوب الى شفتيها..

ـ لا تنسى أننى امرأة..

ـ وما صلة هذا..

ـ قاطعة فى ثقة..

ـ المرأة تستطيع أن تخلق لحظات الفرح..

وضحكت ضحكة عالية، وقالت:

ـ خصوصا إذا كانت جميلة..

سألها فجأة..

ـ أكان لك عشاق..

جفلت، واختفت الإبتسامة، وبدا أنها تفكر تفكيرا عميقا، ثم أجابت بصوت وقور..

ـ نعم، لماذا تسألنى..

وتشربت وجنتاها بحمرة خفيفة وكأنها تتنفس بقوة..

قال عمر وابتسامة طيبة تظهر على وجهه..

- أعتقد أنك امرأة سيئة..

كان صوته حنونا، فقالت زينب فى انفعال لا يخلو من مرح..

- هذا الكلام لا يعنينى كثيرا.. وصوبت الى عمر نظراتها، وسألته.

- أيهمك كثيرا أن تسمع أنك قاتل..

- أجاب بلهفة..

- طبعا لا..

ثم قال ببطء..

- لم أعد أسمع هذه الكلمة..

قالت زينب..

- لا أظن أننا.. أعنى أنا وانت.. من النوع الذى يهتم بالكلمات.. امرأة سيئة.. مجرم قاتل. مجرد كلمات.. بالنسبة لى.. المهم هو أن أعيش.. أحيا.. أشعر بأنى فى الدنيا..

قال عمر:

- وبالنسبة لى.. المهم أن يقتل عمر النجار..

كان يتذكر عمر النجار الآخر..

صاحت زينب مهللة..

ـ اتفقنا..

ـ كانت تصيح وكأنها انتصرت فى لعبة..

سألها عمر بصوت جاد..

ـ من هو آخر عشاقك..

واجهته بوجه صامت. هرب منه التعبير، أصبحت مستعدة لمثل هذه الاسئلة المفاجئة، ثم اندفعت تقول:

ـ أنت تحوم باسئلتك حول عشاقى.. ماذا تريد أن تعرف بالضبط..

ـ أريد أن أعرف اسمه.

ـ ما أهمية هذا..

ـ أريد أن أصدقك..

ضحكت قائلة :

ـ وما قيمة أن تصدقنى.. إذا أردت أن تقنع نفسك بأنى أعرف أحدا غيرك..

فلا مانع عندى..

ـ أتعرفين أحدا الآن..

ـ لا..

قال عمر محاولا أن يتخلص من شكوكه فى كذبها:

ـ آخر رجل قتلته كان برتبة ميجور فى الطيران.. الميجور الفريد كلايتون ـ جثة طويلة عريضة.. ووقح.. سمج.. أنفه أحمر.. جثته متعجرفة وصوب عمر يده الى زينب واستمر يقول:

ـ صوبت الى رأسه.. اخترقت الرصاصة صدغه الأيسر ونفذت الى المخ.. واخترقت الجمجمة.. ترنح وسقط.. سقط على الأرض الأسفلت كشوال تبن. أحدث صوتا مكتوما.. لم أسمع صوت الرصاص.. لم أشعر بالمسدس فى يدى. كأنى قتلته بـ .. بـ .. قتلته بأمر صدر من قلبى.. أتفهمين هذا..

ضحكت في عصبية وقالت..

ـ أنا لا أفهم القتل.. وأنا أيضا لا أصدقك..

قال ساخرا :

ـ لا بد أن أقتل لك.. حتى تصدقى..

ـ ربما..

ـ أقتل من ؟

تلفتت حولها.. وأشارت الى الخادم.. قائلة !

أقتله .. حتى لا ندفع الحساب

قال باسما :

ـ مازلت لا تصدقيننى ..

قالت:

ـ هذا أفضل..

هز رأسه موافقا..

ـ نعم .. وأنا أيضا أفضل أن أعاملك كما لو لم يكن لك عشيق من قبل..

وقالت وقد طغى البشر على وجهها.. وكأنها تحولت الى طفلة تلمع عيناها بشقاوة :

ـ مرة أخرى اتفقنا..

وقال عمر لنفسه، سوف أقتل سالم.. وارتاح لهذا الخاطر مسرورا. أى مفاجأة تنتظرها. آخر رجل قتلته هو سالم عبيد .. الرجل الذى يريد تزييف التاريخ. سأنقذ البلد من تخريفه. وأخلصك يا زينب وتصبحين لى. لا أستطيع أن أقدم لك عمر الضعيف. عمر العاطل. لابد أن أواجهك بأقوى وأبرع ما عندى. عمر الحقيقى. عمر المقاتل. سأقدم لك استعراضا خاصا فى بيتك.

ـ كيف تواجهين سالم..

ـ ماذا تقصد..

ـ ألا تخافين..

قاطعته قائلة :

ـ أظن أنه يشك..

- مستحيل..

- أنا واثقة..

- أيرضى بهذا الوضع؟

- إنه يحبنى..

- لو كان يحبك لما احتمل..

- لأنه عجوز..

- لا يكفى..

- سالم رجل غريب.. تزوجنى بعد أن..

وسكتت زينب .. اكتشفت أنها ستتكلم عن محمود .. وأحست الغربة.. وكأن امرأة أخرى هى التى ستتكلم..

- بعد ماذا ..

- كنت طالبة فى الكلية.. وكان بينى وبين زميل لنا.. حب .. كان خطيبى تقريبا.

كانت تتكلم بصعوبة.. وهى دهشة من صوتها.. ومن كلماتها. زميل. خطيب. كأنها تتحدث عن شخص آخر غير محمود. وأستمرت فى الكلام..

- ومات..

- كيف ؟

نظرت الى النيل.. وقالت بعصبية :

- مات..

كانت مصممة ألاّ تقول أنه غرق فى النيل.. واستأنفت قائلة.

- وكان سالم يعرف حكايتنا.. وبعد موته.. تقدم إلىَّ وطلبنى الى الزواج.. ولم أكن أعلم أنه يعرف.

- وكيف عرفت؟

- من أوراقه..

- أكتب مذكراته ؟

قالت فى قلق :

- أوراق كتب فيها لقاءه بك..

نظر إليها غير مصدق، فقالت :

- عندما ذهبت إليه تطلب منه بيع مذكراتك..

صاح عمر :

- أكتب كل هذا ؟

- كتب كل ما حدث بينكما..

سأل فى لهفة :

- ماذا كتب؟

- لا أتذكر..

- يجب أن تتذكرى..

- كلام عن الإرهاب.. ليس هذا هو المهم.. المهم شىء آخر.

- وما هو؟

- كان يتحدث فى أوراقه عن محمود.. وعن حبه لى وكتب أني..

وكفت زينب عن الكلام.. تسأل نفسها.. هل كانت هذه الأوراق حقيقة أم وهما.. وأفاقت على صوت عمر يلح..

- ماذا كتب.

قالت بسرعة.. كأنها تريد ألا تسمع ما يقول :

كيف أني أشبهك .. وأنك تشبه محمود

- ماذا يعنى.. أواثقة أنت مما تقولين؟

كان يرفض أن يصدق ما يسمع.. ينظر إليها كمجنونة..

قرأت الأوراق..

قال بصوت حاسم:

- أين هى؟

- معه..

- وكيف قرأتها..

ـ عثرت عليها.. ثم أخفاها..

ـ لا أفهم شيئا..

ـ ولا أنا..

صاح..

ـ يجب أن أقابله..

ـ سوف أقتله..

هتفت زينب منزعجة :

ـ إياك أن تقول له..

ـ لا تخافى..

قالت فيما يشبه التوسل :

ـ لا تجعلنى أندم أنى قلت لك..

قال وهو يبتسم فى برود:

ـ أنا أحفظ السر.. ولكن لابد أن أفهم..

وقال لنفسه.. لابد أن أقتل..

قالت زينب:

ـ أظن أن التفسير الوحيد.. هو أنه يشك فى وجود علاقة بيننا..

قال عمر منفعلا:

ـ ويسكت..

قالت زينب فى هدوء :

ـ هذا هو سالم ..

ـ انه أسوأ..

وكاد يقول منك.. ثم قال:

ـ أسوأ رجل فى هذه الدنيا..

وقالت زينب محتفظة بهدوئها :

ـ إنه مسكين..

ـ أتدافعين عنه؟

ـ إنه زوجى..

قال محتدا فى سخرية :

ـ أى زوج هذا.. لابد أنك تكرهينه..

ـ نعم.. ولكن..

ـ لكن ماذا ؟

قالت بصعوبة وهى تشعر بحيرة كبيرة :

ـ لا تسخر منى إذا قلت لك أنى أشعر أنى أملكه..

ـ ماذا تعنين ؟

ضحكت فجأة قائلة :

ـ هل تظن أنى أعنى ما أقول.. أنا لم أتحدث أبدا عن سالم إلا معك..

قال عمر لنفسه.. هى التى تستحق القتل.. أنها أسوأ من سالم. وسالم أسوأ منها.. كان ينظر الى الحديقة. ولما نظر اليها ورأى وجهها الهادئ.. وعيناها ترحبان بنظراته، لم يعد يعرف.. أيقتلها أم يحبها.. وسمعها تهمس:

ـ أريد أن أعيش معك..

وجم. كأنها تتحداه. كأنها تقتله.. كأنها تحييه.. كأنها تنشله من هذه البطالة.. كأنها تورطه،.

وهمس عمر :

ـ ليتنى أعيش..

وتهدج صوته ليكمل قائلا :

ـ معك ..

قالت كمن تخاطب نفسها :

ـ أممكن هذا ؟

قال كمن يخاطب نفسه :

ـ لابد أن يحدث..

كان يتذكر أنه فشل معها مرتين.. ومضى وقت طويل دون أن ينبسا بكلمة.. وكلاهما سارح. شارد.. ولما إلتقت عيونهما ابتسما.. وقالت زينب:

ـ تأخرت .. يجب أن أعود..

لم يعترض، وودعها عند الباب وهو يرحب بذهابها.. كان يريد أن يخلو لنفسه. ويفكر..

٣٢

اليوم التالى ١٨ يونيه ١٩٦٢.

لابد أن أصل الى حل.. لابد أن أصل الى قرار. وقضى ليلته ورأسه يدور فى فراغ..

وقف عمر عند ناصية الشارع. يرقب من بعيد بيت سالم. كان يعرف ما الذى جاء به فى هذه الساعة المبكرة من الصباح إلى هذا المكان.. ولكنه لا يريد أن يعترف بينه وبين نفسه بما قد اعتزمه من أمر..

لا أريد أن أعرف.. لا أريد أن أفهم.. المهم هو أنى جئت. ما الذى قررته.. ما الذى سوف أفعله.. لا يهم، يكفينى أنىِ جئت وأنىِ أقف عند هذه الناصية، ربما احتجت الى دراجة سأبحث عن دكان قريب واستأجرها منه دكان رجل لا يعرفنى!.

كانت الساعة السابعة صباحا والمارة قليلون. الناس فى هذا الحى يستيقظون فى الضحى. على بعد مائة متر. أقام رجل منضدة وضع

فوقها أكوام الجرائد والمجلات. كان الرجل يحصى نقودا فى يده. غير منتبه لأحد..

سأل عمر نفسه، أيتذكرنى هذا الرجل.. لا أظن.. إنه يرفع كفه بالنقود الى عينه اليسرى.. أغلب ظنى أنه لا يرى جيدا. لا أحد يسير فى هذه الشوارع. حتى الخدم يستيقظون متأخرين.. وتقدم عمر خطوات نحو بيت سالم. عمارة من أربعة طوابق .. النوافذ مغلقة. نافذة وحيدة فى شقة سالم هى المفتوحة، عليها ستار شفاف.. زينب نائمة، أما سالم فيستعد للخروج، أين البواب، هو الآخر مازال نائما. أظن أن كل شىء سوف يسير على ما يرام. لو تأخر سالم؟ لو كان مريضا؟ سأضطر الى المجئ غدا وبعد غد.. سأحضر كل يوم حتى أراه وهو يخرج .. هذا مهم جدا بالنسبة للخطة.. سأواصل السير حتى نهاية الشارع. كل عشر خطوات ألتفت الى الخلف مرة واحدة. لا أظن أن أحدا سينتبه الى وجودى.. شاب بالقميص والبنطلون يمشى فى الشارع نسوا أيام زمان. أين يقف الشرطى؟ يجب أن أعرف مكانه حتى أنحرف بدراجتى عن طريقه..

إلتفت عمر الى الوراء.. فرأى سيارة قادمة فى أول الطريق. أدار رأسه وواصل السير.. ومرقت السيارة بجواره. سالم يحتفظ بسيارته فى «جاراج» تحت العمارة.. ما هو الوقت الذى تستغرقه السيارة فى الخروج من الجاراج.. هذا مهم جدا.. كل سائق له طريقته، أظن أن سالم يهتم بتسخين المحرك، خمس دقائق على الأقل على أى حال سوف أدرس هذه النقطة بالتفصيل، والتفت عمر الى الوراء.. كان الشارع خاليا

تماما من المارة.. وواصل السير وهو ينظر فى ساعته. السابعة والربع. الإمتحانات تبدأ فى التاسعة، لابد أن يكون سالم فى الكلية قبل الموعد بنصف ساعة على الأقل.. وسمع عمر صوت بوق سيارة، إلتفت الى الوراء.. فرأى سيارة بيضاء كبيرة تقف أمام بيت سالم.. كان بعيدا فلم يتبين من يركبها.. وعلم من صوت البوق الملح.. أن راكب السيارة ينبه أحدا للهبوط.. لو حدث هذا أثناء هبوط سالم فسأضطر الى التأجيل. تستطيع أن تلحق بى. ها هو شارع جانبى.. أحرف الى اليمين أم اليسار؟ هذا يتوقف على مكان الشرطى..

ألقى عمر نظرة الى الخلف.. السيارة البيضاء مازالت واقفة هناك.. أمامى بعض الوقت لدراسة المنطقة قبل هبوط سالم.. وانحرف عمر الى اليمين. بعد خطوات رأى شارعا آخر وبيتا يقف أمام بابه شرطى، واصل سيره بثبات، وبعد خطوات عاد أدراجه الى الشارع الذى يقع فيه بيت سالم وعبره ليواصل السير فى الشارع الجانبى الى اليسار.. تقاطعات كثيرة لشوارع ضيقة.. هنا أستطيع الحركة بدراجتى.. دقيقة واحدة تكفى لأختفى عن الأنظار تماما..

سار عمر من منحنى الى منحنى.. ومن شارع فرعى الى شارع فرعى.. ومر به عامل يركب دراجة وهو يغنى.. وقابله بواب يقف أمام بيت له حديقة واسعة.. نظر إليه البواب نظرة طويلة مسترخية، كان يشعر بالنظرة تنفذ الى ظهره وهو يبتعد .. سيكون للرصاص دوى عال وسط هذا الهدوء. الدراجة مهمة جدا.. سوف تسمع زينب دوى

الرصاص سوف تغضب لأنى أزعجتها.. كنت راقدة فى السرير، كنت نائمة.. وسمعت صوتا أشبه بالإنفجار.. وضايقنى الصوت لأنه أيقظنى. ولم أهتم أول الأمر.. حاولت النوم من جديد.. وخيل إلىّ أنى أسمع ضجة فى الشارع.. لم أهتم ولم أفكر فى معرفة سر هذه الضجة.. سمعت صيحات وأنا بين اليقظة والنوم. ثم كانت تلك الدقات العنيفة على الباب. والخادم يطرق بابى.. سيدى قتل.. كان منظرا بشعا.. والناس .. مئات الوجوه ترقبنى.. اقتحموا البيت وأنا واقفة بقميص النوم.. لا أفهم شيئا. أزعجتنى يا عمر .. أنا غاضبة منك..

قتلته من أجلك يا حبيبتى ..

لا .. أنت قتلته من أجلك أنت.. قتلته لأحصل عليك..

كنت تستطيع الحصول علىّ دون أن تقتله..

لا أستطيع.. أخلاقى لا تسمح..

هه. وهل القتل أخلاق؟

حصلت عليك بطريقتى..

أنا خائفة منك..

أعتذر.. آسف .. لن أكررها أبدا..

سوف تضحك من قلبها وتهتف.. أنت تعتذر.. أنت تقول آسف.. هل تريد منى أن أصدق أنك إنسان. إنك بشر.. ربما كان الأفضل أن أقتلها هى. أتخلص منها..

وجد عمر نفسه عند ناصية الشارع بعد أن دار حوله.. مجموعة من البنات بينهن سيدة بدينة كبيرة يركبن العربة البيضاء .. يثرثرن ويحدثن ضجيجا عاليا.. وحركة السيارات تزداد.. العربة البيضاء وصاحبها اختفيا.. السائرون يتزايدون .. لا يهمنى السائرون.. يهمنى الواقفون فقط. هم الذين يرقبوننى. لا أحد واقف.. الكل يتحرك.. حتى السيارة البيضاء تنطلق. فتحت نافذتان فى الطابق الثانى.. لا أحد يطل منهما.. هذه النوافذ عيون مفتوحة على المسرح، لو كان سالم يخرج ليلا بانتظام ماذا جرى لك ياعمر أنت تفكر كثيرا فى الأمان. رقبتك أصبحت ذات قيمة. إن من يقدم على أعمالنا لا يهاب الموت. اللحظة التى قررت فيها أن الموت لا يهمنى... هى نفس اللحظة التى تحولت فيها الى مقاتل.. لو ترددت يا فهمى فلا تتردد أنت فى قتلى..

قال فهمى بجفاء.. طبعا سأقتلك.. كان يحبنى بجفاء.. وزينب سوف تحبنى بجفاء.. ستظل خائفة أبدا.. من هذ الرجل الذى يقف على الرصيف المقابل.. نظراته لا تتحول عنى.. أهناك من يرقبنى.. مستحيل.. لو كان يتجسس علىّ لما وقف هكذا.. هل نسيت يا عمر هذه الأشياء.. ها هو يعبر الطريق نحوى.. يتقدم منى.. على وجهه ابتسامة. أنا لا أعرفه..

كان الرجل الذى يتقدم من عمر.. رياضى الجسم. طويلا. شعره أشيب. يرتدى ملابس أنيقة.. ملابس رجل رياضى..

قال الرجل لعمر :

ـ كم الساعة من فضلك ؟

ـ السابعة والنصف.

ووقف الرجل متردداً بجوار عمر. يتلفت حوله. وقرر عمر أن يهاجمه فسأله:

ـ أتنتظر أحداً؟

أجاب الرجل:

ـ أبحث عن سيارة أجرة..

ولم يتخلص عمر من ارتيابه وقلقه.. وقال:

ـ أنا أيضا أنتظر..

ـ الى أين تتجه ؟

ـ الى الدقى..

قال الرجل:

ـ نفس طريقى.. تستطيع أن تركب معى..

هذه المخلوقات تظهر فى الوقت غير المناسب.. الدراجة مهمة جدا.. سأحصل عليها اليوم.. كان عمر يبتسم وهو يقول:

ـ آسف .. لأنى أنتظر صديقا.. كان الرجل يحدق فى وجهه يدرس ملامحه..

عيناه واسعتان غبيتان..

وبدأ عليه أنه يريد أن يثرثر.

- أنا رأفت حمودة .. مدير معهد حمودة للتدليك..

- تشرفنا..

- وسيادتك ؟

قال عمر بسرعة :

- فهمي عبداللطيف.. موظف.

- في أي وزارة ؟

- التربية ..

- مدرس؟

- لا.. موظف...

- في الإدارة؟

- نعم..

- والله أنا عندي مشكلة في وزارتكم وانطلق الرجل في كلام لم يسمعه عمر. كان رأسه يطن، وعيدان زائغتين وراء سيارة.. ورأى سالم يخرج من الباب. نظر في ساعته.. الثامنة إلا عشر دقائق.

قال الرجل مشيرا برأسه ناحية سالم:

ـ ظننت أن هذا الرجل صديقك.

قال عمر فى وجوم:

ـ لا ..

قال الرجل:

ـ إنه عجوز.. ويبدو أن عنده سيارة.. كانت عندى سيارة هيلمان بعتها..

ولم يسمع عمر بقية الكلام. وظهرت سيارة أجرة ناداها الرجل. فوقفت أمامهما فى نفس اللحظة كانت سيارة سالم تخرج .. كان الرجل يقول لعمر:

ـ هيا اركب.. يبدو أن صديقك لن يأتى..

كان عمر ينظر فى ساعته.. أمضى سالم أربع دقائق قبل أن يخرج من «الجاراج».. وسمع الرجل يسأله :

ـ هل تأخرت ؟

قال عمر فى ضيق مكتوم.. وهو يرقب سيارة سالم تبتعد:

ـ تفضل أنت.

وعندما ذهب الرجل. عاد يسأل نفسه.. هل أنا أنوى قتل سالم .. أنا لم أتخذ بعد القرار.. اتجهت سيارة سالم الى اليمين.. سوف تسير لمدة ربع دقيقة ببطء أستطيع اللحاق بها بدراجتى.. وأطلق الرصاص..

وتلفت عمر حوله يبحث عن الشهود الذين سيرون الحادث. لا أحد. الوحيد الذى سوف يرانى هو سالم. وسوف يموت سالم. كل شىء معد. لم يبق إلا التنفيذ. لم يبق إلا اتخاذ القرار.. ولكنه ليس واثقا من ضرورة هذا القرار.. فها هو يتصرف.. وربما قتل سالم.. وحصل على زينب وتزوجها. قبل أن يتخذ أى قرار.

٢٤

سالم فى نفس اليوم ١٨ يونيو ١٩٦٢

انتبه سالم عبيد فرأى حجرته بالكلية كبيرة واسعة أكبر مما كان يظن. وأحس برغبة فى الإنكماش فى مقعده. كل هذا الوقت مضى وأنا شارد .. أى شىء يجذبنى الى الشرود.. الى الذهول .. لابد أن أقاوم..

كان أثناء شروده تتردد كلمات غير منسقة فى رأسه. كأنها نغم مضطرب.. أكل الكباب ياهمام. كفتة وطرب وكباب. انتحار بالكباب. متى ينصلح الحال. الحال لابد أن ينصلح. الكباب لابد أن ينصلح.. متى ينصلح الإنتحار.. ينصلح الهمام.

الكلمات تهمس فى رأسه، بلا روابط أو منطق. وهو مستسلم لهمسها.. راض بها، لعبة يمارسها في السر.. وصور تقفز الى خياله بلا رابط أو منطق.. مستسلم لها.. وجه زينب.. وجه ضاحك.. وجه متجهم. وجه حزين. وجه جميل. مائة وجه لزينب. وجوه بلا معنى. بلا غرض. يراها فى السر يراها بينه وبين نفسه ويملأه ذلك الإحساس

بالسر. ولكنه سر لا يحركه ولا يثير إنفعاله.. مثل ذلك الجدار القائم أمامه. ويختفي وجه زينب، ويرى صفحة كتاب، أو قاعة محاضرات، وتتحول القاعة الى بحر، ومحمود يركب قاربا، ويجدف في البحر، العاصفة هوجاء. والقارب ينقلب، ويصرخ محمود.. إنقذني.. وتمتد يداه، تحاولان إنتشال سالم. وهو لا يتحرك، ولا يشعر بانفعال، ويملأه إحساس بأنه يرى ويسمع ويعيش في السر. ويدخل سالم احتفالا ويتسلم وساما. القاعة كبيرة ضخمة.. والناس محتشدون. آلاف. ملايين. ينظرون إليه. ويظهر عمر النجار.. طويل جدا. وجهه مستفز أو بارد. وجهه يتحدى أو جامد. ويضغط رأس سالم على رقبته. الرأس يحاول الإختفاء في الجسد. وتهمس الكلمات بغير رابط أو منطق. الكباب في الحسين. الحسين في الكباب. زينب في الحسين، متى ينصلح الحال.. سالم الهمام. الهمام. الهمام.

منذ نصف ساعة مد سالم يده الى درج مكتبه ليخرج أوراقه التى سجل فيها لقاءه مع عمر النجار. ولم تمتد يده. ولم يفتح الدرج. ولم يقرأ الأوراق. ونسى ما يريد. نسى كل شئ.. وانتهى به الأمر الى هذا الحال من الشرود. والإحساس بأنه يعيش في السر..

ولما خرج سالم من شروده.. ورأى أن الحجرة التى يجلس فيها كبيرة جدا.. وانكمش في مقعده.. شيء ما يحيط به.. يطبق عليه. هذا الإتساع.. هذا الفراغ الكبير. وأثناء انكماشه قال لنفسه وكأنه وصل إلى قرار عظيم.. سأعاود زيارتى للحسين وأصبحت مشكلته منذ تلك

اللحظة هل يتصل بصديقه زكى ليذهب معه، أم يذهب وحده.. يذهب فى السر. ويدخل دكان الكباب فى السر. ويتطلع الى المئذنة فى السر ويجوس بين الناس فى السر. ولكنه خائف. ووجود زكى قد يزيل مخاوفه. ولكنه يريد أن يمضى وحده فى السر.

وبينما هو حائر متردد. رأى الدكتور عبدالرحمن الأشوح أستاذ التاريخ المساعد يقتحم حجرته.. من أين جاء؟ من خلف ذلك الجدار؟ كان صوته مزعجا، ومنظر شبابه يرهق عينى سالم. هذا حصان وليس رجلا. أى قوى تتحرك داخل هذا الجسد. أجساد وليست عقولا. هذه آلات تخرج أصواتا .. المعرفة تضيع مع كل هذا الشباب والحماس.

كان الدكتور عبدالرحمن يقول بصوت جهير:

- مسئوليتك اليوم يا سالم بك أصبحت مضاعفة. مسئولية خطيرة فى الواقع. كنت بالأمس أعاود قراءة مشروع الميثاق.. إنه يلقى عبئا خطيرا على مؤرخ مثلك.

قال سالم بسرعة وهو يزداد انكماشا فى مقعده:

- وماذا يعرف سالم عبيد؟

كان يشعر بتقلصات فى جسده.. ولما سمع صوته أدرك أنه لا يتكلم وإنما يتخلص من كلمات محبوسة فى صدره.. توخزه وتؤلمه.

وفتح الدكتور عبدالرحمن فمه..

- أستغفر الله .. سيادتك أستاذنا..

قاطعه سالم، وقد احتشدت الكلمات التى توخزه وتؤلمه فى فمه يريد أن يتخلص منها دفعة واحدة..

- اسمع.. نصيحتى يا دكتور.. كلما تقدمت بى السن شعرت بازدياد جهلى.. فلا تنتظر منى أن أشاركك الحماس والإندفاع.. وأنا طالب فى فرنسا كنت أظن أنى سأصبح أعظم مؤرخ في الدنيا.. كنت أتحدى العجز كنت أتوهم أنيِ قادر على المعرفة.. هل أبوح لك بسر يضحكك.. كان سالم عبيد يعتقد بل يؤمن أنه لم يعرف التاريخ فقط.. بل أن التاريخ ينتظر معرفته .. ليسير وفقا لما يراه سالم عبيد كان فى رأسى المستحيل... المعجزة.. كانوا يقولون لى.. تكفيك معرفة نصف الحقيقة.. كنت أقول.. لا. لابد من الحقيقة كلها.. كأنى ربنا.. وعدت الى مصر. وأصبحت أستاذا. ورضيت بنصف الحقيقة، انكمش سالم عبيد.. الى نصف سالم عبيد.. ظهر على حقيقته.. انتهت الأحلام. والمعجزات. والمستحيلات. كل ما نشرته. كل ما قلته لتلاميذى لم يخرج عن أن يكون أنصاف حقائق. ثم أرباع حقائق. ثم. ثم لا شيء. مجرد رغى. دردشة. لا حقيقة على الإطلاق..

حاول الدكتور عبدالرحمن أن يحتج أكثر من مرة، ولكن سالم كان يصيح فيه:

- أرجوك لا تقاطعنى.. أنا أعرف شعور الشباب.. حماس الشباب.. ولكننا أمام علم.. وحقائق. ومعرفة.

كان سالم يدق المكتب بيده. وهو يشعر أنه وهو يعترف بضعفه وعجزه. يقوم ذلك الشاب القوى الذى يجلس أمامه.. يفتت تلك القوى الكبيرة التى يحس أنها تطبق عليه.. هذه الحجرة الواسعة. هذا الفراغ الكبير من حولى سأملؤه بضعفى سأواجهه بيأسى، وامتدت يد سالم الى أوراق فوق مكتبه. عبثت أصابعه فى الأوراق وهو يرى وجه زينب بينها. تحركت أصابعه بعصبية.. أصابعه فى عينيها.. فى شعرها.. فى فمها..

- الموضوع ليس بسيطا يا دكتور. إنه تاريخ بلد.. والمصيبة أنها ليست أى بلد. ليست الكونغو أو البرازيل أو ايسلنده.. إنها بلدنا. بلدى. حبنا الكبير. أمنا الكبيرة. خرجنا من بطنها .. ومشينا على أرضها. أقدامنا تعلمت المشى فوقها. تعلمنا كيف نستقر ونتوازن فوقها. إنى أتساءل.. هل كل قيمة هذه الأرض أن نولد فوقها. لندفن تحتها.. نظل نتوهم أننا نريد معرفتها.. نبحث عن التفاصيل. ننبش عن التفاصيل.. ثم نكتشف أننا ننبش قبرنا لندفن فيه. لنموت فيه. أهذه هى المعرفة. نبش قبر، حفر حفرة. هه. من حفر حفرة وقع فيها وسكت سالم فجأة وسأل:

- ماذا كنت أقول..

خيل إليه أنه نسى كلامه.. وكان الدكتور عبدالرحمن يتأمله فى دهشة.. لا يكاد يفهم.. ولكنه يشعر بأنه يسمع كلاما خطيرا .. وقال لنفسه. سالم عبيد مقبل على شىء عظيم. وهمس :

ـ وسيادتك تريد أن تقول أن الأمر غير بسيط.. وطبعا هو غير بسيط.

قاطعه سالم وهو يرفع الورقة التى عثر عليها..

ـ عندك مثلا مشروع الميثاق.. لقد قرأت مثلك مشروع الميثاق.. ها هى فقرات كتبتها بنصها فى هذه الورقة.

وارتجفت يد سالم. كان ممسكا برقبة عمر النجار. ينتظر فى أى لحظة أن ينقض عليه عمر النجار.

ـ عندك مثلا هذه الفقرة.. نقلتها بخط يدى.. فى الباب الرابع.. تحت عنوان درس النكسة.. إسمع. وعمت الشباب المصرى موجة من السخط والغضب مع كل الذين مدوا أيديهم للإحتلال وقبلوا وجوده. ولقد ترددت فى مصر فى ذلك الوقت أصداء طلقات الرصاص. وتجاوبت أصداء إنفجارات القنابل.. وكثرت التنظيمات السرية بمختلف إتجاهاتها وأساليبها.. لم تكن هى الثورة وإنما كان ذلك هو التمهيد لها.. كانت تلك هى مرحلة الغضب التى تمهد لإحتمالات الثورة. إن الغضب مرحلة سلبية.

وكف سالم عن القراءة، وحدق فى وجه الدكتور عبدالرحمن .. أيفهم.. أم أنا أخدعه وأخدع نفسى..

ـ ما معنى أن الغضب مرحلة سلبية.. ما معنى الغضب.. أعنى غضب شعب. ما معنى السخط. ما معنى أصداء طلقات الرصاص.

أصداء انفجارات القنابل. ما معنى إتجاهات وأساليب التنظيمات السرية. قف عند كل كلمة وحاول معرفتها فى الحياة. فى اللحم والدم. فى القلب والعقل. الى أين تنتهى بك هذه المعرفة. إنى أشعر كأنى وقعت فى بحر. انقلب بى قارب فى عاصفة هوجاء. أغرق. وأمد يدى. ولا أحد ينقذنى .. سالم عبيد عندما حاول أن يعرف معنى هذه الكلمات. اكتشف أنه لا يعرف شيئا على الإطلاق.

كان يتكلم وهو يرى عمته زكية غاضبة. كانت تصرخ فوق الجسر. متى يأتى من يقتلكم. أخسف بنا الأرض. وخطر له أن زكية تفهم تلك الفقرات من الميثاق. خاطر أزعجه. حتى كاد يصيح. أهو غضب عمتى زكية ذلك الذى تتحدث عنه تلك الفقرات..

وقال ببطء شديد كأنه يتعثر فى كلماته:

- أنك تكاد تجن لو أردت أن تعرف الحقيقة كاملة..

قال الدكتور عبدالرحمن مترددا.. كان يشعر بغموض سالم..

- أظن أن النظرية.. المفروض أن النظرية..

هتف سالم محتدا وهو يطرد شبح زكية:

- أى نظرية يا دكتور.. الحياة لها ألف نظرية.. ولكن النظرية لا تصنع الحياة.. إنها تخنقها.

ورأى زينب تعانق عمر النجار وسمع صوت حامد يقول لأبيه

الحنون لا يمحو العار.. ولا الفضيحة.. سأقتلها. وسمع صوت أبيه يقول.. فات الأوان.. ثم يلتفت الأب الى سالم ويطرده من الحجرة.

ويطرده من الحجرة.

كان الدكتور عبدالرحمن يقول:

- لا بد على أى حال من نظرية.

قال سالم كالمخاطب نفسه :

- فات الأوان.. بالنسبة لرجل مثلى.. فات الأوان.. أنا مطرود من الحياة.. نهايتى قريبة.. كم بقى من العمر. سنة. سنتان. قربت من الموت يا دكتور عبدالرحمن.

كان يقول لنفسه.. أنا قريب من المعرفة. أصبح بينى وبينها خطوة.. نعم أنا أخدعك يا دكتور. سأعرف كل شيء.

سأواجه الحياة. سأتغلب عليها..

وقال كأنه تذكر شيئا :

- إنتظر.. سأريك شيئا..

وامتدت يد سالم الى الدرج الذى عجز عن فتحه منذ نصف ساعة أو أكثر.. وأخرج أوراقه التى كتبها عن سالم النجار.. ولوح بها..

- هذا هو كتابى الجديد.. أحاول أن أثبت فيه..

ولم يكمل.. شعر أنه لن يقول شيئا.. وهمس وهو يلقى بالأوراق أمامه..

الحياة فوق أى نظرية..

تهلل وجه الدكتور عبدالرحمن للنبأ وقال:

ـ أقسم لك أنى كنت أفكر منذ لحظات فى هذا.. كنت واثقا أن سيادتك تقوم بعمل كبير.. إذن فهو كتاب جديد.. هذا عظيم..

صاح سالم غاضبا .

ـ ربما لن أكتبه.. هذه الأوراق متاهة.. لا أظن أنها سوف ترى النور.. ربما أحرقتها بعد أن تخرج..

سأل الدكتور عبدالرحمن فى جرأة.

ـ هل بها أسرار لا تصلح..

قاطعه سالم..

ـ لا .. إن بها جهلا.. فضيحة علمية.. عدم معرفة.. إفلاس للنظريات.. إفلاس للفهم.

وقال هو ما بهذه الأوراق؟.. إنها أوراق إعترافى بالعجز.. وهمس وقال الدكتور عبدالرحمن متحيرا..

لم أفهم المشكلة.. لا أظن أن بها شيئا يستعصى على عالم كبير مثل سالم بك.

كان يتكلم وهو يتساءل، ماذا بسالم عبيد أهو غاضب، ما سر تناقضه، أهناك شيء يضايقه.. حالته النفسية ليست على ما يرام..

ليتنى أعرف ما فى هذه الأوراق..

وقال سالم:

كيف يلتقى المؤرخ بالحياة.. هذه الفقرات التى قرأتها لك.. كيف تلتقى بالتاريخ كمؤرخ.. كيف تلتقى بالغضب والسخط .. بالرصاص والقنابل.. الذين عاشوا تلك الحياة. لا يفكرون فى التاريخ.. والذين يفكرون لا يعيشون.

قاطعه الدكتور عبدالرحمن محتجا..

- يدهشنى هذا الكلام يا سالم بك وأنت سيد العارفين.. ليس المفروض أن يكون الطبيب مريضا ليعرف المرض وأنا واثق أنك تقصد معنى آخر.

ابتسم سالم قائلا:

- نعم.. ما رأيك فى أكلة كباب.

لم يعد يزعجه الدكتور عبدالرحمن. أصبح يستريح لوجوده، يريد أن يثقله بكلمات متشابكة مضطربة فى نفسه سيتخلص منها جميعا لعله يستريح..

- دعنى أستريح، طبعا ليس من تفكيرى أن أعيش بنفسى أحداث التاريخ، ليس من الضرورى أن يمرض الطبيب، ولكننى طبيب مريض، نعم هكذا أنا.. أنا مريض بالتاريخ، أراه يتعلق بى وينهشنى، الكل يعيشون، يمرحون فيه، ويتقاتلون، وأنا وحدى أرقب التاريخ وأرقبهم، وأعرف فى النهاية أنى أرقب عجزى.

قبل الدكتور عبدالرحمن الدعوة لأكل الكباب..

ـ فى الواقع يا سالم بك.. عندى عرض أريد أن أعرضه عليك..

إتفقت مع بعض أخوانى أن نجتمع عصر كل يوم ونتشاور فى تنظيم دراسة جديدة للتاريخ.. وتحدثنا فعلا.. وفى الواقع يشرفنا كثيرا.. أن تقبل رياستنا.

قال سالم وهو ينهض :

ـ سأستمع لكل إقتراحاتك هيا بنا..

أثناء الطريق كان سالم مشغولا بما سماه مرضه التاريخى.

وكان يرى علامات هذا المرض ممتدة فى حياته فى تلك الأيام التى عاشها.. منذ عمته زكية، حتى زينب وعمر النجار ومسيو لافارج حتى السخرة والكرباج.. وهذا المشروع الجديد لدراسة التاريخ برئاستى.. هه.. كانت زكية غاضبة. وعمر غاضبا وزينب غاضبة. ولافارج ساخرا.. وسأل فجأة :

ـ ما معنى أن الغضب مرحلة سلبية؟

أجاب الدكتور عبدالرحمن.

ـ لأنه لا يؤدى وحده الى شئ إيجابى..

قال سالم شاردا..

ـ لا أظن أنه..

وسكت، كان يريد أن يقول شيئا ما، ثم اكتشف أنه لا يعرف ماذا يريد أن يقول، لعله نسى، وأحس بضيق، كان واثقا أنه سيقول شيئا هاما..

وسمع الدكتور عبدالرحمن يسأله.

- لا تظن ماذا يا سالم بك..

أفاق من شروده وسأل بدوره..

- ما الذى كنا نتحدث عنه..

- الغضب كمرحلة سلبية..

واندفع سالم محاضرا، وهو حزين لأنه يبتعد عن ذلك الشيء الذى يريد أن يتذكره..

- آه.. إنى اتساءل لو حللنا الغضب.. لو حاولنا أن نعرف الغضب فى نفس كل غاضب.. غضب المتظاهرين فى حريق ٢٦ يناير.. غضب سياسى؟ نعم .. سخط إجتماعى؟ .. نعم.. ولكن خذ كل واحد ممن اشتركوا فى هذا الغضب العام.. وأدرس حالته على حدة.. لترى كيف نجمع هذا الغضب.. ماذا ستجد.. هذا غاضب لأنه عاطل.. وهذا غاضب لأن.. زوجته تخونه.. وهذا غاضب لأنه فاشل.. وهذا غاضب لأن أمه أو ابنته مصابة بمرض مزمن.. وهذا غاضب لأنه..

قال الدكتور عبدالرحمن مكملا.

- لأنه معقد نفسيا..

ـ نعم معقدً نفسيا.. على العموم تستطيع أن تقول.. أن هناك غضبا كبيرا نزل على الناس.. وتفرق بينهم في صور متعددة لا حصر لها.. الإنحلال الخلقي مثلا.. يأخذ ألف صورة.. إدمان.. تعاطي الخمور.. لعب القمار.. الغش. الخيانة الزوجية.. ألوان من الإنحلال.. ونأتي نحن.. ونقول.. كان عصر إنحلال.. كان عصر فساد.. عموميات.. ولكن ما قيمة هذه العموميات.. كان عصر فساد .. عموميات.. ولكن ما قيمة هذه العموميات.. إذا لم تواجه التفاصيل.. العموميات بغير مواجهة التفاصيل تتحول الى كسل.. تتحول الى نصف حقيقة .. وربع حقيقة..

هذا هو الخطأ الذي وقعنا فيه.. هل فهمت ماذا أعني..

ـ ليس تماما..

سأله سالم..

ـ هل واجهت الحياة يا دكتور عبدالرحمن..

ـ كلنا نواجهها..

ـ بمرها..

ـ بحلوها ومرها..

سأل سالم بإلحاح..

ـ كيف واجهتها.. تعب الدراسة.. إرهاق المذاكرة.. حلاوة الفوز بالإمتياز ودرجات الشرف..

- والزواج والأولاد..

- أكانت لك مغامرات..

ابتسم الدكتور عبدالرحمن مرتبكا..

- مغامرات بسيطة.. كأى شاب.. قبل الزواج طبعا.. ضحك سالم بشدة.. وقال ..

- كان لأستاذى لافارج.. عشيقة أسبانية.. صبية كِالقمر اسمها كونشيتا.. لابد أنها عجوز شمطاء الآن..

سأل الدكتور عبدالرحمن فى محاولة يائسة للفهم..

- ولكن لا أظن أن معرفة التاريخ لها صلة بهذا..

سأل سالم بدوره فى غموض..

- أتظن هذا؟

- إنه أمر بديهى.. لن نعود الي حكاية الطبيب الذى لابد أن يمرض ليداوى المرض..

قال سالم بصوت شارد..

- إسمع.. سأحكى لك حكاية.. كان فى قريتنا منذ حوالى خمسين عاما.. أى منذ نصف قرن.. امرأة خانت زوجها.. وادعت الجنون لتفعل هذا.. وتحدث القرية كلها.. تصور.. منذ نصف قرن، والتقاليد على أشدها.. وفى الريف المصرى امرأة تلعب بالقرية ورجالها.. تسخر

منهم.. ما ذكره حتى الآن هو غضبها.. قتلوا إبنها لأنه جاء في الحرام.. فوقفت فوق الجسر وصبت اللعنات على القرية بأكملها.. وصرخت رافعة يديها الى السماء.. متى يأتى من يقتلكم.. سمعتها بأذنى.. ولم أنس صرخاتها.. لم أنسها أبدا.

وتنهد سالم وأكمل قائلا :

ـ دعنى أكمل لك الحكاية.. كما أتصورها.. أثناء الحرب العالمية الثانية.. ظهر كما جاء فى تلك الفقرة التى قرأتها لك.. شباب غاضب.. يصرخ.. سوف نقتلكم جميعا.. سوف ندمركم.. نفس كلمات زكية.. ذلك اسم المرأة.. تضخمت كلماتها وتطورت مع الزمن.. أتذكر الديناميت فى سينما مترو .. عمل إرهابى غرضه القتل الجماعى.. أريد أن أقول لك.. أريد أن أسالك.. هل من الجنون أن أجد نفسى أتساءل ما الصلة بين صرخة تلك المرأة منذ نصف قرن.. وندائها.. وبين تلبية النداء بعد الحرب العالمية الثانية.. لأن خاطرا ملحا يقول لى.. أن هناك صلة بين الإثنين.. امرأة غاضبة على التقاليد منذ نصف قرن.. لاشك أن هناك غيرها.. صرخن ممن اضطررن مثلها الى الإذعان والزواج من رجل عجوز. هذه المرأة تطلب بكل ضعفها الأنثوى تدمير المجتمع الذى ظلمها بتقاليده.. ثم يظهر فعلا من تكون فلسفته التدمير. بل يعم التدمير كما حدث فى حريق القاهرة.. أهناك صلة.. أم لا توجد صلة.. أهى حوادث فردية متفرقة.. أم هى حوادث متتابعة .. تمهد لنفسها فى تسلسل مرسوم.. أكانت المرأة تعلم أن ما

تطلبه سوف يتحقق.. هل الله يرسم هذه المتتابعات.. فى صورة فنية.. لا يراها إلا هو سبحانه وتعالى.. إننا الحق فى أن نرى لمحة من هذه المتتابعات فى هذا المجال.. يختلط الدين، بالعلم، بالتاريخ بالدراسة النفسية، بكل شىء.. أهذه هى المعرفة الحقيقية .. المرأة التى غضبت منذ نصف قرن.. طالبت بالدمار.. وجاء الدمار.. تسألنى ما قيمة هذا بالنسبة للمؤرخ.. أقول لك.. لو كان هذا الخاطر صحيحا.. فلن تفرح باكتشاف العلاقات التاريخية.. ولكنك ستندم لأنك تضيع وقتك فى هذه الإكتشافات.. ستجد أن الحياة أعظم .. ستتمنى لو كنت تلك المرأة الغاضبة.. أنها خير منك ألف مرة.. هى التى تصنع التاريخ.. هى التى تفهمه على حقيقته.. ستتمنى أن تكون أحد الساخطين الذين اقتحموا الدكاكين وأحرقوا الفنادق ودور السينما يوم ٢٦ يناير.. هذا هو العمل التاريخى.. الفهم التاريخى.. لا أن تسجل هذا.. وتحلله.. أما لو كان قد فاتك كل هذا.. فيبقى لك شىء كبير تتمسك به.. وهو أن تعرف التاريخ.. ولا تفرح بانتصاراتك العلمية.. ولكنك تعرفه .. وتتألم.. وتتحسر وتبكى.. وتندم.. لأنك كلما ازدادت معرفتك بالتاريخ.. كلما ازداد بعدك عن الحياة.. كلما تقدمت خطوة فى الفهم.. كلما تقدمت خطوة فى العجز.. كلما نبشت فى المعرفة.. كلما نبشت فى حفرة الموت. هذا هو التاريخ كما يشعر به إنسان.. فى الحقيقة أنا لست واثقا من حرف واحد مما أقول.. ولكنها رؤية مختلطة.. تراود عجوزا مثلى .. أحيانا أقول أنها دروشة الشيخ سالم.. أتعرف.. كان المرحوم أخى الشيخ سليمان درويشا.. مجذوبا رسميا.. وكانوا يتوقعون لى نفس

المصير وأنا صغير.. ربما سأنتهى الى هذا بعد كل هذه السن.. لم أفلح فى مقاومة الدروشة. لعل هذا هو ما يدفعنى الى زيارة الحسين..

قال الدكتور عبدالرحمن وقد وجد فرصته أخيرا للكلام.

- لا أظن يا سالم بك أنها دروشة.. بالعكس.. هى أسئلة جوهرية.. ما صلة الظواهر العامة.. بالعوامل النفسية الخاصة.. وما موقف المؤرخ من كل هذه العوامل.. الى أى حد يمضى وراء التفاصيل.. وراء حياة الأفراد كأفراد.. والى أى حد ينصرف من الأفراد.. متى ينصرف عنهم ويهتم بالجماعات.. اسئلة كبيرة لاشك فى هذا.. ولكنى لا أظن أن التاريخ يصل إلى دراسة امرأة بالذات..

صاح سالم :

- لماذا تدرس تاريخ كيلوباترة.. شجرة الدر..

أجاب الدكتور عبد الرحمن متعجبا:

- لأنهن ملكات..

قال سالم :

- أفراد.. والمنطق الذى فرض علىّ دراسة كليوباترة.. يفرض علىّ دراسة زكية.. أو أى امرأة أو رجل.

كاد يقول زينب..

- هذا مستحيل..

قال سالم متحديا..

- إذا كان الأفراد خاضعين للظواهر الإجتماعية.. فهى تظهر من خلالهم سواء كانوا ملوكا أو صعاليك.. ملكات أو قرويات.. إذا كانوا خاضعين للقدرة الإلهية.. فهى تظهر من خلالهم بصرف النظر عن مراكزهم ومناصبهم.. إذا كانوا متحررين من كل شىء.. فأنا أزعم أن امرأة قالوا عنها مجنونة .. وثبت هنا.. فى رأسى.. أنا المؤرخ الكبير.. وهى تكتب لى.. تكتب لى رغم أنفى.. تتدخل فى معرفتى رغم أنفى.. لكل مؤرخ حياته.. والتاريخ كما أراه.. هو دمى أنا.. حياتى أنا.. وفى حياتى..

كان يتمنى لو يستطيع أن يقول بصوت مرتفع.. فى حياتى زكية وعمر وزينب.. وعشاق زينب الذين أجهلهم..

قال الدكتور عبدالرحمن معارضا:

- هل معنى هذا أن يتقدم المؤرخ الى محلل نفسى.. قبل قيامه بعمله كمؤرخ.. قال سالم :

- أو يواجه نفسه.. وينتصر عليها..

قال الدكتور عبدالرحمن مفكرا.

- هذا هو موقف أى عالم..قال سالم بمرارة..

- قد يدفع العالم حياته ثمنا لهذه المواجهة.. إنها معركة صعبة.. كان لافارج يقول.. قد تدخل السجن.. أما أنا فأقول.. قد تموت..

وقطع سالم كلامه. ظهرت أمامه مئذنة الحسين. وهمس بلا وعى..

- لا أظن أنه يقتلنى..

ها هو يتذكر ذلك الشيء الهام الذى كان يريد أن يتذكره..

وسمع الدكتور عبدالرحمن همسه. ولكنه لم يصدق أذنيه.

- ماذا يا سالم بك.

- لا شيء..

- خيل إلىّ..

قال سالم بسرعة وهو يهبط من السيارة..

- لا شيء.. لا شيء..

أيقتلنى عمر النجار.. عمتى زكية تغضب.. عمر يدمر. زينب تثور. سالم يعرف. لن أعرف حتى تثور زينب حقاً، وزينب لن تثور حتى تحب. إذا أحبت عمر فسوف يقتلنى. لو أحبها عمر فسوف يقتل نفسه. سوف ينتهى عمر القاتل. لو أحبها عمر فسوف أعيش.. وسوف أتعذب.. وسوف أموت .. كل هذه أفكار مشوشة.. لا تؤدى الى شيء.. لن أصل الى شيء أواجه زينب بالحقيقة.. حتى أواجهها متلبسة، بلا فرصة للهرب. أو التخفى، هل أستطيع الإقدام على هذه المواجهة..

* * *

دخل سالم عبيد حجرة الإجتماع. وهو يشعر بإرهاق شديد لا يكاد يعرف ماذا يقول، ولكن سرعانَ ما اكتشف أنه يتكلم بحماس. يردد

كلمات قرأها. يتشدق بتعبيرات نطق بها مئات المرات فى محاضراته. كأنه إنسان آخر. يتكلم نيابة عنه.

أنصاف الحقائق وأرباعها تتكلم. اللا شيء ينطلق، والحقيقة تتوارى. مناهج علمية. وثائق. لجان. جداول. ندوات. الضعف يملأ الفراغ بقوة. العجز ينتشر فى الإتساع. كان يتكلم ورأسه يدور. الإنتحار بالكباب. الحسين فى الكباب. متى ينصلح الكباب. دروشة الكباب. تكلم يا همام..

٢٤

أحداث يوم ٢٢ يونية عام ١٩٦٢

أمضت زينب أربعة أيام دون أن يتصل بها عمر.. كانت تنتظره كل لحظة ولكنه انتظار يائس فإحساس غامض يؤكد لها أن عمر قد ذهب.. كأنه مات ولن تراه أبدا.. ومع ذلك فهى تنتظره.. وتستعد للقائه.. المستحيل قد يقع.. المعجزة قد تتم.

أهو عمر الذى أوصلنى الى هذه الحال.. أم أنا التى أضخم الأشياء.. أخشى أن يجئ عمر، وأظل موزعة بين الإنتظار واليأس. ما الذى أنتظره؟ ما الذى أنا يائسة منه؟ من أين جاءت هذه الهموم الى قلبى؟ عمر يريد الإفلات منى، لا يريد أن يتزوجنى .. لا بأس، الصدمة ليست كبيرة.. إنها ليست صدمة على الإطلاق.. تعودت العلاقات التى تنتهى فجأة. تعودت ألآ أذكر الماضى تعودت ألا أحلم بالمستقبل.. لى اللحظة التى أنا فيها.. وهى الآن لحظة كئيبة. مفزعة.. من أين جاءت الكآبة.. من أين جاء الفزع.. ما يضايقنى أنى تورطت مع عمر الى

حد التصريح له بأنى أريد الحياة معه.. ما كان يجب أن أتورط فى مثل هذا الكلام.. أعلم أنه مجرد كلام.. ولكنه يضايقنى.. لا شك أنى أخطأت.. أنا التى لا تعرف معنى الخطأ، ما أتفه هذا الخطأ.. ولكنه يفزعنى.. شىء ما.. يهددنى.. زوزو موزو مهددة.. الطفلة الحلوة مهددة.. المجنونة مهددة.. العاهرة مهددة..

فتحت المذياع، وانطلق صوت الموسيقى عاليا، عاليا جدا، الى أقصى مداه.. وصاحت بأعلى صوتها.. هيه.. هيه.. ودارت حول نفسها.. رافعة يديها فى الهواء تتثنى بخصرها.. تهز أردافها.. هيه.. هيه.. كل ما فى الحجرة يدور ويدور .. والصوت الصاخب يخرس ما عداه من أصوات.. هو وحده الأمر المسيطر.. وقفزت فوق السرير وجسدها يدور ويتثنى .. ودوار يلعب برأسها.. سأشترى فستانا جديدا.. أحمر.. سأشترى حذاء جديدا أحمر.

سأذهب الى الحلاق. واتمخطر فى الشارع.. سأذهب الى السينما. وسقطت على السرير وبكت. كل شىء معاد. كل شىء معاد. لو أنى بلا عقل. لو أنى بلا ذاكرة أعيش معك يا عمر .. كلام لا معنى له، منذ سنوات. منذ سنوات بعيدة. كان سالم يمسك بكتاب ضخم.. ما الذى تقرأه يا سالم! الإنجيل يا حبيبتى. يجب أن تقرئى هذا النشيد. نسيت. عندما أنهض من فراشى . سأذهب إلى المكتبة واقرؤه.. لن أرتدى ملابس الحداد. أمى وملابس الحداد، والكآبة والفزع. كنت أظن أنى قضيت على الحزن. أيفاجئنى بعد كل هذه السنين. أيغدر بى ويخرج

من قلبي كأنه لم يمت. مازلت واقفة في الطابور في شارع شبرا، أرتدى الجلباب وفي قدمي شبشب. أبتسم للبقال ليرضى بتأجيل الدفع.. أبى يقهقه، طويل، مارد، قامته لا تبلغ ركبتيه. أنا وسالم في القطار الى اسوان. الليل والضوء الاصفر الشاحب، سالم يحدق في وجهي زينب أنه مات .. من الذى مات؟ لا تقاومي موته.. من الذى مات.. من الذى مات.. أنت عطشي للحب.. العطش للحب مرض يا زينب.. طلقني..

وقفزت زينب من فراشها، وذهبت الى المكتبة، وأخرجت الإنجيل وقلبت صفحات نشيد الأنشاد، ها هي، نفس الفقرات. مازلت موجودة بنصها، لم تذهب، في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي. طلبته فما وجدته. إني أقوم وأطوف في المدينة والأسواق وفي الشوارع.. أطلب من تحبه نفسي.. طلبته فما وجدته، وجدني الحرس الطائف في المدينة فقلت لهم. أرأيتم من تحبه نفسي. كل هذه السنوات. والنشيد في الكتاب والكتاب على الرف. سالم هو الذى جاء بهذه الكتب وملأ بها المكتبة. هو صاحب الأوراق التي يكتب فيها عني وعن محمود. هو الذى يحفظ الحزن في البيت، هو الذى يحفظ الذاكرة. هو الذى يفكر ويعرف. أنا وسالم في هذا البيت. عينه تراني. أفكاره تحكم عليّ، إنه يعرف الماضي وكأنه يرسم المستقبل يجب أن أهرب من سالم. إنه كالمرأة التي تعترضني في كل مكان. يجب أن نغمض عين سالم، لولاه لما تذكرت محمود. محمود الميت هو سالم. لولاه لما كان عمر، عمر الموت هو سالم. عمر الذى يقتل هو سالم. كيف أعيش لحظة حياة بلا ذكرى ـ بلا أمل ـ كيف أعيش لحظة حياة بلا سالم.

وارتدت زينب ملابسها وخرجت للقاء عمر. سأغمره بحبى. سأغرقه فى جسدى. سأحوله الى عاشق سأتحدى فيه الموت: سأجعله يسكر ويرقص عشرة بلدى، سيقهقه ويجن، وسنحدث صخبا عاليا. عاليا، يملأ الدنيا.

قابلها عمر واجما.. كان بيته مظلما. النوافذ مغلقة. والجو خانق. ولكنها ستحطم كل هذا فى لحظات.

- ظننت أنك مريض..

- لا..

- لماذا لم تتصل بى.

- أنا معك فى كل لحظة..

- معى فى الخيال..

وهجمت عليه تعانقه. وهمست فى أذنه.

- لم أكن أعلم أنى أحبك كل هذا الحب.

قال بصوت غلبة التأثر:

- هذا الصباح كنت أمام بيتك..

كل صباح أذهب وأقف أمام بيتك.. همست فى عتاب:

- ولماذا لم تصعد إلىّ.. ألا ترحم حبيبتك التى تنتظرك.. كنت أفكر فيك وأبكى.

قال بصوت ضعيف:

- حبك هو الذى منعنى..

قالت وقبلاته تقطع كلماتها:

- حبيبتك جاءت إليك.. لو كنت أعلم أنك تنتظر لهبطت إليك بقميص النوم، وقبلتك فى الشارع.. لم يعد يهمنى شىء.

سأعيش معك هنا. أردت أو لم ترد يا حبيبى.. لن أكلفك شيئا.. سأنزوى فى هذا الركن. أنتظر اللحظة التى تمنحنى فيها حبك. سأخضع لك. سأخدمك. سأنظف بيتك. سأعتنى بك. سأغسل ملابسك. لن أفكر فى أحد سواك ليس فى الدنيا غيرى وغيرك. أنا وأنت الدنيا كلها.

وتذكرت سالم. كانت تعرف أنه موجود هو الآخر فى الدنيا فدفنت رأسها فى صدر عمر. هاربة من سالم. وسمعت عمر يقول:

- سالم خرج اليوم فى الثامنة صباحا..

وارتجفت. هو أيضا يذكر سالم. سألت والفزع يهاجمها:

- ماذا كنت تفعل أمام بيتنا.

- أعد مشروعا.

انقبض صدرها. وسألت من جديد. كانت ذاهلة..

- ماذا كنت تفعل؟

أبعدها عنه. ، ونهض وقال وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

ـ كنت أريد أن أكون قريبا منك:

انطلق الفزع سائلا

ـ يجب أن تقول..

ـ كنت أتسلى.

وجهه بغيض . أصفر . وهتفت:

ـ لا أصدقك.. ماذا كنت تفعل. قال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. وعيناه قلقتان مريبتان.

ـ قلت لك كنت أتسلى..

ـ هذا كلام غامض.

قال متحديا:

ـ أنت التى تتوهمين أنه غامض.

نهضت وأمسكت به، ساتجاهل هذا الوجه الأصفر البغيض .. لن أرى هذه الإبتسامة الساخرة المريبة.. سأغمرك بحبى.

ابتسمت وضمته إليها ومسحت بيدها على شعره.

ـ عمر.. ما الذى يدور فى رأسك..

ـ أريد الزواج..

قالها بصوت جاف باتر:

ـ تتزوجنى يا حبيبى بالوقوف فى الشارع.

قال مستسلما منكس الرأس على كتفها.

ـ لعلى لا أريد أن أتزوجك.. لعلى أتعذب.. وأُريد الخلاص منك..

قالت وهى تربت على ظهره فى حنان :

ـ تتخلص منى بالحضور الى بيتى كل صباح ؟

دفعها بيده مبتعدا وهو يصيح :

ـ لعلى لا أريد شيئا على الإطلاق.. وابتسم تلك الإبتسامة الغريبة.. صاحت فى غيظ :

ـ ما هذه الإبتسامة.. ما معناها..

أجاب وهو يهز كتفه :

ـ لا معنى لها..

ثم أردف قائلا وكأنه اكتشف سرا :

ـ ولكنها التعبير الدقيق عن الموقف..

وكان مازال يبتسم فى عناد..

ـ أى موقف ؟

ـ لا أدرى.

كانت تشعر بالخطر القريب. ولكنها لا تستطيع أن تحدده.. ووجدت نفسها تقول متوعدة..

ـ إسمع.. سوف أنبه سالم.. قال بسرعة والإبتسامة تختفى من وجهه :

ـ كل ما أفعله من أجلك ..

وأقترب منها يريد الإمساك بها:

ـ أتريدين الإساءة إلىَّ؟

قالت متراجعة :

ـ أواثق أنت أن ما تفعله من أجلى؟.

قال فى هدوء مثير..

ـ لا.. لست واثقا.. ولكنك. وسكت مترددا :

ـ ولكن ماذا ؟

ـ يجب أن تقبلى الأمر على هذا النحو.

ـ وإذا لم أقبله.

قال بصوت بارد :

ـ إذا لم تقبلى.. فلن يموت سالم وحده :

القزع أصبح واضحا. محددا كبيرا.. حتى أنها لم تفهم وكأنها لم تسمع. ورأت زينب نفسها وهى ترقص فوق السرير ثم تسقط باكية.

ورأت الإنجيل فوق الرف. ورأت وجه أبيها يقهقه.. ورأت محمود يبتسم. ورأت الليل والنهار يختلطان.

كان عمر يقول :

ـ ستموتين أنت أيضا..

تمتمت :

ـ إذن فأنت تريد..

ـ نعم أريد..

ـ موته.

ـ قتله..

قالت محاولة أن تفيق :

ـ ما السبب ؟

ـ لا سبب هناك..

ـ بغير سبب ؟

قال بصوت واثق :

ـ أقتل

ـ أفاقت تماما من الدوامة التى سقطت فيها. وأندفعت تقول:

ـ لو فعلت هذا فلن ترانى أبدا..

ـ لست واثقا.

الكلمات تخرج من فمه باردة صلبة..

قالت زينب متحدية :

ـ بل أنت واثق تماما.. ورفعت صوتها..

ـ أنا لا أحبك.. ولا أريد الحياة معك.

قال بنفس الصوت البارد :

ـ لست واثقا..

صاحت :

ـ أقسم لك.

قال ساخرا :

ـ أنت تقسمين.. طالما أنت موجودة فلست واثقا من شيء .. وعليّ أن أقرر.. عليّ أن أختار..

من هذا الذى يريد أن يختار.. كانت تشعر بتحد هائل له .. قالت وهى تواجهه بعينيها فى ثقة :

ـ تقتلنى.. أو سالم.

ـ لا .. أنا.. أو سالم.

ضحكت.. ووجدت نفسها تقول :

ـ أنت مضحك يا عمر.. ولماذا لا تقتلني أنا أيضا..

وكادت تتقدم منه لتضمه اليها .. لكنها فوجئت بوجهه يتغير.. يتلفت حـوله في قلق.. ويسـرع الى منضـدة لا درج لهـا وهو يقـول منفعلا:

ـ هل يعرف أحد أنك هنا..

ـ ماذا تعني.

قال ويده ممسكة بمقبض الدرج الخشبي ورأسه متجه اليها ووجهه هائج :

ـ طبعا لا.. فأنت لم تعلني في الإذاعة أنك قادمة الى عشيقك في بيته.. لم تخبري سالم.. لم تخبري أحدا.. جئت إليَّ متلصصة..

وقبل أن تنتبه كان قد فتح الدرج والمسدس في يده مصوب إليها..

ـ أنظري.. ها هو في يدي.

في عينيه انتصار.. وكان يلهث.. ومضى يقول :

ـ الذين يتلصصون .. عليهم أن يواجهوا هذا..

ولوح بمسدسه.. وقال وهو يتقدم منها :

ـ أو يتسلحوا به.. أستطيع أن أقتلك لو أردت.

كان يضحك من قلبه.. منتشيا. مزهواً. وقال في مرح غريب :

ـ ماذا تريدين مني.. ما الذي يجعلك تحبين رجلا مثلي..

أيعجبك منظره..

وصوب فوهة المسدس إلى رأسها وقال:

ـ هل تحبيننى الآن؟

وتهدج صوته قائلا :

ـ لو كذبت فسأطلق عليك..

قالت زينب فى براءة طفلة :

ـ سأخرج..

قبل أن تنتبه، كان قد هجم عليها وأطبق بيده على فمها هامسا :

ـ لن تصرخى.. و لن يسمع صوتك أحد..

كانت تحملق مذعورة. وأغضبه منظرها، فانهال عليها بكفه يصفعها على خدها. يهوى بكفه على رقبتها، وهى تتألم وكأنها لا تتألم، تموت وكأنها لا تموت، ورأسها يتضخم بهالات سوداء وحمراء، كانت جاثية على الأرض.. تذكرت أنها وهى طفلة كانت تجثو على الأرض وتلعب. لا أحد يقسو على الأطفال الى هذا الحد. أنا واثقة أنه سيندم. أكرهه. لن أبكى.

وانفجرت فى البكاء..

ورفعت رأسها لترى وقع بكائها عليه.. ما كادت تلتقى عيونهما حتى ابتسم.

أنا صانعة ابتسامات الدنيا. ولكنى لم أضع هذه الإبتسامة المقيته على وجهه.

ـ لماذا تبكين..

ـ نهضت، وجرت الى الباب، فلحق بها، وأمسك بذراعيها فى قسوة يكاد يحطمها، وقال والإبتسامة المقيتة مازالت على وجهه.

ـ كما ترين.. لن أقتلك.. لأني أحبك.. ولكنى سأظل أسألك.. ماذا تريدين منى.. وسأظل أذكرك بأنى المقاتل عمر النجار وسأقتل سالم. وتشاهدين بنفسك جثته.. وسوف تأتين إلى بعد ذلك.. وأنت واثقة من حقيقتى.

وهزها بعنف..

ـ أتفهمين؟

وهمست ذاهلة :

ـ نعم.

ـ وستأتين إليّ.. قولى نعم..

ـ نعم.

ـ سوف أتى إليك..

ـ سوف أتى إليك..

ـ لا مهرب لك منى .. قولى نعم..

- نعم.

- وأنت تحبيننى كما أنا.. قولى نعم..

- نعم.

- أو تموتين..

همست زينب :

- هل أخرج الآن..

قال ضاحكا:

- ليس قبل أن تقولى.. أحبك.

- أحبك.

- قبلينى.

كان يشير بأصبعه الى فمه.

وقبلته فى فمه.

قال:

- نحن الآن شريكان.. غدا صباحا سوف أضرب سالم وهو خارج من البيت.. تستطيعين مشاهدة كل شيء من نافذتك..

وسوف تدركين أنك أنت التى قتلته.

أطرقت زينب برأسها.. فصرخ :

ـ لماذا لا تبتسمين.. ألا تريدين الخلاص منه..

همست :

ـ نعم ..

قال:

ـ أنا لا أريد الخلاص منه.. فقط أريد أن أقتله.

وضحك.. كأنه قال نكتة. ، ورآها تضحك.

ـ لماذا لا تضحكين؟

الضرب أهون من هذا.. آلامها أصبحت فوق الإحتمال.

قالت محتجة :

ـ ما الذي يضحك في القتل؟

هتف متذكرا:

ـ خطر لى أن دوى الرصاص سيزعجك.. نعم.. حتى هذا لم يغب عن بالى.. قلت لنفسى ستكون مستلقية على سريرها.. نائمة وستسمع الرصاص.. وتغضب.. لأنه أيقظها.. آسف.. سأكون رقيقا مهذبا.. لن أقلق راحتك.. ولكن أين أقتله. هنا.. في بيتى.. يمكن، ولكن المشكلة هى كيف أتخلص من الجثة.. تصورى أى مجهود سأضطر الى بذله فى عملية سقيمة.. جثة ميتة.. منتهية.. علىّ أن أخفيها. أدفنها فى مكان.. مجهود لا مبرر له.. هذه مهمة حانوتى.

كان يتأملها وهو يتكلم وقال فجأة :

- ربما كان هذا هو السبب فى أنى لم أقتلك الآن.. تصورى جثتك ملقاة على الأرض.. تفوح منها رائحة عفنة.. مشكلة.

لا فائدة من فهمه.. جنون مطبق.. أهو مجنون؟ أهذا هو الرجل الذى يكتب عنه سالم.. وتذكرت أنه كتب عنها. وقال أنها وعمر متشابهان.

كان عمر يسألها :

- فكرى معى.. أعندك اقتراح.

أى اقتراح يريد.. الجثة الميتة كالعلاقة المقطوعة..

انتظر عمر أن يسمع صوتها.. ونفذ صبره.. وصرخ :

- قلت لك تكلمى.

- ليس عندى ما أقوله.

- قولى هذا..

وأخرج المسدس من جيبه.. وتأمله طويلا، وأصدر أمرا

- تعالى هنا.. تقدمى...

- ماذا تريد؟

- تقدمى..

تقدمت خطوتين. وسألها :

ـ أتذكرين؟

ماذا أتذكر..

أستأنف قائلا كالحالم :

ـ تلك الليلة فى كلوت بك.. يوم أعطيتك المسدس.. وأمسك بيدها ووضعه فى قبضتها.

ـ إذا أردت أن تقتليني فأفعلى.. إذا أردت أن تدافعى عن نفسك فأفعلى.

سقط المسدس من يدها على الأرض. فأسرع إليه يلتقطه.

ونظر إليها طويلا وقال:

ـ إذا أردت الذهاب فاذهبى..

لم تكن واثقة تماما مما قد يفعله فى تلك اللحظة.. أيقتلها.. أيمنعها من الخروج.. ولكنها تقدمت نحو الباب وفتحته وخرجت..

ورأت الطريق.. فأصابها دوار.. وركبت سيارة حملتها الى البيت..

وسمعت صوت سالم يتكلم فى التليفون. كان يقول :

ـ اتفقنا ..

ورآها سالم فتهلل وجهه. وهتف :

ـ ها هى ..

وقال سالم وهو يقدم لها سماعة التليفون :

- عمر .. يسأل عنك.

- تقدمت كالمنومة.. وأمسكت السماعة وألصقتها بأذنها.

- آلو..

- الحمد لله.. كنت قلقا عليك يا حبيبتي.. إسمعي.

سأنفذ ما اتفقنا عليه بعيدا عن البيت..

كانت تشعر بنظرات سالم تخترق رأسها وقالت:

- يجب أن تساعد سالم حتى ينتهي من كتابه بسرعة.

- سمعته يقول :

- ثقي أن هذه آخر ليلة له معك.

أغلقت السماعة.. وسمعت سالم يسألها:

ماذا قال لك؟

تمتمت:

- لا شيء.. يسألني عن صحتي.. ورفعت صوتها:

- ما الذي اتفقت معه عليه؟

قال سالم وهو يحك ذقنه متجها الى حجرة مكتبه:

- سألتقي به من أجل الكتاب.

كان يوليها ظهره.. ودخل الحجرة وأغلق الباب.

٢٥

أغلق سالم باب حجرة مكتبه فنسى عمر وموعد لقائه. ونسى أسئلة زينب. وشغل نفسه. بترتيب جدول أعمال اللجنة أساتذة التاريخ التى انعقدت برئاسته.. كل يعمل بنشاط ودأب. أفكاره منظمة، وقلمه يجرى على الورق بسهولة. يكتب بخط واضح وفى نفسه إطمئنان وراحة. كل شىء من حوله ساكن. هدوء شامل يسيطر على الحجرة. هدوء عميق كأنه صدى لهدوء نفس سالم.

توقف سالم عندما بلغ قلمه نهاية الورقة. كان قد كتب عدة ورقات فرفع الورقة التى انتهى منها بعناية. واستقبلت عيناه صفحة جديدة بيضاء. تمهل لحظة قبل أن يكمل جملته، وامتدت يده بالقلم، ولأمر ما لاحظ أن قلمه أسود اللون، ولأمر ما بدأ سواد القلم يتضخم بغتة، وينتشر السواد ليملأ عينيه، سواد كبير يهاجمه.. سواد لا معنى له، لا مبرر له.. كائن أسود ينمو فوق الأوراق وفوق المكتب ويمتد فى الحجرة. كائن بغيض بشع. وانتاب سالم فزع جاد. فزع مارد، الكائن الأسود

يجثم عليه.. وتتمتد أطرافه السوداء بين النظارة والعينين. تمتد الى الأنف. تضغط على الرقبة. تشد ساقى سالم. كان يشعر بألم فى ساقه اليسرى، ويشعر بانقباض فى صدره. كأنه يستنشق السواد. وخيل إليه أنه سوف يموت فى الحال، وخيل إليه أن كل هذا ليس معقولا.. وخيل إليه أنه من الضرورى أن يقاوم.

أراد أن يصرخ مناديا زينب، ولكنه عجز عن الصراخ، ولم يكن واثقا أنه عاجز عن الصراخ. ورأى فى خياله أنه يقوم ببطء كأنه شخص آخر. ويفتح الباب ويمشى مترنحا. والكائن الأسود يلاحقه حتى يصل الى زينب. ويشير إليها أن تسعفه، فتجرى إليه وتولول وتدفع السواد بيديها، ولكنه لم يأت بحركة، وظل جامدا مكانه. كالمشلول، ورأى وسط السواد الصبى محمود. وجهه وسيم. ولكنه وجه ميت. ورأى محمود وهو يقفز على قدم واحدة. ثم رآه يسقط فى البئر.. وخيل إليه أنه يرى نفسه.. أنا محمود ابن عمتى زكية. ها هو ذا أنا أقفز على قدم واحدة. ها هو ذا أنا أسقط فى البئر. أتحطم. تتهشم عظامى وجهى جميل. عيناى جاحظتان. والدم يسيل من رأسى المشروخ. أنا محمود. أنا الميت، ولكنى منفصل عنه حتى الآن هذا أمر محتم. الدنيا كلها تعلم أن هذا سوف يحدث.. ورأى سالم ابنه الذى لم يولد وهو يسقط فى البئر. ثم رأى جسده العجوز الواهن يسقط فى البئر.. كانت لحظات رعب. لا يدرى كيف يفلت من أسرها. أهذا هو الجنون.. أهذا هو الموت. أهو حلم. كابوس. كان محمود لايزال يقفز على قدم واحدة متجها الى حافة البئر. والكائن الأسود أصبح لزجا متربعا فى كل

مكان.. كان سالم لا يزال يقفز على قدم واحدة متجها الى حافة البئر. لو أستطيع أن أصرخ. لا أريد أن أصرخ.. لو أستطيع أن أتحرك. لا أريد أن أتحرك.. لو يخمد هذا الألم. لو ينحسر هذا الرعب. بعض هذا الرعب. لا أريد. لا أريد. لو نجوت هذه المرة فسأظل أرتعد بقية حياتي. لن أحتمل زيادة هذا الكرب، لن أحتمل عودته. لن أحتمل إنتظاره. كان محمود يسقط في البئر. وكان سالم يسقط فى البئر. وكان الولد الذى لم يولد يسقط فى البئر. ما هى إلاّ لحظات ويتلاشى هذا الانفصال. لو أقرأ اسم الله.. أقرأ الشهادتين. أقرأ آية الكرسى. هذا الرعب يتسلى بى. هذا السواد يرانى. عيونه الشريرة تلعننى. لن تعرف شيئا يا سالم غير هذا السواد. هذا الرعب. يجب أن ترضخ يا سالم.. لابد أن تنهار يا سالم لقد رضخت يا سالم.. لقد تهاويت. كان محمود لا يزال يقفز على قدم واحدة فى السواد.

لأمر ما بدأ السواد ينقشع. والرعب ينحسر، لتعود الحجرة الى هدوئها. سكونها. وليعود سالم الى نفسه. يهمس صوت داخله. العجز ازدهر قبل أن أحيا. المستقبل مات قبل أن أولد ورغم أنه كان يرى صورة شاملة لذكرياته البعيدة فى الريف.. وشعر أنه يستطيع تفسير تلك الكلمات التى تهمس داخله. إلاّ أنه نهض متسللا من الحجرة. وعندئذ سمع صوتا غريبا. انتبه إليه، وسرعان ما أدرك أنه صوت بكاء. زينب تبكى... كان نشيجها يهجم عليه، يملأ أذنيه. يملأ عينيه، يملأ صدره.. البيت يبكى، الدنيا تبكى. التاريخ يبكى. وقف محتارا، أهذه هى النهاية. لابد أن أقاوم وارتمى على مقعد ووضع رأسه بين

كفيه، هذه لحظات لا يعرفها البشر. أنا غير مستعد لهذه اللحظات. بكاؤها يدفعني الى هاوية. أسرع بأنقاذ نفسك يا سالم .. قل أى شيء.. فكر فى أى شيء.. إنها تكذب. تكذب. نعم تكذب.. المجرمة تبكى بصوت عال. لابد أن هناك شابا بين الجيران تريد أن يسمعها. تناديه ببكائها. تقول له تعال هذا البكاء ليس لك يا سالم.. ليس لك ولا عليك.. لا صلة له بك.. البكاء يفصلك عنها تماما.. بعد قليل سيكون بينك وبين زينب بحر من البكاء. لن تغرق فيه يا سالم.. ابتعد.. أنج بنفسك. أنا غير مستعد له. إنتقلت من الريف الى المدينة وأنا غير مستعد.. إنتقلت من المدينة الى باريس وأنا غير مستعد.عدت الى الجامعة وأنا غير مستعد. أنا لم أستعد أبدا لشيء.. جئت قبل الأوان. آه تلك الأيام قبل الأوان. هذا البكاء يعلن النهاية. إنفض المولد. خرجنا منه بلا حمص. كانت تكفى حمصة واحدة. فكرة واحدة. لحظة حقيقية واحدة. لحظة حب لحظة معرفة. خطوة واحدة، كل شيء بعد الأوان.. وكل شيء قبل الأوان. فى حجرة المكتب كائن الفزع. فى حجرة النوم بحر الدموع. هذا أوان الإنتحار.. سكين فى قلبى. أقفز من النافذة. أمشى فى صمت حتى النافذة وأطل على الشارع. ودون أن أدرى، ودون أن أفكر، وبحركة بسيطة. حركة بسيطة جدا. حركة يستطيع أى طفل أن يقدم عليها. وأهوى الى الأرض. ويرتطم جسدى بالأرض. ويثبت جسدى على الأرض. لحظة مؤكدة.. حقيقة. لا تتغير ولا تتأرجح، ولا تتذبذب، وينتهى ذلك الذى إنتهى قبل أن يولد لينتهى. وأترك كائن الفزع.. وأهجر بحر الدموع. حبى لزينب حاسم ونهائى.

شكي في زينب حاسم ونهائي. الإنتحار حاسم ونهائي.. فراغ هذا البيت حاسم ونهائي .. لماذا أردد هاتين الكلمتين. ما معنى حاسم.. ما معنى نهائي.. لا يجب أن يتغير شيء مما أراه.. يجب أن يكف التاريخ الآن.. يجب أن يقف العالم على الدوران. لنتأكد من شيء.. لنثبت عند حقيقة. لنطمئن بلا فزع ولا نغرق في الدموع.

* * *

٣٦

أفاق سالم من جلسته على صوت باب يفتح بعنف. باب زينب. وأقدامها تطرق الأرض بوقع شديد ورأى جسدها مقبلا عليه قبل أن يراه. ولما وقفت أمامه واجهته عيناها الباكيتان تنظران إليه فى غضب.. وتمنى لو أنه أختفى من أمامها.

- أسمع أريد أن أكلمك.

أريد أن أقضى عليك. أتخلص منك.. قبل أن يفعلها عمر.

- ماذا حدث..

إكذبى.. إكذبى. حياتى معلقة بأكذوبة منك.

- أذاهب أنت للقاء عمر؟

أيها العجوز المحطم أنا قادرة عليك.

- نعم.

أصمتى. إذهبى بعيدا عنى. كلامك قبل الأوان. لا أدرى .. ربما فات الأوان.

- لا تذهب.

ها أنذا أصدر إليك الأمر.. وأنا أملك السلاح القاتل لتهديدك..

- كما تريدين.. لن أذهب..

يكفى أن نقف عند هذا الحد، لا تضيفى كلمة واحدة.

سألت زينب بعد صمت قصير. كان صوتها يكاد يثور..

- لماذا لا تذهب؟

- لأنك تطلبين..

- أتعرف السبب ؟

لا تراوغ أيها العجوز الماكر.. سوف أحاصرك.

قال سالم بتأوه :

- لا..

أعرف .. أعرف.. هذا فوق الإحتمال.

ورفع صوته يائسا :

- يجب أن تستريحى..

بحثت زينب عن مقعد بعيد، وجلست عليه.. الإرهاق ينشط فى وجهها .. عيناها تقتحمان سالم فى إصرار، وقالت بصوت يبدو كسولا :

ـ عمر يريد أن يقتلك.

سمعت صوت كلماتها.. كأنها أجساد صلبة تنتقل ببطء قاطعة المسافة بينها وبين سالم.. وارتطمت الكلمات بسالم.. فدافع عن نفسه بابتسامة، وقال:

ـ لا أظن.

لا أظن أننا نعيش الآن. لا أظن أننى سالم عبيد، لا أظن أن هناك أهمية لما يدور بيننا.. لا أظن.. لا أظن.

ـ عمر هو الذى قال لى.. إنه يدبر قتلك..

أنا التى قلت له. هو الذى قال لى.. أنا التى قلت له..

أنا أو هو، كلانا متشابهان..

ـ لا أظن..

لا أظن أن هناك أملا.. لن تكذب! ستواجهنى، ستصارحنى، ستفضى إلى بالتفاصيل .. نهاية النبوءة، نهاية التدبير.. نهايتى..

ـ إسمع.. سأكلمك بصراحة..

انكمش فى مقعده وهمس:

ـ ماذا ؟

ـ هناك أشياء يجب أن تعلمها.. ردد ذاهلا :

ـ أشياء.

ـ لأنى قررت أن أنهى حياتنا معا.

ـ حياتنا..

ـ أنت تعلم أنى منذ ست سنوات.

قاطعها فى ألم :

ـ زينب ..

إندفعت قائلة :

ـ وأنا أعرف رجالا غيرك..

أطرق برأسه. بعد لحظات سيغرق فى بحر الدموع.. ومضت زينب تقول :

ـ عرفت كثيرين.. لا أدرى كم عددهم..

تمتم يائسا قبل أن يقذف بنفسه فى البحر..

ـ لا أصدقك. لا أصدقك..

ـ أتريد أن تعرف أسماءهم.. عناوينهم، أرقام تليفوناتهم، رأفت الملوانى مهندس زراعى له شقة فى الدقى.. عبد الوهاب رمضان ضابط فى الجيش فى مصر الجديدة. كنت أعود مع الصباح أتذكر.. فوزى عبدالرحمن. لا مهنة له.. حشاش .. كنت أصرف عليه من نقودك.. رأفت حمودة مدير معهد حموده للتدليك. كثيرون.. نسيت أسماءهم.. آخرهم عمر النجار .. أنا التى ذهبت إليه. ولكنه رفض..

وصمم على أن يقتلك..

كان سالم يبكى..

- لماذا تقولين لى كل هذا..

أطرقت برأسها.. ولم تجب.. كانت تشعر بنفور شديد منه، ومن نفسها.

قال متوسلا والبكاء يخنقه :

- أنت تحبيننى يا زينب..

- طلقنى الآن..

- أنت تحاولين إنقاذى يا زينب.

- أريد أن أتركك.. وأريد لك أن تعيش..

- بغيرك.. أعيش بغيرك يا زينب.

- كنت دائما بغيرى..

- كذب.. كل حياتى مرتبطة بك.. كل لحظة من تفكيرى مرتبطة بك.

- مستحيل أن نبقى كما كنا..

- بعض أمل..

- كيف نعيش.. هل تستطيع أن تتصور المستقبل بيننا..

قال باكيا، كان لسانه يتعثر كطفل..

ـ أنا .. وأنت .. وكل ما تريدين..

ـ أنا لا أعرف ماذا أريد.. أعرف فقط أنى لا أريد الحياة معك.. أتعرف أنت ماذا أريد.. أنت تريدين..

وسكت، كان يعرف أنها تريد الخلاص منه..

ـ ألا يوجد شيء أستطيع أن أقدمه لك..

ـ أنت..

قال متراجعا :

ـ أنا في حاجة إليك..

فات الأوان، فات الأوان أنا في حاجة الى الموت..

قالت زينب:

حاولت أن أعيش.. قلت لنفسي أنت أبى.. قلت لنفسي أنت محمود.. أنت تعرف حبنا.. ولكن أبى مات ومحمود مات، كل من أحببتهم ماتوا.. لعلى تذكرت فيك موتهم، لعل هذا هو ما جعلني أهرب منك.. أنا ببساطة أريد أن أعيش.. بأي ثمن .. كنت وأنا طفلة أعيش مدللة.. كانوا ينادونني زوزو موزو.. أنت لم تسمع أبدا هذا الإسم.. لم أكن وأنا طفلة أفكر في الهموم .. لم أكن أفكر أبدا.. أنت لا تعرف كيف تعيش بغير تفكير.. لا تتصور أني أحببت أحدا غيرك.. لا قيمة

لمغامراتي... ولكنها تمثل لي رغبة أكبر من الحياة.. من الفرح.. في الجو.. أتفهم كلمة جو.. كان لابد أن أنسى أن هناك موتا.. وأبوه.. وحبا.. هناك ما هو أهم من ذلك بالنسبة لي.. الحياة نفسها.. كلام أطفال.. أليس كذلك.. أنا أعلم أنه كلام أطفال. كلام ساذج أهبل، أعلم هذا الآن فقط.. ولذلك كنت أبكي، ولكني سأظل كما أنا سأظل أبحث عن الحياة المفرحة. سأبحث عن هذا الذي أعلم أنه مستحيل لأني بعد كل محاولاتي وجدت أنيِ مازلت محاصرة بك. تلك الأوراق التي كتبتها عن عمر النجار ثم أخفيتها عني أنت تعلم أني قرأتها، كنت تضطرني الى التفكير، كنت تضعفني، تدفعني إلى التسلل في الظلام، الى الهمس في التليفون، الى الشعور بالذنب، كنت تلوث حياتي، تفقدني براءتي، وجودك معي يقول لي أن ما أطلبه جنون أو حماقة أو جريمة أو خيانة، كنت تذكرني بثقل حياتي، تقيد حريتي، منظرك العجوز يكفي وحده لأنه يواجهني بالموت أتعرف، عمر أراد قتلي قبل أن يفكر في قتلك واجهت الموت في بيته، كان مسدسه مصوبا إلى رأسي، ويده على الزناد، وكنت واثقة أني لن أموت، وها أنذا أواجهك الآن، وأنا أعرف أنك تعرف عن كل شيء، تتهمني، تصدر عليّ أحكامك، لا تخدعك دموعك فهي لا تخدعني ولا تخذعني إعترافاتك بحبي وحاجتك إليّ، أهذا حب؟ من الذي يحب امرأة مثلي؟ لماذا لا تثور؟ لماذا لا تتحرك للدفاع عن شرفك؟ لأنك تريد أن تقتلني بطريقتك، أنت تقتلني منذ سنوات طويلة تحول لحمي ودمي وعواطفي الى أفكار وظنون وسطور على الورق، أنت مسرور في قرارة نفسك

لسماعك إعترافاتى، هذا هو أسعد أيام حياتك، عشت سنوات طويلة ولا شيء تتمناه مثل هذه اللحظة، ماذا بقى لتعرفه، ماذا يجعلك تتوسل لبقاء حياتنا معا، شيخوختى، موعد دفنى أنا لن أعرف الشيخوخة، ولن أموت سوف أعيش، سوف أتحرر منك..

واجهشت فجأة بالبكاء، وقالت بصوت يائس !

- لن أنساك أبدا يا سالم ..

قال سالم بصوت صادر من قلبه:

- أنت تلديننى الآن يا زينب.. أنا ابنك.. رضيعك .. لم أعد أريد أن أعرف .. ما قيمة ما يعرفه جنين.. دعينى أحيا بين ذراعيك .. أطيش معك.. أجن معك..

قالت فى ألم :

- قلت لك لا تخدعنى يا سالم. أتعد حقيبتك، أم أعد حقيبتى.

ورأى نفسه يقفز فى السواد على قدم واحدة ويسقط فى البئر..

* * *

٢٧

أودع سالم حقائبه فى السيارة واتجه الى بيت عمر النجار. لابد أن يقتلنى عمر. سأرغمه على قتلى، هذه نهاية التدبير، نهاية النهاية.

فتح عمر الباب والتقى الإثنان، وجها لوجه، لا يبدو على أحدهما الدهشة أو الإرتباك..

قال عمر:

ـ موعدنا غدا..

قال سالم فى برود :

ـ لم أستطيع الإنتظار..

ـ ما أدراك أنى فى البيت ..

أجاب سالم متوددا:

ـ كنت واثقا أننِي سأجدك.

قال عمر ووجهه جامد لا يفصح عن شيء :

- ظننتك تنام فى مثل هذا الوقت..

قال سالم معتذرا :

- عندى أرق، ووجدتنى فى حاجة الى الحديث مع صديق، وفكرت فيك.. أرجو ألاّ ترفض رجائى..

كان سالم يتوسل إليه، صوته هادىء وقور حزين.. قال عمر:

أنا على استعداد..

ثم أردف قائلا وهو يحدق فى وجه سالم :

- هل أحضر لك ورقا وقلما ..

- لا .. لن أستطيع الكتابة الآن.

قال عمر فى جفاء :

- إسألنى وأنا أجيب.

قال سالم فى حنان :

- أريد أن أعيش معك فى ..

وتردد سالم ثم رفع صوته قائلا :

- فى جو..

- أى جو؟

- جو عملية من العمليات الحقيقية.

ابتسم عمر، كان وجهه شاحبا، والإرهاق نشيط فى وجهه، وسأل فجأة ..

- معك عربتك ؟

- نعم .

- أين ؟

- تنتظرنى عند الباب.

قال عمر وابتسامته تتسع وعيناه تبرقان والإرهاق ينحسر عن وجهه :

- هيا بنا ..

- الى أين ؟

قال عمر ضاحكا :

- لن أقولك .. سأقود أنا العربة.

قال سالم وهو يهز رأسه مرحبا - موافق..

قال عمر كأنه يحلم :

- سنسير فى الليل ..

قال سالم متظاهرا بالبراءة

ـ ما أجمل رحلة الليل..

ـ لن تكون رحلة طويلة..

ـ أرجو هذا..

ـ وسوف تقابل أعز صديق عندى.

ـ من ؟..

ـ لن أقول لك حتى تراه..

ـ مثلك..

ـ نعم مثلى..

له تاريخ..

ـ سوف تسمعه يتحدث.. هو الجدير بأن يتحدث..

ونهض عمر واتجه الى الدرج الذى يحتفظ داخله بالمسدس.. ووقف أمامه موليا ظهره لسالم، وفتح الدرج وأخرج المسدس وقال مبتسما وهو يضعه فى جيبه :

ـ لا أظن أننا سنستعمله.. فالطريق أمان..

سأل سالم بوجه يشوش :

ـ هل به طلقات؟

ـ نعم ..

تمتم سالم ..

ـ لابد أن يكون كل شيء حقيقيا ..

قال عمر فجأة وهو يصوب نظرات حادة الى سالم :

ـ أنت تعلم أننا نرتكب جريمة.. المسدس غير مرخص.

ضحك سالم قائلا :

ـ نرتكبها من أجل المعرفة.

فزمجر عمر ..

ـ هيا بنا .

وهبطا الى الشارع ووقف عمر طويلا يحدق يمنه ويسره في الظلام. ثم أتخذ مقعد القيادة. وأدار العربة وسار ببطء. أدرك سالم أنه كان يرقب الطريق.. ويريد أن يتأكد أن أحدا لا يتبعه، وسرت قشعريرة في جسده.. ولكنه مصمم على المضي الى النهاية المحتومة.. لم أدرك تفاهة حياتي مثل الآن.. خلال هذه الساعة ولدت وأموت.. واجهت الحياة وها أنذا أواجه الموت.

ساعة من الحقيقة بالدنيا كلها.. ساعة تافهة.. ساعة ضرورية..

* * *

قال سالم وقد اكتشف الطريق..

- هذا طريق القناطر..

- نعم.

- أذاهب أنت الى هناك..

قال عمر:

- الى بيت صديقى..

وجم سالم .. أيكون عمر جاد .. أليست هذه حيلة لقتلى .. هل أحب زينب ولم يعد قاتلا.. أتهجرنى زينب لتعيش معه .. وماذا يتبقى لى.. فقدت المؤرخ الكبير... أنا طفل فى الحياة... عجوز فى الجسد، طفل بعد الأوان.. جسد قبل الأوان.. مثلى يجب أن يموت.. مثلى فى حاجة الى عمر القاتل..

كانت أنوار القناطر تبدو من بعيد.. والسيارة مسرعة تقطع طريق الظلام.. كل خطوة تبعدنى عن فرصة الموت.

- سر ببطء يا عمر..

- لقد اقتربنا..

- أريد أن أحدثك..

- قلت لك لن نتحدث حتى نقابل صديقى..

- سأحدثك فى أمر آخر..

- ماذا ؟

- سأحدثك عن زينب..

- زينب..

وأبطأ سير العربة بالرغم منه..

كان سالم يلهث .. وقال ..

- هى السبب فى مجيئى..

- ماذا قالت لك..

- لا شىء محدد .. كانت تبكى..

- وما السبب..

- تريد الطلاق..

- لماذا ؟

- لأنها تحب شخصا آخر..

- قالت لك هذا ..

- نعم .

- من هو ؟

- لا أعلم ..

- وماذا فعلت ..

- رفضت الطلاق.. لأنها طفلة لا تعى ما تقول ..

همس عمر :

- إنها ليست طفلة..

قال سالم متظاهرا بالبراءة والقحة :

- أنا أعلم منك يا ولدى.. نحن لا نتكلم الآن عن المسدسات..

كان يتكلم وقلبه يزدحم بالهلع.. فهو يتوقع فى أية لحظة الرصاصة القاتلة.

قال عمر ببطء مخاطبا نفسه :

- إذن فهذا هو ما جاء بك ..

وأوقف العربة.. الطريق مظلم خال. والحقول ممتدة.. ترتفع فيها أشباح النخيل. والهواء رطب. والأنوار تبدو صامتة تنتظر من بعيد.

قال سالم :

- نعم .. هذا هو ما جاء بى..

قال عمر :

- لأنك تعلم ..

أطرق سالم برأسه.. ومضى عمر يقول :

- لأنك تعلم أنى أحبها..

همس سالم متصنعا الاضطراب :

ـ خطر لى هذا..

قال عمر وهو يضغط على أسنانه.

ـ وجلت لى..

ـ نعم..

ـ ماذا تنتظر..

قال سالم فى وقار متعمد.. رسمه بعناية :

ـ أن تبتعد عن طريقها..

هتف عمر كالمجنون :

ـ أو أنت الذى يبتعد ..

ـ إنها زوجتى .. وسأظل متمسكا بها إلى الأبد..

وظهر المسدس فى يد عمر.. وهو يتمتم من بين شفتيه المضمومتين :

ـ أنت تحكم على نفسك بالموت ..

الفرج جاء.. ها هو الموت يقبل.

همس سالم مصوبا الطعنات الأخيرة الى صدره..

ـ زينب زوجتى.. ولن يأخذها منى أحد..

كان لا يتوقع أن يكمل جملته.. فوهة المسدس تفغر فاهها الضيق..

ويد عمر ثابتة.. لماذا لا يطلق الرصاصة.. لماذا لا يقتل..

كان عمر يهمس :

- أنت حقير.

هتف سالم يائسا :

- لماذا لا تقتلنى ..

صرخ عمر محتدا :

- لا تصدر إلىّ أوامرك..

قالها وصوته يتهدج آلما وغضبا..

- أتوسل إليك أن تقتلنى..

صاح عمر والغيظ يأكله :

- الضحية لا تتوسل لقاتلها أن يقتلها.. الضحية لا تسعى الى قاتلها.. أنت تخدعنى ولن أقبل خدعتك.. أنت الذى يصطادنى.. أنت الذى يدبر لى تصرفاتى. لست يدك يا سالم .. هذه هى يدى.. هذه هى أنا.

كان يلوح بيده الممسكة بالمسدس فى عنف وشراسة ويقول:

- لست أداة تحركها كما تشاء.. مهما عرفت يا سالم فلن تصل الى هذا الحد. أنا أقتل من أشاء.. وقتما أشاء.. أنا أقتل بلا سبب.. بلا قيد.. لا قيمة للقتلى.. المهم هو القتل .. أتفهم هذا. يدى والموت.. يدى أنا وموتى أنا. هذا خارج حدود عقلك.. خارج حدود عقل أى بشر.. أنت

لا تدرى كم بذلت من جـهـد كى ألغى هذا العـقل.. لو انتظرت حـتى نصل الى القناطر.. لسمعت منه كيف يكون الموت فى اليد .. أقول لك سمعت.. ولا أقول عرفت. لأنك ستغال تسمع عنه ولن تعرفه أبدا. أتريد أن ... لماذا لا تقتلنى أنت كما يجب أن يكون. إفعل.. هيا أرنى كـيف تثـور دفـاعـا عن عـرضك .. نعم أنا أحب زوجـتك.. أحب زوجتك.. أليس عندك شرف تثأر له.

ودفع عمر بالمسدس فى يد سالم.. فارتعدت يده. وسقط المسدس.. وساد الصمت. الحقول صامتة وأشباح النخيل صامتة.. والأنوار البعيدة صامتة. وسالم وعمر يجلسان جنبا الى جنب.. وارتفع صوت هدير المحرك.. وعادت العربة.. مولية ظهرها أنوار القناطر.. مندفعة فى طريق القاهرة..

«تمـت»

فتحى غانم



المعرفة حق لكل مواطن وليس للمعرفة سقف ولا حدود ولا موعد تبدأ عنده أو تنتهى إليه.. هكذا تواصل مكتبة الأسرة عامها السادس وتستمر فى تقديم أزهار المعرفة للجميع. للطفل - للشاب - للأسرة كلها. تجربة مصرية خالصة يعم فيضها ويشع نورها عبر الدنيا ويشهد لها العالم بالخصوصية ومازال الحلم يخطو ويكبر ويتعاظم ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة... وأننى لأرى ثمار هذه التجربة يانعة مـ... بأن مصر كانت ومازالت وستظل وطن الفكر المتحرر ... والحضارة المتجددة.

سوزان مبا...

مكتبة الأسرة

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٩

٤٠٠ قرش

مهرجان القراءة للجميع
للطفل . للشاب . للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة